أمثالنا الموروثة

قيمتها الأدبية والفكرية

ودلالتها على شخصية الإنسان العربي

دكتور

أحمد عبد الغفار عبيد

١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

(وما توفيقى إلا بالله)

رقم الايداع

٨٧ / ٧٣٥٧

المقدمة

دراسة الشخصية العربية فى العصور القديمة لاتنفصل حسب تصورى عن واقع حياتنا . ولاينبغى أن ينظر إليها على أنها تعلق بماض ذهب . أو تفرس لآثار عفا عليها الزمان . فهذه الدراسة وإن تكن فى حقيقتها تعود إلى أعماق الماضى فغايتها ارتياد آفاق المستقبل . وهدفها أن تحدو مسيرة هذه الأمة العريقة نحو غد مشرق ، لايقل سموا عما تحقق للعرب الأقدمين .

لقد بدأت فكرة هذا البحث تلح على خاطرى منذ سنوات خلت ، عانيت فى أثنائها وما أزال - شأن كثيرين غيرى - آلام المصير العربى فى عصرنا الحاضر ، فقد اهتزت بشكل مفجع صورة الأمة العربية فى عالم اليوم واهتزت معها الشخصية العربية تحت وطأة الواقع المر ، وما أحرانا أن نبذل جهودنا فى استعادة الصورة التى نرتضيها لأمتنا ، وأن نبعث فى الشخصية العربية ما يعيد إليها اتزانها وشموخها ، ويبث فيها شعور الإباء ورفض الاستسلام للهزيمة ، من خلال ما تطرحه فى عزة واستعلاء شخصية سلفنا العربى المسلم فى عصور المجد الإسلامى الزاهر ، بما عرف عن تلك الشخصية من مقارعة الصعاب وقهر المستحيل ، فما ثناها عن قصدها خطر ولا استسلمت لعدو ، ولا فقدت حيلة للخروج من مأزق .

ومن ثم فإن البحث قديم فى مادته جديد فى مضمونه وغايته ، وإننى لعلى قناعة من أن لكل أمة مقوماتها الشخصية المميزة ، وطابع مثالياتها وأخلاقياتها . وأنّ قدرا كبيرا مما أصابنا فى العصور الأخيرة يعود إلى ضعف تلك المقومات ، والتحلل من الالتزام بها ، والانبهار بشخصية الغربيين ، الذين كان إعجاب فريق منا بهم مصدر الهوان والخضوع ، وبسبب اليأس والقنوط اللذين يخيّمان على نظراتنا للواقع وتطلعاتنا للمستقبل . ولاريب فى أن أخطر ما تواجهه أمة هو أن تضعف مقومات شخصيتها ، وتذوب أصول حضارتها وتضطرب قناعة أبنائها بتراث أمتهم ومثالياتها عندئذ توشك على الضياع وتعيش حياة الذل على هامش التاريخ .

وأمثالنا العربية القديمة - كما هو معروف - حظيت بعناية علماء العربية فى عصر

التدوين ، فاهتموا بجمعها وشرحها وحكاية مايتصل بها من أحداث وبيان معانيها ومواردها ومضاربها .. إلى غير ذلك مما يدور حولها ، واعتدوها بصفة خاصة مادة لغوية مهمة ، بحسبانها تمثل اللغة العربية فى بيئاتها الأصلية ، ومواطنها الخالصة من شوائب العجمة لأن الأمثال بطبيعتها تتطلب صيانة منطوقها كما سمع من قائلها الأول . ولذا اكتسبت لدى علماء العربية أهمية لغوية خاصة .

والذى يلحظ أن ما تحفل به مكتبتنا العربية من كتب متعلقة بالأمثال سواء من كتب التراث أم من مؤلفات المحدثين تتناول بصفة خاصة جوانب لغوية ، أو حكاية أخبار ارتبطت بالأمثال ، أو مقارنات بين الأمثال فى لغتين أو أكثر ، أو تتناول كتب الأمثال بالتحليل والتعليق .. أما بحث دلالات الأمثال ومضامينها العامة ، وعلاقة ذلك بحياة العرب وفكرهم وشخصيتهم فذلك ما لم يسبق لأحد أن أفرد له مؤلفا مستقلا ، والغريب أن المحدثين بصفة خاصة يكادون يغفلون هذا الجانب مع أهميته ، وعلى الرغم من كثرة ما ينقبون عن أجناس الأدب القديم ، ويبحثون فى دقائقه .

إن الأمثال العربية القديمة تراث أدبى ونتاج فكرى على جانب كبير من الأهمية ودراستها من جوانبها الفكرية والنفسية والأخلاقية ودلالاتها البيئية ، وتصويرها لحياة قائليها ، وملامح شخصيتهم العامة – هذه الدراسة حرية بأن تكشف للقراء والباحثين حقائق مهمة وتقف بهم على معطيات لم يكن لهم عهد بها من قبل ، بل إنها ستسهم فى إزالة كثير من الأحكام الخاطئة ، والاستنتاجات المتسرعة التى دأبت فئة من المؤلفين على ترديدها وترسيخها فى الأذهان عن حياة العرب الأقدمين . وهى فى الواقع من قبيل التعميمات الفجة ، والمزاعم التى لا أساس لها من الصحة .

فإذا كان الباحثون فى خصائص حياة العرب من جوانبها الاجتماعية والحضارية يعوّلون كثيراً على الشعر القديم فإن الأمثال حسبما استبان لى – تكفل للباحث عن هذه الظواهر المزيد من الحقائق الثابتة ، بل المسلمات التى لاتقبل المماراة .

ولايغيب عن القارىء الحصيف أن الأمثال ليست حكراً على أدبنا العربى وليست وقفا على الناطقين بالضاد ، بل هى موجودة فى مختلف لغات العالم ولدى سائر الشعوب ، وكأن المدبر الأعظم – جلت قدرته – قد ألهم الفطرة الإنسانية أن تعى فى ضميرها تلك الأقوال النافعة ، والوصايا العظيمة ، وتتناقلها جيلا بعد جيل ، فيطرد بذلك ارتقاء الجماعة الانسانية ، ويتجاوز اللاحقون أخطاء السابقين . بيد أن الأمثال وان تكن عالمية فى أصلها

ومنشأها فهى بلاريب تتميز فى كلّ لغة بميزات ذاتية ، وتتسم بصفات فنية خاصة ، ربما تفقد بعضها عندما تنقل من لغة لأخرى شأن أجناس الأدب التى تحفل بعناصر خاصة تفقدها عند الترجمة كما هو معروف .

ويهمنى فى تقديمى لهذا البحث أن أوضح للقارىء أن منطلقاتى فى دراسة هذا الموضوع تتركز فى استكناه القيم والدلالات المتعددة التى تستنبط من الأمثال القديمة ، وسيلمس القارىء لهذا البحث أننى لاأصدر فيما أقوله أو أقره عن آراء سابقة أو أفكار وقناعات مبيتة ، وإنما أجعل معتمدى فى الاستنتاج والتقرير ما تقدمه النصوص ، وتوحى به التفسيرات والشروح التى وضعها العلماء للأمثال ، وهى كثيرة وأصحابها معدودون بين أئمة اللغة وأهل الفقة والتبريز فيها .

ان الأمثال العربية القديمة بعطاءاتها الفكرية القيّمة ، وإيحاءاتها النفسية الخصبة لتعد من أنفس ما يقدمه لنا التراث القديم فكرا وشعورا ، ووعيا إنسانيا على جانب عظيم من الأهمية ، وواجبنا أن نعنى بهذا التراث وأن نتأمله ، آخذين منه العبرة ، مستفيدين خبرة الحياة ، وتجارب العقلاء ، وحصيلة قرائح الحكماء .

ولسوف يزداد المتأمل لعطاءات الأمثال القديمة إذ يطالع فيها صواب الرأى ، وعمق الفهم ، وشمولية النظر ، لاعلى سبيل التفلسف أو التأمل التجريدى ، بل عن طريق الإحساس الفطرى الذى الذى صقلته الخبرات الواسعة ، وغذاه الإلهام الجماعى ، فأتى مزيجا ثمينا ، ونسجا متينا سداه الوجدان ولحمته الواقع الإنسانى المتفاعل مع البيئة ، المصور للطبيعة الاجتماعية والتكوين النفسى للمجتمع بطوابعه الأخلاقية ومثله ومزاجه .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمثالنا العربية القديمة ليست على مستوى واحد فى الأهمية الفكرية أو القيمة الأدبية ، لأن فيها الغث والسمين وفيها ما هو فى ذروة البلاغة والزكانة وما هو أقرب الى اللغو والتفاهة لأن علماءنا الأقدمين جمعوا الأمثال بأسلوب الحصر وسلكوا فى تبويبها المنهج الذى سلكوه فى جمع مفردات اللغة ولم يراعوا فيها أسلوب الاختيار والانتقاء ، فأتت مؤلفاتهم حاوية الجيد والردىء ، وعلى الرغم مما بذله العلماء الأقدمون من جهود فإنهم لم يجمعوا سائر ما ورد عن العرب من أمثال ، وقد اتضح لى خلال دراستى لهذ الموضوع أن هناك طائفة من الأمثال القديمة مبثوثة فى مصادر متفرقة وليس لها وجود فى مجاميع الأمثال المشهورة والمتداولة بأيدى الباحثين .

وثمة صعوبة واجهتنى فى دراسة الأمثال وهى أن جامعى الأمثال وشراحها لم يميزوا

الأمثال الجاهلية عن الإسلامية ، ولذلك يجد الباحث فى العصر الحديث عنتا فى الحكم على كثير من الأمثال بأنها جاهلية أو إسلامية ، وقد جهدت فى حديثى عن سمات الشخصية العربية القديمة أن تكون الأمثال التى أستوحى منها سمات تلك الشخصية مما قيل فى عصر ما قبل الإسلام ، واستندت فى ذلك إما على قائل المثل أو على الملابسات التى تحيط بقصته ان لم ينص شراح ألامثال على قائله .

وقد عالجت فى الباب الأول من هذا البحث دلالات الأمثال تاريخيا واجتماعيا ونفسيا وأخلاقيا ولغويا ، وفى الباب الثانى تناولت القمية الأدبية للأمثال من حيث بلاغة صياغتها وطبيعة أسلوبها ، والقصص المرتبطة بها والخرافات المبثوثة فى بعضها . وفى الباب الثالث عرضت للقيمة الفكرية للأمثال من حيث الخبرات التى تستفاد منها ، وعلاقة هذه العطاءات الفكرية بواقع حياتنا ، وفى الباب الرابع والأخير تكلمت عن ملامح الشخصية العربية على ضوء الأمثال ثم أشرت الى أثر الاسلام فى الشخصية العربية وأخيرا وازنت بين الشخصية العربية القديمة والشخصية العربية فى عصرنا الحاضر وما يحيط بها من أزمات وحددت ما أطرحه من مقترحات للنهوض بالشخصية العربية والانتقال بها الى مستقبل أفضل .

ولأزعم أن ما أقدمه للقراء فى هذا الكتاب قد بلغ الكمال ولكنه جهد متواضع أضعه بين يدى قراء العربية ومحبيها ، وحسبى أننى أحاول بهذا التصور الذى أطرحه التنبيه على جانب من الدراسات المتعلقة بالتراث لم ينهض به أحد . والله أسأل أن يكون جهدى هذا نافعا لقراء العربية مثريا للبحث الجاد ، وأن يكون كذلك مجديا فى مجال تبصير أبناء هذه الأمة بفضائلها الموروثة ومجدها العريق ، باعثا فيهم الهمة والعزم الراشد للسعى الحثيث نحو غد مشرق بحول الله ، والله الهادى الى سواء السبيل .

شكر وتقدير

للأخ الصديق صالح ابراهيم العوض

ذلك النموذج الطيب لشبابنا النابه الذى يعشق تراث العربية والإسلام ويتوق لإحيائه وازدهاره . فقد فتح لى مكتبته العامرة ، وأمدنى بكثير من الكتب والمصادر ، عندما بدأت إعدادا هذا البحث فى المملكة العربية السعودية ، فله منى الشكر والعرفان ، ومن الله عز وجل حسن الجزاء .

الباب الأول

دلالات الأمثال

- تمهيد : نبذة عن الكتابات التى تناولت الأمثال قديما وحديثا .
- **الفصل الأول :** الدلالة التاريخية .
- **الفصل الثانى :** الدلالة الاجتماعية .
- **الفصل الثالث :** الدلالة النفسية .
- **الفصل الرابع :** الدلالة الأخلاقية .

نبذة عن الكتابات التى تناولت الأمثال قديما وحديثا :

ليس من مقاصدى فى هذا البحث أن أعرف بالمؤلفات التى تناولت الأمثال أو أن أحلل منهج كل منها ، ولكن ألمح هنا إلى أهم تلك المؤلفات وما ينفرد به عما عداه وسأوجز ذلك فى النقاط التالية :

أولا : بدأ تدوين الأمثال وشرحها مع بداية الحركة العلمية العربية التى شملت تدوين مختلف نصوص الأدب القديم فى القرن الثانى الهجرى . ويعد المفضل بن محمد الضّبى أول من عالج البحث فى الأمثال ممن بقيت بأيدينا كتاباتهم ، وإن كانت هناك دلائل على سبق جماعة من الرواة الأول فى عصر بنى أمية إلى تدوين بعض الأمثال ومنهم : عبيد بن شرية وصحار بن عياش وغيرهما .

ومن ثم فإن كتاب « أمثال العرب » للمفضل الضّبى يعد من بواكير ما وضع فى الأمثال ، وهو ينحو فى كتابه منحى قصصيا حيث يأخذ فى سرد الخبر أو القصة موردا فى أثنائها المثل أو الأمثال فمحور الحديث عنده هو الحكاية ، وكأنه كان معنيا بذكر مورد المثل وأول من قاله .

والأمثال التى أوردها المفضل جاهلية فى الأعم الأغلب كما يؤخذ من القصص التى حكاها وتدل بعض النقول فى المصادر على أن المفضل جمع أمثالا كثيرة ، ثم اختار منها هذا العدد الذى رواه عنه ابن الأعرابى ، فلدى أبى عبيد القاسم بن سلام نقول كثيرة عن المفضل لم ترد فى هذا الكتاب ، وأورد حمزة فى الدرة الفاخرة المثل : « أفقر من العريان » نقلا عن المفضل ، وهو غير موجود فى هذا الكتاب ، كما أورد الواحدى فى الوسيط مثلا آخر هو : « بَقِّ نعليك وابذل قدميك » عن المفضل أيضا ولا وجود له كذلك فى كتابه هذا[1] .

وإلى جانب كتاب « أمثال العرب » للضبى ظهر فى تلك المرحلة أو قريبا منها كتاب « الأمثال » لأبى فيد مؤرج السدوسى ، وهو كتيب صغير الحجم نشر مؤخرا فى الرياض بتحقيق الدكتور أحمد الضبيب ، ويسير أبوفيد فى روايته للأمثال على نهج استطرادى لايلتزم فيه أسلوبا محددا فى التبويب أو الترتيب ويعنى كثيرا بالجوانب اللغوية ويكثر من الاستشهاد بالأبيات الشعرية .

---

(١) مقدمة « أمثال العرب » للدكتور إحسان عباس (المحقق) ص ٦٠٥

ثانيا : انتقل تدوين الأمثال نقلة أخرى على يدى أبى عبيد القاسم بن سلام الهروى صاحب كتاب « الأمثال » وهو من أهم مادون فى الأمثال لدى القدماء وأحفله بالشرح الدقيق والتعليق المهم ، وهو أيضا من أكثرها شهرة وذيوعا فى أوساط العلماء ، إذ عنى بشرحه وتدريسه طوائف منّ العلماء من أشهرهم أبو عبيد البكرى الأونبى صاحب « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال » .

وقد كان أبو عبيد أول من راعى فى ترتيب الأمثال موضوعها فصنفها من حيث مضمونها ووزعها على أبواب يشتمل كل باب على طائفة من الأمثال ، وقد يكون الموضوع متشعبا فيقسمه إلى عدة أبواب . وبعد أن يستأنس الهروى فى بداية كتابه بمسلك الرسول ﷺ فى ضرب الأمثال والتمثل بها ، وكذلك سلفه الصالح يبدأ فى أبواب كتابه على النحو التالى .

هذا جماع أبواب الأمثال فى صنوف المنطق وعددها ٢٨ بابا .
هذا جماع الأمثال فى مصائب المنطق ومساويه وعددها ١١ بابا .
جماع أمثال الرجال واختلاف نعوتهم وأحوالهم وعددها ٣٠ بابا .
ومن تلك الموضوعات التى صنف الهروى الأمثال عليها : -

الأمثال فى مكارم الأخلاق ، والجود والمجد ، والخلة والأخلاء والأموال والمعاش ، والعلم والمعرفة ، والظلم وأنواعه والمصائب والندم ، والخطأ والزلل فى الأمور .. الخ .

وقد ذاع كتاب الهروى وانتشر فى أنحاء الأقطار الإسلامية وعنى به علماء المغرب وشرحه عالم منهم وكتب لشرحه الذيوع وهو أبو عبيد الله البكرى الأونبى صاحب « فصل المقال » وقد أفاد البكرى - كما يذكر زلهايم « من التعليقات الموجودة من قبل ، ويظهر فضله فى أنه جمع تلك التعليقات القديمة التى كتبها علماء مرموقون ، والتى تحتوى على شروح نحوية ولغوية وتاريخية ، فى كل متكامل سهل القراءة ، وفى أنه نسب كثيرا من الأبيات التى كانت مجهولة القائل لدى أبى عبيدة وغيره ممن شرحوا كتابه[١] .

ثالثا : عرفت مؤلفات الأمثال نمطا آخر من الترتيب على يدى حمزة بن على الأصفهانى صاحب « الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة » فهو أول من رتبها على حروف المعجم ، وإن كان قد اقتصر على الأمثال الواردة على وزان أفعل ، وذكر فى كتابه منها

---

(١) الأمثال العربية القديمة ص ١٥١ (بتصرف) .

١٢٠٠ مثل مرتبا إياها على حروف المعجم ، وقلده من أتى بعده من المؤلفين واستصوبوا هذا المنهج .

ويدخل فى هذا النمط من البحث فى الأمثال وترتيبها على حروف المعجم كتاب « جمهرة الأمثال » لأبى هلال العسكرى من علماء القرن الرابع الهجرى ، ويتألف كتابه من تسعة وعشرين باباً تشتمل على نحو ثلاثة آلاف مثل منها نحو ثمانمائة على وزن أفعل . وقد شرح أبو هلال الأمثال التى أوردها شرحاً مسهباً « مشتملا على مواردها ومضاربها وتفسير ماورد فيها من غريب الألفاظ ، وأعقب كل باب من أبوابه الثمانية والعشرين بما أورده حمزة الأصفهانى من الأمثال المضروبة فى التناهى والمبالغة.. بعد أن نفى منها المولد[1] » .

واذا كانت جمهرة العسكرى على العموم ليست إلا تجميعا لكتب الأمثال السابقة ، فإنها مع ذلك تعد جهداً خاصاً ومهما لمؤلفها لأن العسكرى كان فى معالجة المادة ناقداً ، فترك بعض الشروع لمثل ما - مثل هذه القصة أو تلك من قصص الأمثال عديمة الجدوى .. كما رمى بعض الشرح بالخطأ[2] .

رابعا : بلغ تدوين الأمثال وشرحها أوجه فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للهجرة ، وذلك بظهور « مجمع الأمثال » للميدانى و « المستقصى فى أمثال العرب » للزمخشرى ، وهما أكبر مجموعتين فى الأمثال القديمة عرفنا فى تاريخ الأدب العربى . ولم يظهر بعدهما مؤلفات فى الأمثال ذات بال ، إذ لم تعد المحاولات التى بذلت بعد ظهور هاتين المجموعتين شرح كتاب من الكتب القديمة أو أختصاره أو النظر فى المجموعات الكبرى والتعليق على ما جاء فيها والموازنة بينها .

أما كتاب « **مجمع الأمثال** » للميدانى فهو أوسع مجاميع الأمثال العربية القديمة على الإطلاق ، إذ تقترب المواد التى سردها مؤلفه فيه من ستة آلاف مادة بين مثل قديم ومولد ويوم من أيام العرب . وقد رتب الميدانى كتابه على حروف المعجم فيما يتعلق بالحرف الأول من المثل وأفرد فى نهاية كل باب الحديث عما جاء على وزن أفعل ثم يعقب ذلك بذكر أمثال المولدين فهو من هذه الناحية أشمل وأجمع ما وصلنا من كتب الأمثال ويذكر الميدانى أنه استقى مادة كتابه من نحو خمسين كتابا من كتب الأمثال يقول :

---

(١) مقدمة جمهرة الأمثال تحقيق محمد أبو الفضل وعبد المجيد قطامش

(٢) الأمثال العربية القديمة ص ٢٠٣

« فطالعت من كتب الأعلام ما امتد فى تقصيه نفس الأيام مثل كتاب أبى عبيدة وأبى عبيد ، والأصمعى وأبى زيد ، وأبى عمرو وأبى فيد ، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمة حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتاباً ، ونخلت مافيها فصلا فصلا وباباً باباً ... ونقلت مافى كتاب حمزة بن الحسين إلى هذا الكتاب إلا ماذكره من خرزات الرقى وخرا فات الأعراب والأمثال المزدوجة لأندماجها فى تضاعيف الأبواب .. وذكرت فى كل مثل من اللغة والاعراب مايفتح الغلق ومن القصص والأسباب ما يوضح الغرض .. »[1] .

ولايقل كتاب « **المستقصى فى أمثال العرب** » لجار الله الزمخشرى أهمية عن كتاب مجمع الأمثال .. وإن كان أقل منه حجما . إذ لاتبلغ الأمثال الوراد فيه ماجاء فى كتاب الميدانى .

بيد أن كتاب المستقصى يتميز بالدقة ، وتمحيص الرواية ، وسداد الفهم فى شروحه وتفسيراته . كما يعنى بإيراد الشواهد الشعرية ، كما كان الزمخشرى أكثر دقة فى ترتيب الأمثال التى أوردها من حيث مراعاة الحرف الأول فالذى يليه ، ومن ثم يكون الوصول الى المثل المراد مراجعته أيسر كثيرا من كتاب الميدانى الذى لم يعن إلا بمراعاة الحرف الأول فقط .

خامسا : وعلى الرغم من ذيوع كتابى الميدانى والزمخشرى واستيعابهما معظم الأمثال المنثورة فى الكتب التى سبقتهما .. فإن جهود العلماء العرب لم تتوقف عن بحث الأمثال وشرحها وتناولها بالنظر على أساس أنها مادة أدبية مهمة تستلفت النظر وتسترعى الاهتمام ويحتاجها العاقل الأريب وينثرها الخطيب والأديب ويرددها الحكيم والناصح ويستأنس بها المشير والمعتبر .

ومن أبرز المجهودات التى بذلها العلماء المتأخرون نوعاً ما ، محاولتان : إحداهما فى القرن التاسع عشر ، والأخرى فى أواخر القرن الحادى عشر للهجرة . أما الكتاب الأول فهو :

« تمثال الأمثال »

ومؤلفه أبو المحاسن محمد بن على العبدرى الشيبى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ وهو من أشراف قريش ، ولى قضاء مكة المكرمة وسدانة الكعبة ، وقد ألف هذا الكتاب في اليمن عندما قام

---

(١) مقدمة مجمع الأمثال ص٤ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

برحلة اليها واتصل بسلطانها الناصر أحمد بن اسماعيل الرسولى وكان مشجعا للعلوم مما رغب العبدرى فى الرحلة إليه والاتصال به . وله ألف كتاب « تمثال الأمثال » حين طلب إليه لملك الناصر ذلك

وطريقة العبدرى تتلخص فى اختيار المثل ، واستعراض ما قاله كل من الزمخشرى والميدانى عنه والموازنة بينهما والتعقيب بآراء غيرهما أو رأيه هو ، وقد أتاحت هذه الطريقة للعبدرى أن يطلع على أمثال كثيرة غير موجودة فى المجموعتين الكبيرتين فأضافها وشرحها ، وقد أحصى له محقق تمثال الأمثال نحو مائة مثل[1] لم ترد فى مجمع الامثال ولا فى المستقصى وقد نقل أكثرها عن كتاب الأغانى لابى الفرج الأصفهانى ، وبعضها من شرح الأمالى للبكرى ، والكامل للمبرد ، ووفيات الأعيان لابن خلكان والصحاح للجوهرى وغيرها

أما الكتاب الاخر فهو

زهر الأكم فى الأمثال والحكم :

ومؤلفه الحسن اليوسى من علماء المغرب فى القرن الحادى عشر الهجرى ، وهو كتاب جم الفوائد عظيم الأهمية ، ولو قُدّر لمؤلفه أن يتمه على المنهج الذى ابتدأ به لكان من أنفس ما ألف فى موضوعه ، وقد ذكر اليوسى فى تقديمه للكتاب أنه سيقسمه إلى قسمين : « يشتملان على ستة وستين بابا ، القسم الأول فى الأمثال ويشتمل على أربعة وثلاثين بابا : تسعة وعشرون بابا فى الأمثال مرتبة على حروف المعجم والأبواب الخمسة الأخرى فى الأمثال التركيبية ، والأعيان ، والأمثال القرآنية والحديثية ، والتشبيهات الشعرية .

أما القسم الثانى فيختص بالحكم وما يلحق بها فى اثنين وثلاثين بابا ، تسعة وعشرون فى الحكم مرتبة على حروف المعجم وفى الأبواب الثلاثة الأخيرة ، طائفة من الحكم المجموعة ، والنوادر والأوليات .

ويشاء القدر ألا يمهل اليوسى ليحقق غرضه كاملا من الكتاب فيموت وهو لم يكتب منه غير المقدمة والخاتمة وأربعة عشر بابا من القسم الأول ، غير أن المقدمة وحدها تدل دلالة قاطعة على ضلاعة اليوسى اللغوية وقوة عارضته وسعة تفكيره[1] .

---

(١) تمثال الأمثال بتحقيق د . أسعد ذبيان ١ / ٦٥ وما بعدها .

(١) زهر الأكم ١ / ٦ .

ويفيض صاحب زهر الأكم في الشرح اللغوى ويكثر من إيراد الشواهد الشعرية ، ويورد شعراً كثيرا لشعراء من المغرب والأندلس ، ويعقب ويصحح ، ومن ثم فهو من خيرة البحوث التي وضعت فى الأمثال لدى المتأخرين إلا أنه لم يكتمل على النحو الذى أراده مؤلفه

سادساً : نالت الأمثال عناية واهتماما من العلماء والباحثين فى العصر الحديث فعنوا بتحقيق مجاميع الأمثال الذائعة ونشرها ووضعوا لها الفهارس الدقيقة وأخرجوها إخراجاً متقناً ومن أهم الكتب التى نالت عنايتهم : «**مجمع الأمثال**» للميدانى ، «**والمستقصى فى أمثال العرب**» للزمخشرى ، «**وجمهرة أمثال العرب**» لأبى هلال العسكري إضافة إلى «**أمثال العرب**» للضبى ، «**والدرة الفاخرة**» لحمزة الأصبهانى .

ويأتى بعد ذلك عدد قليل من الكتب التى تناولت مصادر الأمثال القديمة بالدراسة والتحليل الوصفى من أشهرها كتاب « الأمثال العربية القديمة » لرودلف زلهايم . وهو دراسة للمؤلفات العربية حول الأمثال مع عناية خاصة بكتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام وشروحه . وقد ترجمه إلى العربية الدكتور رمضان عبد التواب .

كما كان للدكتور / عبد المجيد عابدين اهتمام بدراسة الأمثال القديمة فبالإضافة إلى اشتراكه فى تحقيق كتاب « **فصل المقال** » للبكرى له دراسة مستقلة عن الأمثال العربية القديمة مع مقارنتها بنظائرها فى اللغات السامية الأخرى .

ولعلنا نلحظ من خلال هذا الاستعراض الموجز أن المؤلفات التى تقدمت الاشارة إليها سواء للقدماء أو المحدثين لم يعن مؤلفوها باستخلاص دلالات الأمثال عامة وعطاءاتها الفكرية وقيمتها الأدبية ، وتعبيرها عن الشخصية العربية ، وهو ماجعلته محوراً أساسيا لهذا البحث الذى أرجو أن يكون جديداً فى بابه وأن يكون بداية لبحوث خصبة حول الأمثال التراثية بحسبانها درة من كنوز أدبنا العربى القديم ذى العطاء الثّر والمغزى البعيد الغور

الفصل الأول

الدلالة التاريخية للأمثال

من أهم مايتميز به تراث العرب الأقدمين أنه نتاج إنسانى خصب، قوامه الفكر الثاقب، والنظرة المتأملة، ومادته « الكلمة الدالة »، و « العبارة الصائبة »، ولقد بقى هذا التراث أحقابا طوالا راسخا فى أعماق الذاكرة العربية يشحذ قريحتها، ويضىء دربها، ومن ثم حرصت الأجيال العربية على حفظ ذلك التراث وتقييده كحرصها على تقييد أنسابها ومناقبها.

وبُعَيْدَ أن تنزلت هداية السماء ممثلة فى الرسالة الخاتمة التى ابتعث بها المولى - عز وجل - « فى الأميين رسولا منهم » انتقت الكلمة من حيز الضمائر والقرائح، إلى سطور الكتب وحنايا الأسفار، ولقيت من اهتمام الأجيال الخالفة مثلما لقيته من الأجيال السالفة، وبذلك غدت الكلمة « الأثر » تراثا ناطقا على مر العصور.

ولاريب أن هذا التراث العربى بطبيعته التى ألمحنا إليها يتسامى بأصالته وبعد دلالته عن غيره من تراث الأمم الأخرى التى خلدت مآثرها فى صروح مشيدة أو نقوش محفورة، تتحيفها عوامل البلى، وتتخطفها أسباب الفناء.

وهذه السمة التى يتميز بها تراث العرب الأقدمين توجب علينا أن نهتم - باحثين وهيئات علمية - بهذه الآثار القولية بحسبانها « المادة » التاريخية المهمة التى لامحيد للباحث عن فكر هذه الأمة، وعناصر شخصيتها من الوقوف على معطياتها ودلالاتها.

والأمثال القديمة من أهم الآثار الباقية التى يستوحى منها الباحث ملامح الحياة العربية فى العصور القديمة، وقلما تتيح لنا الآثار القولية الأخرى ما تتيحه لنا الأمثال من تحديد واضح لطبيعة التفكير عند العرب، والمنابع التى ترفد هذا الفكر، والأطر التى يتحرك فى نطاقها، وسمات الطبيعة الاجتماعية، وما تحفل به علاقات الناس من صراع، وما يحكم حركة تفاعل هذا المجتمع فى سلمه أو حربه، وفى سرائه أو ضرائه، وفى تلاقى عشائره أو

تفرقهم .. الخ كل أولئك ترسمه الأمثال فى خطوط واضحة ربما تبدو متصادمة فى بعض النقاط ، ولكنها عند إنعام النظر تكون بناء فكريا متناسقا نابعا من البيئة . ومتلائما مع أجوائها .

والدلالة التاريخية التى أعنيها فى هذا الفصل لاتنحصر فى القيمة التاريخية المباشرة للأمثال كأن يعتمد عليها فى التثبت من واقعة ، أو يستأنس بها فى تأكيد حادثة بل تتعدى ذلك لتشمل معطيات تاريخية كثيرة من أهمها : التعرف على طبيعة التفكير عند العربى ، ومعالم سلوكه الاجتماعى ، ومرتكزات مثله المرعية وعاداته وتقاليده وهذه المعطيات غير المباشرة تفوق فى قيمتها ومغزاها المعطيات المباشرة ، لأن الدلالات التى أقصدها يستطيع الباحثون على ضوئها أن يحددوا بصورة مقاربة خصائص الحياة وملامحها فى مجتمع العرب الأولين ، ويستطيعون استنادا الى تلك الدلائل أن تأتى تقريراتهم وأحكامهم متصفة بالدقة ، بعيدة عن التعميمات الخاطئة ، أو الدعاوى الباطلة التى لاأساس لها ، ولا دليل عليها .

واقعية الأمثال فى تصوير الحياة :

والأمثال - فى تقديرى - من أكثرلا أجناس التراث القديم صدقا وأقربها تعبيرا عن الواقع فهى تصدر تعليقا على حدث وقع ، أو تصور ظاهرة قائمة فى حياة الناس ، وربما عبر المثل عن معاناة انسانية أو خلجة من خلجات النفس فى أحوالها المتعددة .

فإذا وضعنا المثل بازاء الشعر الذى هو أبرز آثار العرب القولية - استطعنا أن نلمس الفارق بينهما فى واقعية التعبير عن الحياة ، فالشاعر قد يتزيد أو يبالغ ، أما المثل فانه يصور الواقع دونما تحسين أو تزيين ، والفارق كبير بينهما فى ميدان التثبت والتحقيق ومن ثم تتكشف أهمية الأمثال وقيمتها التاريخية ، فهى إذا قيمنه بأن يعيد الباحثون النظر فيها وأن يضعوها فى ذروة المصادر التاريخية المهمة التى يعتمدونها فى دراساتهم حول الحياة العقلية والاجتماعية عند العرب الأقدمين .

وحتى تكتمل فائدة الأمثال من هذه الجهة يلزم أن يتأكد الدارس من العصر الذى ينتمى إليه المثل حتى يأتى استنتاجه صائبا ، وتقريره دقيقاً ، وتلك كما اشرت فى المقدمة من ألزم الأمور التى تتطلبها الإفادة المثلى من درس أمثالنا القديمة .

الأمثال وتعميمات الباحثين :

فى كثير من التقريرات التى غدت فى أذهان الناس أشبه بالحقائق المسلمة عن حياة العرب الأقدمين - ما يبدو لى أنه من قبيل التعميمات المتسرعة ، ولو أنعم أولئك المؤرخون النظر فى أمثال العرب لراجعوا أنفسهم قبل إرسال هذه الآراء الفجة ، والمزاعم الخاطئة .

وأعرض على القارىء هنا طائفة من تلك المزاعم ، ليلمس ما فيها من بعد عن الواقع وتجاوز للانصاف .

- ١ -

درج كثير من المؤرخين على وصم عرب الجاهلية بأن حياتهم اعتمدت على الغارة والسلب والنهب ، وأن الحروب اتصلت بين أحيائهم ، وأن المنازلات والمنازعات كانت تنشب بينهم لأتفه الأسباب ، وأحيانا بلا أسباب ، كما عبر شاعرهم بقوله :[١] .

فمن تكن الحضارة أعجبته ... فأىّ رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فإن فينا ... قناً سلبا وأفراسا حسانا
وكنّ إذا أغرن على قبيل ... فأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلال ... وضبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا[٢]

وقد ساق الأستاذ أحمد أمين رحمه الله - فى فجر الاسلام هذه الأبيات واعتد ما ورد على لسان الشاعر فيها يمثل ظاهرة عامة فى حياتهم يقول : بعد أن ذكر أن حياة أهل

---

(١) الأبيات للقطامى عمير بن شييم ، شاعر إسلامى مقل ، وضعه ابن سلام فى الطبقة الثانية من شعراء الاسلام ، كان نصرانيا فأسلم وهو ابن أخت الأخطل الشاعر المشهور . والقطامى (بضم القاف وفتحها) لقب غلب عليه وأصله وصف للصقر . وترجمته فى الأغانى ٢٠ / ١١٨ ، وخزانة الأدب ٢ / ٣٧٠ ، وغيرها . والأبيات فى شرح حماسة أبى تمام للمرزوقى ١ / ٣٤٧ .

(٢) يقول الشاعر : إذا كانت الحضارة قد أعجبت أناسا فإنها لم تنسنا حياة البادية ، واذا كان أقوام من الحضريين يقتنون الحمير فقد كنا نعتز فى باديتنا باقتناء الرماح والخيول وكنا عندما نغير على قوم فيعوزنا السلب نميل على آخرين ممن يجاورونهم فإذا لم نجد من الأعداء من نغير عليه أغرنا على بنى عمومتنا من قبيلة بكر .

البادية كانت تعتمد على الرعى وتتبع منابت الكلأ : ونوع آخر اتخذوه أيضا وسيلة من وسائل العيش : وهو الغارة والسلب ، يغيرون على قبيلة معادية - وكثيرا ما تكون المعاداة - فيأخذون جمالهم ويسبون نساءهم وأولادهم ، وتتربص بهم القبيلة الأخرى فتفعل ما فعلوا ، بل هم إذا لم يجدوا عدوا من غيرهم قاتلوا أنفسهم[1] .. ثم أورد الأبيات المتقدمة ووضع خطا تحت البيت الأخير منها ، فهو قد اعتمده سندا تارخيا موثوقا وقرر تأسيسا عليه ما قرر . مع أن الدقة فى البحث تقتضينا أن نراعى السياق الذى وردت فيه الأبيات والدافع الذى حدا بالشاعر لقولها ، وواضح أنه يفخر بحياته وحياة قومه قبل أن يتحضّروا ويعيشوا حياة الاستقرار والتمدن فى العصر الاسلامى ، والأبيات فى تصورى أقرب إلى الادعاء والنفج منها إلى تصوير الواقع ، وشعر الفخر والحماسة بخاصة ينبغى أن يكون الباحثون على حذر فى درس مضامينه ، لأنه فى أغلب أحواله يشيع فيه مانقول عنه فى عصرنا أنه « حرب نفسية » تشنها قوة ما ضد خصومها ، ومن أجل ذلك كانت القبيلة تغتبط إذا نبغ فيها شاعر وتحتفل بذلك وتهنئها القبائل الأخرى ، لأن الشاعر المفلق يستطيع أن يخدمها بلسانه المعبر فى بعض الأحيان خدمات تعدل قوة العديد من الفرسان .

وأبيات القطامى التى أستأنس بها أحمد أمين قصارى ماتدل عليه نوع من عبث الشباب ولهو رفاق الصبا عندما يفتعلون المغامرات ويجربون قدراتهم على الكر والفر فيختلسون من جيرانهم شيئا تافها على حين غفلة ثم يعتدونه بعد ذلك من ذكريات البطولة والفروسية .

وأنا لا أقول هذا الكلام أتكلف به الدفاع عن العرب أو أنفى عنهم كثرة الحروب والصراعات وخصوصا قبل الأسلام وإنما أقوله لأن تعميم الحكم على أهل البادية - على الاطلاق - بأن حياتهم اعتمدت على الإغارات وأنها كانت من وسائل كسب الرزق - فيه كثير من المغالطة والبعد عن الصواب ، لأن معنى ذلك وصم أكثر العرب بهذه النقيصة وقد كان منهم من بلغ الغاية فى الحكمة وقد وردت عنهم الأقوال التى تحبب فى العدل وترك الظلم والتى تدعو إلى الحلم والاغضاء ، وكان منهم الحلماء الذين استفاضت أخبار حلمهم وكان منهم الأوفياء الذين غدا تمسكهم بعهودهم مضرب الأمثال . فكيف يسوغ أن نرسل القول هكذا جزافا ليكون سمة عامة لحياة العرب أجمعين ؟!

---

(١) فجر الاسلام ص ٩ .

وأستطيع أن أوضح للقارىء هنا جملة من الحقائق تنقض تلك الدعوى الباطلة وتلقى بعض الضوء على دوافع غارات العرب الأقدمين :

أولا : كان هناك فئة من العرب تعتمد في حياتها على السلب والنهب وهم جماعة الصعاليك غير أن هؤلاء لهم وجهتهم فى مسلكهم هذا ، وقد شرح شعراؤهم هذه الوجهة واحتجوا لما يصنعونه بما يجعلهم بعيدين عن السفه والضلال ، لأنهم صدروا فى ذلك عن مذهب اقتنعوا به وأيقنوا أنهم فيه مصيبون ، فهم يخاطرون بأنفسهم ليضمنوا مستوى ما من الحياة الإنسانية المقبولة لعشائرهم التى يفتك بها الفقر ويوشك أن يقتلها الجوع .

يقول عروة بن الورد من قصيدته الذائعة فى الاحتجاج لمذهب الصعاليك ممن هم على شاكلته :

ذرينى أطـوّف فى البـلاد لعلّنى ... أخلّيك أو أغنيك عن سوء محضر
فإن فاز سهم للمنيـة لم أكن ... جزوعا وهل عن ذلك من متأخر
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد ... لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

وفيها يقول :

أيهلك معتمّ وزيد ولم أقم ... علمى ندب يوما ولى نفس مخطر
سيفزع بعد اليأس من لايخافنا ... كواسع فى أخرى السوام المنفّر(١)
نطاعن عنها أول القوم بالقنا ... وبيض خفاف وقعهن مشهّر

ويختمها بقوله :

يريح علىّ الليل أضياف ماجد ... كريم ومالى سارحا مال مقتر

فهو يخاطب أمرأته التى أكثرت من لومه مبينا لها أن تطوافه فى البلاد ليضمن مستوى كريما من العيش لأهله ولقصاده من المعوزين ، وأنه يهبط هو ومسعره فيطردون جانبا من مؤخرة الإبل السائمة ويواجهون من يتصدى لهم من الرعاة والحراس برماح وسيوف تلقى الروع فى نفوسهم بما شاع بين شتى القبائل من بطولة أصحابها وفتكهم العنيف المروع . ومع ذلك كله فعروة ورفاقه كرماء مقصودون لايستأثرون بما ينالونه عن طريق السلب والنهب وإنما يوزعونه على الفقراء ممن يقصدونهم ، فمالهم الذى يبقى لهم ويسرحونه مال المقترين .

---

(١) معتم وزيد : بطنان من عبس وهما من حداد الشاء

فهؤلاء الصعاليك فريق من العرب لهم أسلوب حياتهم . الذى يشبه أن يكون عقابا لمجتمعهم الذى كانت تقسو فيه قلوب الأغنياء على الضعفاء فى بعض الأحيان فكان هؤلاء يرون أن من حقهم أن ينالوا ما يريدون بأسلوب الغارة والانتهاب ، ومن الخطأ أن يعمم هذا المسلك على العرب جميعا .

ثانيا : تمدح العرب بالحلم واعتدوه فضيلة من فضائلهم وأثنوا على الحلماء وأخبار ذلك مستفيضة فى تراثهم . ومن أشهر من اتصف بالحلم من العرب فى الجاهلية قيس بن عاصم المنقرى الذى أدرك الإسلام ووفد على رسول الله ﷺ فبسط الرسول له رداءه وأدنى مجلسه وقال فيه : « هذا سيد أهل الوبر »[1].

وذكر الأحنف بن قيس وهو من حلماء العرب المعدودين لما سئل هل رأيت أحلم منك ؟ قال : نعم . وتعلمت منه الحلم . قيل ومن هو ؟ قال : قيس بن عاصم المنقرى ، حضرته يوما وهو محتب يحدثنا ، إذا جاءوا بابن له قتيل . وابن عم له كتيف . فقالوا : إن هذا قتل ابنك هذا ، فلم يقطع حديثه ولانقض حبوته ، حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم فقال : أين ابنى فلان فجاءه ، فقال يابنى قم إلى ابن عمك فأطلقه وإلى أخيك فادفنه وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة فإنها غريبة لعلّها تسلو عنه ، ثم أقبل على القاتل فقال : قتلت قرابتك وقطعت رحمك ، وأقللت عددك ، لايبعد الله غيرك[2] ، وقيس هذا هو الذى قال عبدة بن الطبيب فى رثائه :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

وأخبار الأحنف فى الحلم كثيرة ومبثوثة فى كثير من المصادر منها . أن رجلا شتم الأحنف وجعل يتبعه حتى بلغ حيّه ، فقال الأحنف : ياهذا : إن كان بقى فى نفسك شيء فهاته وانصرف لايسمعك بعض سفهائنا فتلقى ماتكره[3]

وقيل للأحنف بم بلغت ما بلغت قال : لو عاب الناس الماء ما شربته[4] وبلغ من مكانة الأحنف أنه لما مات بالكوفة ، مضى مصعب بن الزبير فى جنازته بغير رداء وقال اليوم مات سرّ العرب[5] .

---

(١) العقد الفريد ٣/٢ .

(٢) عيون الأخبار ٢٨٧/٢ .

(٣) وفيات الأعيان ١٨٢/١ .

(٤) أمالى القالى ٢٣٢/٢

(٥) زهر الآداب ٦٤٧/٢

وقد ضرب العرب المثل بالأحنف فى الحلم فقالوا

« أحلم من الأحنف » (الدرة الفاخرة ١٩٤/١)

فلم يكن العرب إذا مساعير حرب أو مولعين بسفك الدماء كما يصورهم لنا المؤرخون بل كان منهم الحكماء العقلاء الديمن يصبطون أنفسهم . ويكظمون الغيظ . ويعتدون ذلك من مناقبهم ودلائل سؤدهم . وقد عبر الشاعر النابغة الجعدى عن تلك الرؤية المثلى للاعتدال بين الحلم والجهل إذ يقول

ولاخير فى حلم إذا لم تكن لـــه بوادر تحمى صفوه أن يكدّرا
ولاخير فى جهل إذا لم يكن لـــه حليم إذا مـا أورد الأمر أصدرا

ولقد سمع الرسول ﷺ هذا الشعر وأعجب به وقال للشاعر « لايفضض الله فاك »[1] وقديما تمدح العرب بالحلم وذموا البغى والظلم ، ولهم فى ذلك أحاديث وأشعار أكثر من أن تحصى ، وانظر الى قول قيس بن زهير يذكرّ مقتل « حمل بن بدر » فى يوم الهباءة من حروب عبس وذبيان :[2] .

تعلّم أن خير النـــاس ميت على جعفر الهبـــاءة لايريم
ولـولا ظلمـه مـا زلت أبكى عليـه اليوم مـا طلع النجوم
ولكن الفتى حمـل بن بـدر بغى والبغى مرتعـه وخيم
أظنّ الحلم دل علىّ قـومى وقـد يستجهـل الرجـل الحليم
ومـا رست الرجـال ومـا رسونى فمعـوجّ علىّ ومستقيم

وكثيرا مانقع فى الشعر القديم على أمثال تلك الأقوال التى تحمد الحلم وتذم البغى والعدوان

ثالثا : إن مدخل الخلط فى تعميمات المؤرخين حول حروب العرب فى الجاهلية يعود الى قلة الأخبار التى يعرف منها المؤرخ دوافع الحروب وأسبابها البعيدة ، وبالتالي يحكم عليها بالتفاهة استنادا إلى الأسباب المباشرة التى يتناقلها الرواة ، فى حين أن تلك الأسباب المباشرة تكون بمثابة اللهب أو الزناد الذى يشعل الخصومة ويتسبّب فى امتشاق السيوف

---

(١) مجالس ثعلب ٥٩٥/٢

(٢) أمثال العرب للضبى ٩٧

وراءها - بلاريب أسباب أخرى أهم من تلك التى يذكرها الناس سببا لهذه الواقعة أو تلك من وقائع العرب وأيامهم الكثيرة .

وفى تاريخنا الحديث مثال لذلك أعتقد أننا لو وضعناه بإزاء أيام العرب وحروبهم القديمة لتكشفت القضية ، واستبان لنا زيف تلك التعميمات الخاطئة ، فقصة المروحة التى كانت سببا فى احتلال الفرنسيين للجزائر عام ١٨٢٧- هذه القصة - لو ذكرها مؤرخ من المؤرخين المحدثين على أنها السبب فى احتلال الجزائر وأغفل ذكر ماعدا ذلك من وقائع وأطماع لكانت أتفه من الأسباب التى يحكيها الرواة حول حروب العرب فى الجاهلية ولكن قصة المروحة ماهى إلا ذريعة تذرعت بها فرنسا لاحتلال الجزائر طمعا فى خيراته ، وتخلصا من الديون التى كانت ترزح تحت أثقالها ، وكانت الجزائر من بين الدول الدائنة لفرنسا(٣) .

فعلى المؤرخين الذين يذكرون أن العرب كانت تثور بينهم الحروب لأتفه الأسباب أن يراجعوا أنفسهم ويبحثوا عن الأسباب الحقيقية والدوافع البعيدة لها ، وبعض هذه الأسباب وتلك الدوافع مبثوث فى كتب الأدب والتاريخ وغيرها ، وليرجع من يريد إلى قصة داحس والغبراء فى كتاب « أمثال العرب » للمفضل بن محمد الضبى فسيجد جذورا بعيدة لتلك الخصومة ، غير أنها لم يلجأ فيها إلى السيوف إلا بعد حادثة السباق .

رابعـا : وما لنا نذهب بعيدا فى البحث عن دوافع الخصومات بين العرب الأقدمين ونحن نرى العالم المتحضر من حولنا الآن يعج بالحروب التى لاتعرف للمروءة معنى ولاترعى للجوانب الانسانية حرمة . وان استقراء دقيقا لطبيعة الحروب والصراعات الدائرة فى مختلف بقاع العالم فى العصور المتأخرة لكفيل بأن يعلى من شأن الأمم البائدة - عرب وغير عرب - فقد كانوا بلاشك أكثر إنسانية ، وأرحم بعضهم ببعضٍ من الأمم التى تزعم لنفسها الرقى وتتشدق بالتحضر فى العصر الحديث ، وهى تنتهك حقوق الضعفاء وتسلك أبشع ألوان الهمجية وشريعة الغاب ، وتتفنَّنُ فى إنتاج وسائل الدمار والخراب التى لاتفرق بين صغير وكبير ، ولابين جان وبرىء ، وبعد ذلك كله تعلن أبواقها الدفاع عن الحريات ، والتمسك بحقوق الإنسان وتسمى الأشياء بغير أسمائها ، فتلبس الباطل ثوب الحق ، وتحيل الرذائل البشعة إلى فضائل عليا ، دون أدنى قدر من إنصاف الحقيقة .

(٣) تاريخ العرب الحديث د - زاهية قدورة ٤٩٣ .

وإن مما يؤسف له حقا أن من يشعلون الحروب في عصرنا المتحضر يبقون - في الغالب بمنأى عن أذاها ، حتى في حال تعرض جيوشهم للهزيمة ودولهم للخراب ، وهم أحق من يجب أن يصطلى بنارها . فأين ذلك كله من حروب العرب الأقدمين التي كان جلها يعتمد على الشجاعة والفروسية ومصارعة الخصم خصمه جهارا نهارا ؟ وما كان أبعد تلك الحروب عن الوحشية فلها بينهم من التقاليد والأعراف ما يجعل للمروءة موضعا مرعيا ، وللانسانية جانباً غير مضيّع .

خامسا : عندما نتفرس أمثال العرب وأقوالهم الذائعة لابد أن يداخلنا الشك في أقوال المؤرخين وتعميماتهم ، فهؤلاء الذين يعدد لنا المؤرخون سفاهتم وطيشهم هم أنفسهم الذين وردت عنهم الأمثال التي تحض على الإغضاء وتدعو إلى نبذ التصلب في المواقف التي تتطلب الملاينة والإغضاء فقد جاء في أمثالهم :

« تطأطأ لها تخطئك » (فصل المقال ١٩١)

وفيها أيضا :

« إذا نزا بك الشر فاقعد » (المستقصى ١ / ٢٢٩)

أى إذا حملك الغضب على الثورة والانتقام فاحلم ولاتطاوع نزوة الغضب .

وقالوا :

« الحــرب غشــوم » (المستقصى ١ / ٣١١)

وقالوا :

« الحرب عشوة » (المستقصى ١ / ٣١١)

والعشوة : الأمر غير الواضح . وذلك لأن الداخل في الحرب لايدرى ما تتمخض عنه .

وقالوا :

« الحــرب مأيمــة » (الميدانى ١ / ٣٨١)

ومعناه أنها تتسبب في قتل الرجال فتبقى النساء أيامى لا أزواج لهن فهذه الأمثال تحذر من مخاطر الحرب وويلاتها وتوضح أن الداخل فيها لايدرى ما تكون نهايتها ، وأن أضرارها لاتقتصر على مثيريها بل تتعداهم إلى غيرهم ممن لادخل لهم فيها وأنها سبب في قتل الرجال وتأييم النساء وإخراب الديار .

فكيف بمن يفهم كل هذه المخاطر والعواقب أن يشعل الحروب بلا روية ولا تفكير ؟؟

ولست بذلك أنفى كثرة الإحن والثارات بين العرب وعلى الأخص فى عصر ما قبل الإسلام – وإنما قصارى ما أود التنبيه إليه أن الصورة التى ترسمها لنا كتابات المؤرخين بعيدة إلى حد كبير عن وصف الواقع ، فهم يصورون العرب فى تلك الحقبة على أنهم همج رعاع تعتمد حياهم على الغارة والسلب والنهب ، وكأنهم خصوا بذلك دون من عداهم من الأمم .

وجملة القول أن اتهام العرب بالميل إلى سفك الدماء وإطلاق الحكم عليهم بأن حياتهم اعتمدت على السلب والنهب فيه كثير من الظلم ومجانبة الصواب ، وإن الدقة العلمية لتقتضينا أن نكون منصفين فى الحكم ، وألا نأخذ بظاهر الأشعار أو الأخبار التى تشوه تاريخ العرب وتصورهم بصورة بشعة ، وكأنهم وحوش متعطشة للدماء ، بل علينا أن نحكم عليهم فى إطار تراثهم كله دون الاقتصار على جزئية منه مبتورة عن غيرها .

إننا لو نظرنا فى تراث العرب الأقدمين على هذا الأساس لاستبان لنا أنه كانت هناك كثير من الفضائل الإنسانية حتى لدى القبائل التى فشت بينها الحروب واتصلت المنازلات بيد أن أخبار الحروب والصراعات كادت تطمس ما عداها لأنها بطبيعتها .. مما يطيب للناس سماعه ، ومن ثم استحوذت على اهتمام الرواة والأخباريين ، فكثر كلامهم عنها ، واستفاض وصفهم لها ، ولايستبعد أن يكون خيالهم قد لعب دورا فى تضخيمها ، وبقيت الجوانب الأخرى الأكثر وضاءة وسموا تشكو الإهمال وتغالب الطمس والضياع ، وان كانت ماتزال هناك آثار باقية تدل عليها وتشير إليها ، وما أحرانا أن نسلط عليها الأضواء فى عصرنا الحاضر ، لامن قبيل تضخيم المآثر والنفخ فيها ، ولكن على سبيل إنصاف الحقيقة ، وإعادة النظر فى تاريخنا القديم على أسس علمية صحيحة ، لأن كثيرا من الأحكام المتعلقة بتاريخ العرب التى دأب المؤرخون على ترديدها دخلها غير قليل من التحامل وربما سوء القصد قديما وحديثا ، وهذا ما نشير إليه فى الفقرة التالية .

– ٢ –

درج كثير من المؤرخين على الزراية بالعرب فى عصر ما قبل الإسلام وأساءوا فهم مصطلح « الجاهلية » الذى غلب إطلاقه على ذلك العصر . فأسرف المؤرخون المسلمون فى الحط من شأن عرب الجاهلية وتجريدهم من الأخلاق والمكرمات . وظن فريق من أولئك

المؤرخين أن في الحط من شأن أهل الجاهلية إعلاء لأمر الاسلام وإشادة بعظمته فأخذت المسألة طابعا تعبديًا . ولقد غفل أولئك المؤرخون عن حقيقة مهمة وهى أن هؤلاء الجاهلين الذى يحقّرون ويجهّلون ، هم أنفسهم الذين حملوا لواء الإسلام وساروا ينشرون ضياءه في آفاق الأرض . ولولا بقية من عقل وفهم وحكمة وسداد رأى ما ميَّز كبار الصحابة والسابقون الألون إلى الإسلام بين الحق الذى جاءهم به محمد عليه الصلاة والسلام والباطل الذى كانوا عليه . ولمّا ضحوا فى سبيل الدين الجديد بأنفس ما يملكون ، ولما بذلوا دونه المهج والأرواح وباعوا متاع الدنيا ابتغاء مرضاة الله وتأييدا لرسوله .

ألا ما أحوج باحثينا وكتابنا الى أن يعيدوا كتابة تاريخ عرب الجاهلية على أساس من الإنصاف ودون تعصب أو اسراف .

إن ما أثر من أمثال العرب وحكمهم وأشعارهم فى العصر الجاهلى كفيل بأن يرتقى بهذه الأمة إلى مكانة رفيعة ، بما أسهمت من جهد إنسانى مثمر فى مجال تأمل ظواهر الحياة وصروفها ، وطبائع الإنسان فى ذاته وفى إطار البيئة التى يتعامل معها .. إلى غير ذلك من التأملات الفكرية السديدة ، والأقوال الصائبة ، والمثل القويمة التى أخذوا أنفسهم بها وجعلوها دستور حياتهم . وسيتضح لنا مما نعرضه من أمثال كثير من تلك الأخلاق والمثل التى احترمها العرب وألزموا أنفسهم بها

وتأسيسا على ذلك فليس العرب بأقل من الاغريق أو الرومان أو الهنود أو غيرهم من الأمم العريقة . لكن وجد أولئك من يشيد بمآثرهم وحضاراتهم . وابتلى العرب بمن جحد مآثرهم وطمس أمجادهم ولم يكن لهم من خلفهم العربى من يهب للدفاع عنهم أو إنصافهم وذلك لظروف وأسباب كثيرة من أهمها كما أشرت إساءة المؤرخين فهم مصطلح « الجاهلية » الذى هو فى حقيقة مفهومه لايعنى الجهل والضلال على الإطلاق وإنما يعنى الضلال فى مجال العقيدة . والشواهد على ذلك كثيرة ، فهناك من عادات العرب وأعرافهم فى الجاهلية ما أقرهم الاسلام عليها كنصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وإكرام الضيف بل فيها ما أقره الإسلام فى تشريعاته كتوريث التعصيب ، وجعل الدية على العاقلة ، وشرط الكفاءة فى الزواج وغيرها . ومنها ما نبذه الإسلام وحرمه ، كالتفاخر بالأنساب والأحساب ، ووأد البنات . وعلى ذلك ينبغى أن يكون واضحا فى أذهاننا أن الجاهلية « لاتقابل الاسلام كما يقابلة الكفر .. وقد استعمل القرآن الكريم هذا الاصطلاح « الجاهلية » فى وصف الضعف الإنسانى والقصور البشرى الذى يشترك فيه العرب مع جميع الناس ، كما استعملها بمعنى

القصور الذى ينتج عن نقص العلم وهو عام فى البشر جميعا .. ، والجاهلية بمعنى الضعف البشرى ونقص العلم وغلبة الأهواء – أمراض من أمراض النفس الإنسانية التى لايخلو منها مجتمع ما مسلما كان أو كافرا .. وكذلك فليست الجاهلية نبذا يدل على الانحطاط والتخلف وعدم الرقى والعجز عن بناء الحضارة ، لأن الجاهلية بجميع أشكالها عرفتها المجتمعات ذات الحضارة فى كل أمة وفى كل عصر »[1] .

وهذا واحد من كبار أساتذة التاريخ الاسلامى[2] يشكو من تلك المفاهيم الخاطئة التى امتلأ بها تاريخ العرب فى الجاهلية يقول : « على عادة المؤرخين يجد الإنسان نفسه وهو يقرأ تاريخ العرب فى الجاهلية مشدودا بأفكار الذين دوّنوه ، فيقول كما يقولون ويصدر أحكامه على أساس المقدمات التى وضعوها . وكلما مر الزمن شلمت الظلمات تاريخ الجاهلية واشتدت قسوة الأحكام على أمة العرب حتى ليكاد الرواة يخرجون بالعرب فى جاهليتهم – عن الآدمية ، ولايعدونهم من بنى الانسان »[3] . ثم يمضى فى بحثه معللا لذلك بأن المؤرخين الذى شوهوا تاريخ العرب قبل الاسلام كانوا مدفوعين بعوامل من الدين أو دوافع من العصبية الشعوبية

ويقول أمين نخلة فى فصل له تحت عنوان الجاهلية وعصر الجاهلية · « لا أدرى كيف يقولون فى التأريخ للأدب العربى جاهلية وعصر جاهلية على أنه يوجد من دقائق الفلسفة العقلية فى هذا الذى انتهى إلينا من شعر الجاهلين شىء كثير . فعند النابغة مثلا من الكلام على النظام السياسى، وعند زهير والحارث بن حلزة من الالتفات إلى علم الاخلاق والآداب الاجتماعية ، وعند طرفة فى القصيدة التى يطالب فيها بحقوق أمه « وردة » ما يقصّر الشعر اليوم عن لحاقه فى هذا الميدان ، أفهذا كله يا أخواننا مؤرخى الأدب قد جاء من زمن يهدر من ضرم جاهلية جهلاء »[4] .

– ٣ –

تناولت الأمثال كثيرا من الأحداث والوقائع التى أمتلأت بها حياة العرب فى عصر ما

---

(١) ملامح من دور الإسلام فى بناء العمارة العربية د محمد رشاد خليل ص وما بعدها

(٢) الدكتور ابراهيم شعوط الأستاذ بجامعة الأزهر فى كتابه « أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ »

(٣) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص ١٦ .

(٤) من كتاب فى الهواء الطلق ص ٧٢

قبل الإسلام ، ولايستطيع من يريد الدراسة المستوعبة لتاريخ العرب فى تلك المراحل أن يغفل قيمة الأمثال وما يدور حولها من الأخبار والقصص سواء فيما يتعلق بالأيام والحروب التى خاضها العرب أم فى الصلات التى كانت تربط قبائلهم وعشائرهم أم فى علاقاتهم بملوك المناذرة والغساسنة ... أم فى غير ذلك مما اضطربت به حياهم .

ومن خلال الأمثال وما يتصل بها من أخبار تاريخية يستطيع المؤرخ أن يستنبط كثيرا من الملامح المميزة لطابع حياة العرب فى العصر الجاهلى من النواحى الاجتماعية والفكرية والأخلاقية وغيرها .

ومن كتب الأمثال ما صاغه مؤلفه على نسق إخبارى تاريخى كما فى كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى ، فهو يعرض الأمثال فى سياق رواية تاريخية تتناول حدثا أو قصة يذكرها فى كثير من الأحيان بأسلوب السرد حاكيا مادار بين أشخاصها من حوار تتخلله بعض الأمثال السائرة فالأمثال من الناحية التاريخية ترسم صورة دقيقة لأحوال المجتمعات العربية فى عصورها الماضية ، وتوجد كثير من عادات العرب وأحداث حياتهم لايستدل عليها من كتابات المؤرخين ولاتوجد إلا فى الأمثال .

وسأسوق طائفة من الأخبار للتدليل على ما أقول :

- كان من عادة العرب إذا أعياهم القِرَى ، أن يفصدوا للضيف بعيرا فيعالجوا دمه بشىء فيأكلوه ، وهو صنيع تأباه نفوسنا الآن وتتقزز منه خصوصا وقد حرمه الإسلام ولكنه يدل على شدة رغبة العربى فى تقديم الطعام لضيفه ، نعرف ذلك من قصة المثل :

« لَمْ يُحْرَمْ مَنْ فُصِدَ لَهُ » (الميدانى ٢ / ١١٣)

يقول الميدانى فى تفسيره : الفصيد : دم كان يجعل فى معى من فصد عرق البعير ثم يشوى ويطعمه الضيف فى الأزمة ، يقال من فصد له البعير فهو غير محروم .

- وكانوا اذا أخصبوا وسمنت ابلهم ضنوا بها أن تذبح ، وقد عرفوا ذلك من أنفسهم فقالوا فى أمثالهم :

« أخذت الأبل أسلحتها » ويروى : « أخذت الإبل رماحها » (الميدانى ١ / ٣٤)

وذلك أن تسمن فلايجد صاحبها من قلبه أن يذبحها .

- وكانوا - على عكس ماسبق - إذا كانت السنة مجدبة فخافوا على الإبل . ذبحوا صغارها لتسلم الأمهات . ولذا جاء فى أمثالهم

« تُمْرِدَوَاء الإبلِ التَّذبيح » (الميدانى ٢ / ١٧٤)

ومن ذلك أيضا جاء المثل الأخر :

« ما سَلِمتْ الجلّةُ فالسّخْلُ هَدَر » (المستقصى ٢ / ٣٢٤)

والجلّة : المسان ، والسخل : الصغير الضعيف . وهذا المثل يضرب فى التسلية ببقاء الكبير عن فناء الصغير .

وهذه الظواهر الاجتماعية الخاصة نستشفها نحن الآن من الأمثال القديمة وإن تكن الأمثال التى أوردناها تعبر عن معان عامة ، ولكن صورتها التعبيرية مستوحاة من البيئة ، ومرتبطة بالعادات والأعراف كما رأينا ، وهذه السمة تغلب على كثير من الأمثال القديمة

وهناك مطلب جوهرى لابد من السعى للوصول إليه حتى تكتمل للأمثال قيمتها التاريخية بحسبانها من أهم وثائق التراث القديم ، وهذا المطلب ليس مستحيلا اذا التفت الباحثون المحدثون الى قضايا الأمثال وأولوها جانبا من عنايتهم ، لأن ما بأيدينا من مجاميع الأمثال اختلط فيها القديم الموغل فى قدمه بالجديد المولّد ، ومن ثم لايستطيع القارىء الاهتداء فى سهولة إلى العصر الذى ينتمى إليه المثل ، ولايدرى متى سُمع من العرب للمرة الأولى .

ولو قدّدر للأمثال القديمة أن تحظى بدراسة من هذا النوع فستكون قيمتها التاريخية من الأهمية بمكان . وتجدر الاشارة إلى أننى استأنست بالأمثال العربية الفصحى من الجاهلية والاسلام لأن ملامح الشخصية العربية بقسماتها التى سنشير إليها واضحة فى تلك الأمثال قديمها وجديدها ، بل إن كثيرا من ملامح الشخصية العربية موجودة فى الأمثال الدارجة فى أقطار الوطن العربى فى عصرنا الحاضر ولكننى استبعدت الأمثال المولدة فقط خشية أن يكون بعضها منقولاً من تراث شعب آخر من الشعوب التى امتزجت بالعرب بعد الفتح الإسلامى .

الفصل الثانى

الدلالة الاجتماعية للأمثال

على الرغم من أن حياة العرب فى عصورهم القديمة كانت فى الغالب - تميل الى الجدب ، وأن المعطيات المادية لبيئاتهم كانت نزرة - فأن نظراتهم فى صروف الحياة وأحداثها وطبائع الناس ومشاربهم أتت صائبة دقيقة ، وحفلت فى كثير من جوانبها بالقيم الإنسانية النافعة ، وفى ذلك دلالة على أن جدب البيئة لايعنى بالضرورة جدب القرائح والعقول ، بل لعلنا نستطيع أن نتبين بوضوح أن الإضافات الحضارية التى أسهم بها العرب فى تلك الأزمان لهى من أنفس وأعظم ما أثر عنهم فى عصورهم كلها ، ولربما كان ذلك الجدب المادى سببا من أسباب صفاء القرائح وحيوية الفكر ، ودقة التأمل ، لأن الإنسان إذا كان مترفا مستغنيا تسير حياته على وتيرة واحدة فقلما يكد خاطره أو يعنّى نفسه بالتأمل فى ظواهر الكون وأحوال الكائنات ، أما العربى قديما فقد تعاور على حياته الجدب والخصب والعسر واليسر والضيق والسعة ... فولّد ذلك كله فى نفسه تأملا عميقا للحياة وفيضا من الاحساس الزاخر تجاه صروفها وأحداثها ، ووعت ذاكرته اللماحة إيقاع الكون وأسرار حركته ، فغدت الدنيا بين ناظريه كتابا مفتوحا يقرأ منه من آن لآخر حكمة المدبّر الأعظم ، ثم يرسلها فى عبارات بليغة ذات مغزى بعيد ودلالة مؤثرة .

ولاريب أن الأمثال مظهر من مظاهر الارتباط الجماعى الذى عاشه العرب ومارسوه بصورة فعاله سواء على مستوى الأسر والعشائر الصغيرة أم على مستوى الجماعات والقبائل الكبيرة ، فهى من هذه الناحية دليل على أن العرب أدركوا أهمية ارتباط الإنسان بأخيه ، وحاجته الى أن يتبادل مع بنى جنسه المنافع والمصالح وكذلك تكشف الأمثال رسوخ الوعى الاجتماعى لدى العرب وتداخل علاقات بعضهم ببعض وتشابك المنافع والمصالح فيما بينهم فقد علمتهم تجارب الحياة وقسوة البيئة عليهم أن يدركوا قيمة الاجتماع الإنسانى وأن يعرفوا أهمية التعاون فيما بينهم ، وماحبهم الشديد للكرم واشادتهم به ، ونفرتهم من البخل وتشهيرهم بالبخلاء سوى ثمرة من ثمرات ذلك الإدراك ونتيجة من نتائج تلك المعرفة

ولقد وصفت الأمثال القديمة حياة العرب وعوائدهم وأعرافهم . بل إن الأمثال لتعد من أكثر فنون التراث لصوقا بالظواهر الاجتماعية وتصويرا لها ، بحيث يجد المتفرس للأمثال القديمة أنه أمام حقائق ماثلة ، ووقائع متواترة عن طبيعة المجتمع العربى القديم . يرى من خلالها عوائد الناس وأعرافهم مآثرهم ومثلهم ، نقائصهم وعيوبهم ، حقهم وباطلهم . إنصافهم وظلمهم .. كل هذه الجوانب تستفاد من الأمثال لا على سبيل التقرير والتحقيق بل من خلال رصد حركة الحياة فى المجتمع وتتبع إيجابياته وسلبياته كما عبر عنها أفراده ، العاديون فى بعض الأحيان أو حكماؤه المتأملون فى أحيان أخرى .

ومن ثَمّ يتضح لنا أن الأمثال فى حقيقتها تعدّ رؤية إنسانية من خلال إطار اجتماعى فهى وليدة الاجتماع الانسانى بمعناه الشامل ونتيجة تفاعل علاقة الإنسان بأخيه الإنسان فى شتى شئون الحياة .

– ١ –

من الأمثال القديمة ما يساق تصويرا لظواهر اجتماعية وتسجيلا لتأثيراتها إيجابا أو سلبا ، وتبدو هذه النوعية فى بعض الأحيان ملاحقة لسلوك اجتماعى معوّج فى محاولة لترشيده وتحذير الناس من مخاطره ، ولا أزعم أن العربى كان يفعل ذلك عن قصد مبيت بهدف التوجيه والتقويم ولكنها فى حقيقة الأمر إفرازات اجتماعية تحدث تلقائيا دون توجه فكرى سابق ، غير أننا عندما نتأملها ونعرضها على بساط البحث نصنفها ذلك التصنيف

وبعض الأمثال التى تدخل تحت هذا الاطار تصور الظاهرة كما تحدث فى الواقع بعبارة موجزة وفى صورة مؤثرة ، ولاتتعدى التصوير الواقعى إلى التنبيه أو التحذير وإن كان ذلك يستوحى منها ويفهم بطريق غير مباشر ، وبعضها يجئ على سبيل التحذير المباشر من مخاطر الظاهرة موضع الانتقاد .

وليتأمل القارىء هذه الطائفة من الأمثال التى تصور ظاهرة محيرة فى سلوك الناس ومسلكا خطيرا فى تكوينهم الاجتماعى وهى ظاهرة الاستهانة فى رد القرض والاستهتار فى المحافظة على العارية ، ولاشك أن الانسان بحاجة إلى معاونة إخوانه فهو لايستطيع العيش بمعزل عنهم فلابد له أن يتعاون معهم يأخذ منهم ويعطيهم يقرض ويقترض يعير ويستعير . ومعروف لدى العقلاء أن الناس للناس وقد حث على ذلك الحكماء . وأوصت به الرسل وشرائع السماء غير أن المؤلم حقا أن يتلف المستعير ما استعاره ويأكل المقترض ما اقترضه ويُقابل حسان المحسنين بالاساءة وتقصر أهل المروءة بالتضييع والدناءة ولذلك

وردت الأمثال التى تسجل الشكوى المريرة من مسلك أولئك المستهترين الذين يسيئون الى من يمدون اليهم يد العون ، وإنّ إساءتهم لتزداد خطورة بأن يُشيعوا فى الناس السخط والخوف من ذلك المصير فيقبض أهل الخير أيدهم عن العطاء . خشية مغبة التضييع والإتلاف – ولنتأمل الأمثال القديمة التى تعبر عن تلك الظاهرة وتسجلها فى عبارات تقطر أسى ومرارة . قالوا :

« لو سئلت العارية أين تذهبين لقالت : أكسب أهلى ذما » (الميدانى ٣ / ١٠٨)

وينسب هذا المثل لأكثم بن صيفى وهو من حكماء العرب فى الجاهلية ، ولعلنا نلحظ الصورة الفنية التى عرضت الفكرة من خلالها عن طريق التجسيم للعارية وكونها تدرك أن أهلها لن ينالوا من جرائها سوى الذم والندامة .

وقالوا أيضا :

« رِجْلاَ مُستعيرٍ أسرعُ من رِجْلَىْ مُؤدِّ » (الميدانى ٢ / ٤٩)

وهى حقيقة ملموسة فى حياة الناس قديما وحديثا والطريف فى عبارة المثل اختيار صورة الحركة فى الأخذ ثم في الأداء ليتضح لسامع المثل ومتأمله مدى المفارقة بين الحالين والإيحاء بحرص المستعير على الأخذ وكراهيته للأداء .

وقالوا فى معنى قريب من ذلك :

«أحقُّ الخيلِ بالركض المُعار » (الميدانى = ١ / ٣٦١)

وقالوا :

« مَنْ أَضْرِبُ بعدَ الأَمَةِ المُعارة » (الميدانى ٣ / ٢٤٤)

وقالوا :

« أَتْلَفُ مِنْ سَلَف » (المستقصى ١ / ٣٦)

وقريب منهم قولهم :

« الأَكْلُ سَلَجَان والقَضَاء لَيَّان »[1] (الميدانى ١ / ٦٨)

---

(١) السلج : البلع ، والليان : المدافعة . ومعناه الانتفاع بما يقترض أو يستعار طيب لذيذ . ورده إلى اصحابه ثقيل على نفوس آكليه .

ومثله قولهم

« الأخذ سُرّيطٌ والقضاءُ ضُرّيْط »(١) (الميدانى ١ / ٦٨)

وهكذا نرى الأمثال من خلال تلك الطائفة التى سقناها - تسجل مخاطر تلك الظاهرة ووقعها السيىء على نفوس العقلاء ، ولاينبغى أن يتوهم أحد أن العربى بذلك يحص الناس على البخل بما عندهم أو قبض أيديهم عن أهل الحاجة ، لأن هناك أقوالا وأمثالا أخرى حثت على المنح ، وذمّت الشح والأشحاء ، وقصارى ماتهدف اليه تلك الأمثال تسجيل ظاهرة غير سويّة والتعبير عن امتعاض العقلاء منها ودهشتهم من مقترفيها لأن أيسر ما يقتضيه حالهم أن يردوا ما اقترضوه أو استعاروه لأصحابه شاكرين مقدرين ، وأبعد شيىء عن المعقول أن يتلفوا ما استعاروه أو يسوفّوا ويتهربوا من ردّ ما اقترضوه .

والأمثال التى تسجل ظواهر اجتماعية على سبيل الشكوى من تأثيراتها والسخط على مقترفيها كثيرة ومتنوعة ، منها مايكشف القناع عن المخادعين المرائين الذين يظهرون للناس خلال ماهم عليه من سوء نية وخبث طويّة ، كقولهم :

« سَبّحَ لِيَسْرق » (الميدانى ٢ / ١١٤)

وقولهم :

« سَبّحْ يَفْتَرُّوا » (الميدانى ٢ / ١٢٢)

وعبارة المثل الأول تحكى أسلوب طائفة من المخادعين الماكرين الذين يبدون للناس الصلاح والتدين ليمهدوا للايقاع بهم . والتدليس عليهم . أما المثل الأخير فهو يشير إلى الظاهرة نفسها ، وإن كانت عبارته واردة على سياق الأمر الذى يشعر بالذم والتسفية لصنيع ذلك المسبّح الذى لايهدف من تسبيحه إلا الايقاع بالسذج فى حبائل مكره ، وأشراك تغريره .

وقد تأتى الأمثال التى من هذا القبيل مصورة لظاهرة إنسانية لها دوافعها وأسبابها ، ولكن المثل لايتعرض لهذه ولاتلك ، وإنما يوضح تأثير الظاهرة بحسبانها تمثل لونا من غمط الحق ، وظلم بعض الناس من قبل الآخرين .

فقد قالوا :

---

(١) ويروى « الاخذ سُرّيطى والقضاء ضُرّيطى » . وسريط : من السرط بمعنى البلع أيضا ، ومعنى المثل أذا حد المنتفع المال أو المتاع تلقفه سريعا ، وإذا طولب بردّة هزىء بصاحبه ، كأنه يحكى له بقية فعل الضارط

« أزهد الناس فى العالم جيرانُه » (الميدانى ٢ / ٩١)

وهى ظاهرة قائمة فى حياة الناس على اختلاف العصور، إذ يترتب على الإلف والمخالطة عدم الاكتراث، لأن الإنسان مجبول على حب الشىء البعيد المنال. النادر الحصول، أما القريب المتاح فإن النفس تزهده وتعرض عنه.

وقد يأتى المثل تصويرا لجوانب غير مرضى عنها فى سلوك بعض الأفراد، ومن ذلك المثل :

« كَثُرَ الحَلَبَةُ وقَلَّ الرِّعاءُ » (الميدانى ٣ / ٣٢)

فقد قيل فى معرض تسفية المتبطلين الذين لايكلفون أنفسهم عناء السعى على الرزق والكدح فى سبيل العيش، ويحيون متطفلين على ذويهم من الآباء أو الإخوة أو غيرهم، وقد سيقت عبارة المثل فى صورة لصيقة بالبيئة العربية فى العصور القديمة حيث كان الرعى من أهم الأعمال التى يمارسها العربى ويعتمد معاشه عليها، فالعربى الذى أطلق هذه العبارة للمرة الأولى لمس تلك الظاهرة غير السوية فساق قولته على سبيل السخرية من ذلك الصنيع، صنيع المنتهزين الذين يختفون عند بذل الجهد ويتكالبون عند الانتفاع

وقالوا :

« يَحْمِلُ شَنٌّ ويُفَدَّى لُكَيْزٌ » (الميدانى ٣ / ٥١٧)

وذلك فى معرض التعبير عن الدهشة من سوء الجزاء عندما يرى الإنسان الذى يسدى المعروف للآخرين أن صنيعه يقابل بالجحود والتجاهل فى حين يحظى غيره بالثناء ويكون موضع الحفاوة والتكريم ولهذا المثل قصة طريفة .. خلاصتها أن « شنٌّ » و « لكيزا » كانا أخوين، وكانا مع أمهما فى سفر، وكانت الأمر تؤثر « لكيزا » وتحنو عليه كثيراً، فأحفظ ذلك « شنًّا » وأغضبه، وكانوا قد نزلوا فى سفرهم ذلك بذى طوى فلما أرادوا الرحيل فدّت « لكيزا » ودعت « شنًّا » ليحملها فحملها وهو غضبان حتى إذا كانا فى الثنية رمى بها عن بعيرها فماتت وقال « يحمل شن ويفدى « لكيز » فصارت مثلا وقريب من ذلك المعنى قول الشاعر :

وإذا تكــــون كريهـــــة أدعى لهـــــا   وإذا يحـــاس الحيس يـــدعى جـــندب

وقالوا :

« مِنْ مَالِ جَعْدٍ وجعدٌ غيرُ مَحْمُود » (الميدانى ٣ / ٣٢٤)

وهو يساق فى معنى قريب من معنى المثل السابق وأول من قاله جعد بن الحصين الخضرى ، وكان قد أسَنّ وتفرق عنه بنوه وأهله وبقيت له جارية سوداء تخدمه فعشقت فتى فى الحَىّ يقال له عرابة فجعلت تنقل إليه ما فى بيت جعد ففطن لها جعد فقال :

أبلغ لديك بنى عمرو مغلغلة — عمرا وعوفا وماقولى بمردود
بأن بيتى أمسى وفق داهية — سوداء قد وعدتنى شر موعود
تعطى عرابة بالكفين مجتنحا — من الخلوق وتعطينى على العود[1]
أمسى عرابة ذا مال يسر به — من مال جعد وجعد غير محمود

وهذا المثل يضرب للرجل الذى يُنْتَفع بماله ومع ذلك يذم .

فهذه الطائفة من الأمثال تصور وقائع فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وتنتقد ظواهر غير سوية ، وتلمس بعض الأدواء التى تعانى منها المجتمعات الانسانية بغية التخلص من سلبياتها ، وتجاوز أضرارها وشرورها .

— ٢ —

يستفاد من الأمثال أن العرب فى عصورهم الأولى أدركوا طائفة من ظواهر الاجتماع الإنسانى التى تشبه أن تكون قوانين ثابتة فى حيوات الناس على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم . ولقد سجلت الأمثال مجموعة من تلك الظواهر المرتبطة بالتكوين الاجتماعى . ولاغرابة فى أن يدرك العربى فى العصر الحديث تراث أسلافه ويغفل عن عطاءاته . وكأنه كان ينتظر من آبائه الأولين الذين عاشوا قبل أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان أن يسجلوا أفكارهم وملاحظاتهم بالأسلوب والكيفية التى سجل بها علماء الاجتماع المحدثون فى أوربا آراءهم ونظرياتهم وفق قوانين العصر ومستحدثاته .

ألا ما أحوجنا إلى استلهام تراثنا فى شتى أمور حياتنا لأن مجتمعاتنا العصرية تنتمى فى كثير من خصائصها وطبائعها إلى أصول قديمة ، تجعلها مختلفة اختلافا بيّنا عن المجتمعات الغربية وهذه نظريات علم الاجتماع التى نقلناها عن الأوروبيين يتبيّن من كثير منها أنها

---

(١) مجتنحا : معناه هنا كمية كبرى . والخلوق : الطيب .

مبنية على مشاهدات اجتماعية مرتبطة بحياة الأوربيين فى المجتمعات الصناعية ، فضلا عن ترتب بعضها على نظريات فلسفية ظهرت فى تلك البيئات .

ووما تجدر الإشارة إليه أننا لانزعم أن العرب الأقدمين قد تركوا لنا نظريات اجتماعية فى أمثالهم بالمفهوم الدقيق « للنظرية » وإنما قصارى مانود لفت الأنظار إليه أن تراثهم حمل بدور تلك الأفكار الاجتماعية الرائدة ، عن طريق رصد حركة الحياة فى المجتمع وما يستتبع التفاعلات بين أفراده وفئاته من سلوك وما تفرزه الصراعات الاجتماعية من آثار .

وليتأمل معى القارىء هذه الطائفة من الأمثال وينعم النظر فيها ويتبيّن سداد فهم قائليها .

قالوا :

« الناسُ بِخَيْرٍ ما تباينوا فإذا تَساوَوْا هَلَكُوا » (المستقصى ١ / ٣٠١) .

أى لابد فيهم من رئيس ومرءوس وآمر ومأمور ومُوَجَّه وموجِّه فاذا اختلّ ذلك التمايز اضطربت أمورهم وتضرر بذلك هيكلهم الاجتماعى ، وليس ببعيد عن معنى المثل – فيما أرجّح – أن تباين الناس فى المهارات والقدرات وتنوعهم فى الحرف والصناعات أساس من أسس استقرار حياتهم ، إذ يحدث التوازن بين ما يريدونه وما يحصلون عليه ، ومن ثَم تضطرد مسيرة النمو الحضارى التى تتأثر بلاشك بمستوى التوازن الحاصل بين رغبات الأفراد والأسر ودرجة إشباع المجتمع لتلك الرغبات .

فالمثل كما وضح لنا يقرر أصلا من أصول الاجتماع الإنسانى ويسجل حقيقة من حقائقه ، ولعل من المفيد أن يتنبه المربون والمصلحون فى مجتمعاتنا إلى غرس أسس القيادة الصحيحة ، وتنشئة الأجيال على الاحترام المتبادل بين الرئيس والمرءوس وتبصير كل فريق بواجباته نحو الفريق الآخر ، وإقناع المرءوسين بأن من صالحهم أن يعتاونوا مع رئيسهم لما فيه خيرهم جميعا ، وكذلك تبصير الرئيس أو القائد بضرورة الرفق بمن يرأسهم أو يقودهم وأن يفهم طبيعه دوره معهم ، وأنهم لم يسوّدوده عليهم ليمتلك رقابهم ، بل ليسهم فى تسيير دفة الأمور وتنظيم الجهد المبذول بما يعود بالنفع والخير على الجميع .

وقالوا :

« رضا الناس غايةٌ لاتُدْرَك » (الميدانى ١ / ٤٧) .

وهى حقيقة من حقائق الوجود الإنسانى ، فلايكاد يصل أحد مهما حسنت صفاته

وتعددت مواهبه ، ووضحت مناقبه إلى أن يحور رضا الناس أجمعين . فلابد له من حاسد ناقم ، أو عدو كاره ، وربما تصدى لمعاداته ومخالفته من لاتربطه به علاقة ولاتشمله معه عداوة أو صداقة ، بل لمجرد الرغبة فى عدم الإقرار لأحد بالسبق . أو التسليم لنابه بالتفوق والنبوغ .

وفى هذا المثل تنبيه لأرباب العقول ، وأهل الفضل والوجاهة فى الناس ألا تصدمهم حملات المشككين أو تثبط من عزائمهم أراجيف المغرضين ، وينبغى عليهم أن يواصلوا جهودهم الخيرة فى خدمة إخوانهم غير عابئين بلغط المفسدين وعيب الأدعياء الجاهلين ولقد قالت العرب فى أمثالها :

« لاتَكْرَهْ سُخْطَ مَنْ رِضَاهُ الجَوْر » (الميدانى ٣ ١٥٨)

أى لاتبال بسخط الظالم الذى لايرضيه إلا الجور فليثبت أهل الفضل ودعاة الحق وشداة الخير - على مواقفهم ما دامت وجهتهم صحيحة وما دامت أقدامهم على جادة الطريق . وليهملوا تحامل مخالفيهم وهم دوما قلة قليلة ونغمة ناشزة .

وقالوا :

« فَرِّقْ ما بَيْن مَعَدٍّ تَحَابّ » (الميدانى ٢ ١٨٠)

وهى حقيقة أخرى من حقائق مجتمعاتنا العربية قديما وحديثا فكلما تباعد الأقارب فى مواطن سكناهم دام التواصل والتحاب بينهم وكلما اختلطوا وتجاوروا دب الخلاف بينهم ووقعت الشحناء والمألوف عادة أن المتقاربين فى السكنى والإقامة تتصادم مصالحهم فى بعض الأحيان وهذا معروف فى بيئاتنا الريفية فى العصر الحاضر فما بال حياة العرب الأولين التى كانت بطبيعتها أكثر تشابكا وأقرب الى أن يقع بسبب ذلك الشقاق والتنافر . وقريب من هذا المثل قولهم فى المثل الآخر :

« رُبَّ بَعِيدٍ لا يُفْقَدُ بِرُّه وقَرِيب لا يُؤْمَنُ شَرُّه » (الميدانى ٢ / ٦٥)

وقالوا :

« لن يَعْجِزَ قومٌ إذا تعانوا » (المستقصى ٢ ٢٩٦)

وفى هذا المثل إدراك لقيمة الروابط الاجتماعية القوية بين الناس وقد سبق العربى الذى فطن لهذه الحقيقة دعاة التعاون ومنظريه فى العصر الحديث

وقالوا « الإمارَةُ ولَوْ على الحِجَارة » (المستقصى ٣)

فالتطلع إلى الإمارة والاستشراف للزعامة والرياسة أشياء مركوزة فى طباع الغالبية العظمى من الناس ، وللمثل مورد طريف وان لم يتفق شارحو الأمثال على تفاصيله فقد أورد الزمخشرى فى المستقصى أن قائله هو زياد (ابن أبيه) حين أخبر بثروة رجل كان قلده بناء مسجد بالبصرة . ونقل الميدانى عن مصعب بن عبد الله بن الزبير أن قائله هو عبد الله بن خالد بن أسيد حين قال لابنه : ابْنِ لى داراً بمكة ، واتخذ فيها منزلا لنفسك ، ففعل ، فدخل عبد الله الدار فإذا فيها منزل قد أجاده ، وحَسَّنَه بالحجارة المنقوشة ، فقال : لمن هذا المنزل ؟ قال : المنزل الذى أعطيتنى ، فقال عبد الله : « ياحبذا الإمارة ولو على الحجارة » !!

وفضلا عن الجوانب التى تقدمت فإن الأمثال العربية القديمة تعد سجلا لطابع الحياة الاجتماعية فى العصور التى طرحت فيها تلك الأمثال إذ عبرت عن القيم الاجتماعية السائدة بين الناس فى تلك العصور ، ولعل الذين يُديرون بحوثهم حول الحياة الاجتماعية عند العرب الأقدمين بحاجة ماسة إلى الرجوع الى الأمثال فهى معينٌ لاينضب لتصوير الحياة الاجتماعية بما حفلت به من صراع وما نجم عن ذلك من خصومات وأحداث .

ومن الأمثال التى نستشف منها طوابع الحياة الاجتماعية فى بيئات العرب الأقدمين قولهم :

« رَهَبُوتٌ خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوتٍ » (الميدانى ٢ / ٢٥)

أى لأن تكون مرهوب الجانب مخشى السطوة خير لك من أن تكون ضعيفا مرحوما ، ومن هذا المثل يتبين لنا أن مجتمع العرب الأقدمين مجتمع يمجد القوة ويعتد بها ، ويراها سببا للحياة الكريمة ، وما إخال الأمر إلا كذلك قديما وحديثا ، على مستوى الأفراد والأسر وأيضا على مستوى الدول والقوى المتصارعة ، مهما اختلفت أشكال الأنظمة القائمة ، ومهما تنوعت مسمياتها وهياكلها .

ومن سمات العلاقات الاجتماعية بين العرب الأقدمين أنها كانت فى غالب أحوالها مبنية على الصراحة والمكاشفة ، وبعيدة بعداً شديدا عن النفاق أو المراءاة فقد اعتاد العربى هذه الصراحة حتى ولو كان عنقه تحت سيوف الأعداء ، وبلغ من حبهم للصراحة وكراهيتهم للكذب أن قالوا فى أمثالهم

« سُبَّنِى واصْدُقْ » (الميدانى ٢ / ١٢٢)

وتلك مبالغة فى بيان حرصهم على الصدق وتطلّبهم له

ومن طبيعة المثل أنه يرد تصويرا لحادثة أو تعليق على موقف فهو أنأى ما يكون عن التعمل أو التكلف بل هو صورة واقعية زاخرة بالصدق وعمق التأمل ، فقد كان تعامل العربى مع الظواهر التى يلمسها فى واقع حياته تعاملا مبنيا على المكاشفة والوضوح فقد قال ذلك العربى المحب للصراحة فيما قال من أمثاله السائرة .

« ظِئْرٌ رَءُوم خَيْرٌ مِنْ أمٍّ سَئُوم » (الميدانى ٢ / ٣٠٨)

أى لأى تكون للإنسان مرضع عطوف حانية خير له وأجدى عليه من أن تكون له أمّ معرضه عنه ، لايشعر فى جوارها بالحنو الذى يجده لدى المرضع ، وهى نظرة مفرقة فى الواقعية ، وكأى العربى يتعامل مع الوقائع بحرية تامة فهو يرى الأمور بنتائجها ، ولاتخدعه الرسوم المقررة أو القوالب الموروثة .

وقريب من ذلك ما جاء فى قصة المثل :

« غَرْثَانُ فاربُكُوا له » (الميدانى ٢ / ٤١٣)

وأصله أن أعرابيا قدم من سفر فبشروه بمولود ذكر فقال : ما أصنع به آكله أم أشربه ! فقالت أمرأته : غرثان فاربكوا له أى أتخذوا له الربيكة وهو لون من الطعام . فلما أكل وشبع قال : كيف الطلا وأمه ؟[1] .

وهكذا نرى الأمثال القديمة ترتبط ببيئة العرب وتصور مجتمعاتهم وتطلعنا على جانب من مشكلات تلك المجتمعات ، وما اعتاده الناس من عادات ، كما ترسم صورة للشخصية العربية فى إطارها البيئى ، وتفاعلها مع معطيات ذلك الإطار ، وهى صورة تدل على وعى اجتماعى ناضج ، ورؤية إنسانية مستبصرة ، فالظواهر الاجتماعية موضع تأمل واستبطان والصراع بين الأفراد والعشائر مناط استكناه واستنتاج فلم يكن العرب غافلين عن حركة التفاعل الاجتماعى ، ولابعيدين عن ادراك مظاهر ذلك التفاعل ، بل وعوا كثيرا من حقائق الاجتماع الإنسانى ، وأسسوا عليها كثيرا من عاداتهم وأعرافهم ، وبنوا عليها وصاياهم ونصائحهم ، و تبلور على ضوئها فكرهم ومبادئهم

---

(١) الطَّلا   بفتح الطاء   ولد الظبية ومقالة الأعرابى على سبيل التمليح وهو يريد السؤال عن حالة المولود وامه

الفصــل الثالــث

الدلالــة النفسيــة للأمثــال

توارد على فكرى وأنا أتأمل دلالات الأمثال وإيحاءاتها تساؤل حول علاقة المثل بالتجربة الأدبية هل يندرج تحتها ؟ أولاً ؟ وقد اتضح لى بعد طول تأمل أن قدراً كبيراً من الأمثال القديمة يعبر عن تجربة نفسية عميقة ، ولا يختلف عن التجارب الأدبية الأخرى إلا فى الصورة اللفظية المؤدية له ، فبعض الأمثال كالقطعة الشعرية أو النثرية الصادقة فنياً - نابع عن تأثر قائله بموضوعه ، وتفاعل فكرته فى وجدانه ومعاناته لقضيته ، ثم صياغة هذه المعاناة فى عبارة مؤثرة وإن كانت تختلف من حيث إيجازها وتركيزها عن أجناس الأدب الأخرى .

فالعربى الذى قال :

« يأتيكَ كُلُّ غَدٍ بما فيه »

(الميدانى ٣ / ٥٢٢)

قد عبر - بلا ريب - عن تجربة إنسانية عميقة ، عاناها وتأثر بها وأجال فكره فى جنباتها إلى أن صاغها فى تلك القولة الموجزة التى تعد ثمرة نافعة من ثمرات التأمل الصائب والفهم السديد ، فطالما عانى الإنسان من ترقبه للمستقبل ومحاولة اكتشاف ما تأتى به الأيام ، ولكن معاناته وترقبه لم يجديا عليه شيئاً ، ولم يستطع فى تاريخه القديم ولا الحديث من أن يشكف الغيب لأن ذلك ليس فى مقدوره ولا طاقته . وقد فطر على معرفة الماضى والحاضر والجهل التام بالمستقبل كما عبر الشاعر الجاهلى : زهير عن ذلك فى قوله :

وأعلم علم اليــوم والأمس قبلــه   ولكننى عن علم مــا فى غــد عم

فالأحرى بذلك الإنسان الذى لن يستطيع أن يكتشف ما تأتى بـه الأيـام أن يريح نفسـه

ويلقى بهمومه منتظراً لم يتكشف فى غده طالما أنه لن يستطيع معرفته قبل أن يحل ذلك الغد :

والآخر الذى قال :

« مِنْ كُلٍّ تحفظُ أخاكَ إلاَّ مِنْ نفسه »

(المستقصى ٢ / ٣٥١)

قد عبر عن تجربة صادقة وصاغها فى عبارة مؤثرة ، فمهما كانت المخاطر التى يتعرض لها الإنسان ، أو العثرات التى تعترض مسيرته ، يستطيع - بحول الله وقدرته ثم بمساعدة إخوانه والتفاف محبيه من حوله أن يتجاوز هذه وتلك ، وأن تتأكد خطاه الواثقة على الطريق الصحيح ، أما إذا كان فساد حاله من داخل نفسه ، وتخبطه نابعاً من فكره المضطرب وفهمه السقيم - فلن يستطيع أحد على وجه الأرض أن يضمن له السداد . أو يباعد بينه وبين ما يؤديه إليه سلوكه المنحرف وصنيعه السيّئ . وقريب من ذلك المثل الآخر :

« عَدُوُّ الرجل حُمقه وصديقُهُ عقله »

(الميدانى ٢ / ٣٥١)

وأخيراً فالعربى الذى قال :

« سُرِقَ السارقُ فانتحر »

(الميدانى ٢ / ١٦)

قد عبر عن تجربة غريبة لمسها فى سلوك الإنسان ذلك المخلوق العجيب الذى يسو كثيراً ويتوهم أكثر وأكثر ، فهذا الأحمق الذى اعتدى على ما ليس له ، وحاز ما ليس من حقه ، تُوهمه نفسه الخادعة أنه صار صاحب حق فيما سرقه ، ويظل هذا الوهم يكبر فى نفسه حتى يؤدى به إلى الانتحار عندما يسرق منه ما سبق له أن سرقه . وهو موقف حد غريب ، يدعو إلى الدهشة ، بل إلى السخرية ، كما يستوحى من عبارة المثل

وليست هذه النوعية من الأمثال بالشىء القليل فإنها تمثل قدراً كبيراً من أمثال الأقدمين وقد سقت ما سبق على سبيل الإشارة إلى تلك الظاهرة المهمة من ظواهر الأمثال

وإذا كان شأن الأمثال هكذا فإنها تحفل بلا شك بكثير من التجارب النفسية ، والإشارات ذات الدلالة الخاصة فيما يتعلق بتأمُّل العربى لنوازع النفس الإنسانية والإهتداء إلى كثير من حقائقها . والتعرف على كثير من نوازعها ومساربها الدقيقة .

ولقد يعجب بعض أهل هذا الزمان من حكمنا للعربى الذى عاش فى بيئة بدائية بفهم نوازع النفس الإنسانية والإهتداء إلى بعض ظواهرها ، فى حين أن سلفه المتحضر لم يسمع بتلك الأمور إلا عن طريق ما نقله عن الأوربيين فى العصور الأخيرة ، ولقد غفل أولئك المتعجبون عن حقيقة مهمة وهى أن العقل البشرى منحة إلهية يستوى الناس جميعاً فى امتلاكها والإستفادة بإدراكاتها ، وأننا حينما أهملنا تراثنا القديم غمطنا ذلك العربى حقه ولم ننصفه ، ولو أنصفناه لوضعنه فى موضعه الصحيح ولبحثنا عن إسهاماته المتنوعة فى الفكر الإنسانى وإضافاته الحضارية المهمة .

وإنى لألتمس من القاىء العذر فى إثارة هذه القضية من حين لآخر فليس القصد منها تكلف الانتصار للعرب أو اختلاق الأمجاد لتراثهم ، فإن القلم إنما يجرى بذلك عن قناعة تامة بجدارتهم ، وحسرة متكررة على إهمال آثارهم ، بل والاساءة إليهم والإفتراء على تاريخهم

ولنعد إلى الكلام على الدلالات النفسية للأمثال ، والذى أعنيه بتلك الدلالات هو أن العرب فطنوا إلى كثير من الأصول التى قررها علماء النفس المحدثون فيما يتعلق بالسلوك الإنسانى ، ودوافعه وطبيعة الميول والأهواء والعواطف إلى غير ذلك مما يتردد على ألسنة الباحثين فى علم النفس والمؤلفين فيه ، وإن اختلفت التسميات ولست أزعم أن العرب وضعوا نظريات فى علم النفس ولكن ما أريد أن أوكده أنهم تنبهوا إلى أصول بعض هذه النظريات وعملوا بمقتضاها ودعوا إلى مثل ما دعت إليه ، هذا فضلاً عن تأملهم لحالات كثيرة من أحوال النفس الإنسانية ، وتغلغلهم فى سبر أغوارها ، وتفسير منازعها ، فى عبارات موجزة وليس على سبيل الشرح والتحليل ، وكان ذلك بالطبع فى عصر ما قبل الاسلام والعصور الإسلامية الأولى . لأنها بعد إزدهار الحضارة الإسلامية ورسوخ الحركة العلمية فى العالم الإسلامى ظهرت بحوث عميقة فى أحوال النفس وظوارها وبخاصة عند فلاسفة المسلمين وكبار علمائهم كابن سينا والفارابى وابن خلدون والغزالى وغيرهم

الأمثال وظاهرة الأهواء :

هناك ظاهرة نفسية مهمة أشارت الأمثال العربية القديمة إلى أعراضها ومخاطرها وهى ظاهرة الأهواء ، والهوى فى عرف علماء النفس : « ميل النفس الشديد إلى ما تحب وتشتهى »[1] .

وهو أحد الميول الإنسانية ولكنه ميل جامح وله مخاطره على صاحبه لأنه يؤثر على إدراكاته العقلية ، ويجعله منقادا لما يهواه بلا بصيرة ولا تروٍّ ، ومن ثم حذر العلماء من أثاره لأنه يلغى التفكير المتزن ويسلب الإنسان أنفس شىء لديه وهو العقل الذى يميزه عن غيره من الكائنات ، ويلخص المفكر الألمانى الشهير « نيتشه » أثر الهوى فى سلوك الإنسان بقوله : « إن الهوى يرتب الأشياء ترتيباً جديداً ، فيغير رأينا فى الحياة ، ويبدل شعورنا ، ويصبغ حياتنا النفسية بلون جديد ، ويجعل المهم فى أعيننا تافها ، والتافه مهما . ويوهمنا أن الحياة قد بُدّلت غير الحياة ، فكأن الاحساسات والأفكار مبتلة بندى الهوى . وكأن ذكريات الماضى وآمال الحاضر وأحلام المستقبل منسوجة بخيوطه »[2] .

فإذا رأينا بعد تقريرات العلماء المحدثين عن تلك الظاهرة ومخاطرها أن قالت فى أمثالها :

« حُبُّكَ الشىءَ يُعمِى ويُصِمُّ »

(الميدانى ١ ٣٤٨)

إتضح لنا أن أولئك الأقدمين قد فطنوا إلى طبيعة الهوى وتأثيره وحذروا من مخاطره . لأنه على حسب تصويرهم يدع الإنسان كالأعمى الذى لا يرى شيئاً من عيوب ما يهواه . وكالأصم الذى لا يصيخ لمن يريد أن يرده إلى جادة الصواب ، ويلقى إليه بالحقيقة التى يهدى إليها التفكير الصحيح والرأى السديد .

وورد فى الأمثال قريب من ذلك المعنى فى قولهم :

« الحُبُّ أَعْمَى »

(المستقصى ١ ٢٠٨)

---

(١) نقلا عن كتاب « علم النفس » د . جميل صليبا ص ٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٩ .

والمراد بالحب فى هذا المثل « العشق » وهو فرط التعلق من المحب لحبيبه . وهذا هو الهوى الذى بحثه علماء النفس وحذروا من أخطاره ونتائجه . وفى مثل أخر وردت كلمة الهوى بالمعنى المشار إليه نفسه فقد ورد فى الأمثال قولهم :

« الهــوى : الهــوان »

(الميدانى ٣ / ٤٦٩)

وذلك لأنه يفقد الإنسان رشده ، ويدعه أسيرا لهواه ، مسلوب الإرادة ، مشغولاً عن مهام حياته ، مدفوعاً إلى التذلل والخضوع لنيل ما يهواه .

وقد أورد الميدانى خبراً طريفاً فى ثنايا شرحه لهذا المثل قال :

« أول من قال ذلك رجل من بنى ضبة يقال له أسعد بن قيس وصف الحب فقال :

هو أظهر من أن يخفى ، وأخفى من أن يُرى فهو كامن كمون النار فى الحجر إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى ، وإن الهوى الهوان ، ولكن غُلط باسمه ، وإنما يعرف ما أقول من أبكته المنازل والطلول » .

ومما يؤكد إدراك عقلاء العرب لأخطار الأهواء ونتائجها السيئة على الإنسان الذى تتمكن من نفسه دعوتهم إلى الإتزان العاطفى فى التعامل مع الأشياء والأشخاص إيجاباً أو سلباً فقد قالوا فى أمثالهم :

« لا يكن حُبُّك كَلَفاً ، ولا بُغْضُك تَلَفاً »

(الميدانى ٣ / ١٦١)

وما أروعها من مقولة تضع أساساً راسخاً للاعتدال العاطفى ، وتبتعد بالإنسان عن الجموح الممقوت ، عن طريق تلمُّس جادة الطريق ، والسير على مهل ، بدلاً من التهور المذموم ولا ريب أن الموقف العاطفى المبنى على التأمل والاقتناع أكثر ثباتاً ورسوخاً مما يبنى على التسرع والإندفاع ، وما أكثر ما تتقطع أواصر العلاقات بين الناس بسبب ذلك الجموح غير المنضبط فإذا كان تحاباً أعقبه تباغض ، وكانت العدواة والكراهية أشد . وإن كان كراهية ومقتاً على غير أساس أعقبه شعور بالندم وإحساس بالذنب

ومن أمثالهم التى تدعو إلى الإعتدال العاطفى أيضاً قولهم :

« أحْبب حَبيبك هَوْناً ما »

(الميدانى ١ / ٣٧١)

وقالوا كذلك :

« أبْغِضْ بَغيضَكَ هَوْناً ما »

(الميدانى ١ / ١٨٨)

أى كن مترويا فى تحببك لحبيبك فربما ظهر فيه من المساوىء ما يزهدك فيه وتمهل كذلك فى بغضك من تبغض فلعلك تلمس فيه من الخلال الطيبة ما يرغبك فيه فتكونِ هناك جسور ممتدة بينكما تستطيع من خلالها أن تمنَحه محبتك وأخوتك

وهكذا اتضح لنا بما لا موضع للريب معه أن الأمثال العربية القديمة قد أشارت إلى مخاطر الهوى وحذرت من أضراره ، ودعت إلى الاعتدال فى الحب والبغض ، وهذا ما قاله علماء النفس المحدثون وطالبوا به .

الأمثال وظواهر النفس الإنسانية :

لمس العرب فى أمثالهم جانباً مهماً من نوازع النفس الإنسانية فى مختلف أحوالها وأتت أمثال كثيرة من أقوالهم نتيجة لتأمل دوافع سلوك الإنسان وتتبع خلجات نفسه فى أدق أحوالها ، ومن ثم صوَّرت تلك النوعية من الأمثال حقائق إنسانية مرتبطة بالإنسان من حيث هو إنسان بما جُبل عليه من نوازع وميول .

وسأكتفى هنا بالإشارة إلى بعضها ، ومنها قولهم :

« النفسُ مُولعةٌ بِحُبِّ العاجل »

(المستقصى ١ / ٢٥٤)

وقولهم :

« المرء تَوّاقٌ إلى ما لم يَنَلْ »

(المستقصى ١ / ٣٤٦)

وقولهم :

« الناس إخوان وشتى فى الشيم »

(المستقصى ١ / ٣٥١)

وهذه الأمثال تعد أصولاً لحقائق نفسية لصيقة بالطبيعة البشرية فقد جُبل الإنسان على تعجل رغباته وطموحاته ، وفُطر على التطلع إلى ما لم تنله يداه ، وهكذا أراد له خالقه عز وجل – أن يبقى فى شوق دائم وارتباط موصول بأهداف يسعى لتحقيقها وأشياء يتوق إلى نيلها ، قد تكون مادية أو معنوية ، مالا أو جاها ، وهذه وتلك هى التى تدفعه إلى الجهد ، وترغبه فى العمل الذى هو سبب عمارة الكون ، واطراد تقدم الإنسانية .

وفى قولهم : « الناس إخوان وشتى فى الشيم » أصل مهم من الأصول المقررة فى الدراسات النفسية الحديثة ، فعلى الرغم من تشابه بنى الإنسان فى الأعراض الخارجية من اللون والجنس واللغة وغيرها إلا أن كل إنسان يختلف عن الآخر اختلافاً بينا فى خصاله ونزعاته ، بل إن كل نفس إنسانية عالم مستقل من حيث التكوين النفسى ، والملامح الشخصية والطباع .... الخ .

ومن الأمثال التى تدخل فى هذا الباب قولهم :

« كُلُّ فتاةٍ بأبيها مُعْجَبَة »

(فصل المقال)

وقولهم :

« مَنْ يمدح العروس إلا أهلُها »

(المستقصى ٢ / ٣٦٤)

فهذان المثلان يضربان فى تعاطف الأقارب بعضهم مع بعض ومبالغة كل منهم فى تقدير الآخر على أساس الارتباط العاطفى وليس على أساس الحقيقة والواقع ، وتلك ظاهرة معترف بها فى الدراسات النفسية ، إذ تبدأ العاطفة لدى الصغير مرتبطة بالمنافع واللذات التى تمنحها له الأم ثم الأب ثم تنمو تلك العلاقة على السنين فيكون التعاطف القوى بين الآباء والأبناء ، وكذا الحال بالإضافة إلى الأقارب والأرحام ومن الأمثال التى تدخل فى نطاق تسجيل الظواهر النفسية قولهم :

« إنَّ الشَّفيقَ بسوء ظَنٍّ مُولَعٌ »

(الميدانى ١ / ١٧)

أى أن المحب العطوف يدفعه حبه وحنوه إلى أن تتوارد على خاطره الظنون ويعتريه القلق على من يحب فيظل تتخطفه الظنون بوقوع المكروه بمن هو قلق عليه . وهذا الإحساس يلمسه بخاصة الأمهات والآباء عندما يكون الأبناء بعيدين عنهم .

الأمثال وقوة الإرادة :

ومن الحقائق النفسية المهمة التى وردت إشارات إليها فى الأمثال الدعوة الى تقوية الإرادة الإنسانية فى مواجهة أعباء الحياة فقد وردت أمثال تدعو الى الجد فى العمل وقسر النفس على ما تكره حتى تنعم بالراحة وتظفر بما تتمنى ، ولا ريب أن هذه الدعوة التى وردت أمثال متعددة تقررها وتحث الناس عليها من أهم ما يحتاجه الإنسان على مر العصور ، فكم من أقوام آثروا التبطل وركنوا إلى التوانى والعجز فكان مسلكهم السيىء شر وبيلا على أشخاصهم وعلى مجتمعاتهم إذ صاروا عبئا عليها .

لقد أدرك العربى بفطرته الصافية أن الحياة جهد موصول ، وعمل جاد لايعرف الكلال ومن ثم كانت دعوته إلى الجد والسعى فى سبيل الرزق ، وتحذيره من الركون إلى العجز

وأمثالهم فى هذا الموضو كثيرة أعرض هنا بعضا منها قالوا :

« اطلُبْ تَظْفَرْ »

(الميدانى ٢ - ٢٩٤)

أى دوام على طلب ما تريده يكن الفوز حليفك .

وقالوا فى قريب من ذلك المعنى :

« أوْلَى الأمور بالنجاح المواظَبَةُ والإلحاح »

(الميدانى ٢ - ٢٩٤)

وقالوا فى الحث على تحمل المشاق والإحساس بالراحة عند بلوغ الغايات

« عِنْدَ الصَّباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى »

(مستقصى ٢ - ٦٨)

وقالوا فى عناء العمل والصبر على مشاقه

« إن العراك فى النَّهَل »

(الميدانى (/ ٩٢)

العراك : الزحام والنهل الشّرب الأول . أى أوّل الأمر أشدّه فعاجل بأخذ الحزم .

ودعا العرب فىأمثالهم إلى العمل والكفاح فى أيام الشباب ومقتبل العمر لأنها مرحلة اكتمال القوة ، ووفرة النشاط فقالوا :

« عَدْوَكَ إذْ أنْتَ رَبَعٌ »

(الميدانى ٢ / ٣٥٨)

أى ليكن عدوك فى شبابك ، وكدحك فى مراحل عمرك الأولى ، لتنعم بالراحة والطمأنينة فى خريف عمرك وزمن شيخوختك .

وحذرت الأمثال من الركون إلى الدعة والقعود عن السعى فى سبيل الرزق فجاء فيها قولهم :

«العَجْزُ وَطِيءٌ »

(الميدانى ٢ / ٣٨٢)

أى أن النفوس ترتاح إليه وتطمئن له لأنه يوطئ لها الراحة والدعة ، فمن استمرأ العجز صار له عادة ، وجنى على نفسه أسوأ جناية .

وقالوا فى قريب من ذلك المعنى :

« العَجْزُ ريبَةٌ »

(الميدانى ٢ / ٣٨٢)

يعنون بذلك أن الإنسان إذا وجّه همته إلى أمر وثابر عليه بلغ منه مايريد ، فإذا عجز عنه ففى أمره ريبة بمعنى أن التقصير لِعلّةٍ فى العاجز لا أن هناك أمراً مستحيلاً . وشبيه بهذا المعنى قولهم فى مثل آخر :

« المرءُ يَعجزُ لا المَحَالة »(١)

(المستقصى ١ / ٣٤٦)

(١) هكذا روى المثل فى المستقصى وفصل المقال . ورواه الميدانى « المرء يعجز لا محالة » وهى رواية غيردقيقة لأنها توهم عكس المعنى المراد .

ومعناه أن الحيل ومخارج الأمور لا تضيق إلا على العاجز ، والمقصود بالمحالة هنا : الحيلة .

ولقد بلغ العرب فى الحث على العمل والدعوة إلى المثابرة عليه مبلغاً عظيماً عندما أوصوا العاملين بالصبر ، والتهيؤ للعمل ، وترك التعجل والسآمة ، فقالوا :

« التَّمْرُ فى البِئْرِ »

(المستقصى ١ / ٣٠٧)

أى أن التمر يُسعى إليه ويبحث عنه فى وقت مبكر عندمايكون النخل محتاجاٍ إلى الجهد فىسقيه وتعهده حتىيكون هناك أمل فى الحصول على حصاد وفير وخير كثير وقريب من ذلك قولهم فى مثل آخر :

« أَوَّلُ الشَّجَرَةِ النَّواةُ »

(الميدانى ١ / ٩٩)

وجاء فى تحذيرهم من السأم والملل فى تحقيق المقاصد وبلوغ الغايات قولهم

« إيَّاكَ والسآمةَ فى طَلَبِ الأمور فتقذفُكَ الرجالُ خَلْفَ أعقابها »

(الميدانى ١ / ١٢٩

فلابد إذاً لمن يريد أن يحيا حياة كريمة أن يدأب على بذل الجهد ، ويغالب نوازع الملل والسأم ، كيلا تفوته الفرص الملائمة ويضيع شبابه فى تبطل فارع ، ولهو عابث ، فيفيق على واقع أليم ، إذ يرى أهل الحزم ممن قويت إرادتهم ، قد حازوا ما يكسب المجد والرفعة ، وبقى هو هملاً ضائعاً .

ولقد صرح عقلاء العرب فى أقوالهم المأثورة وأمثالهم السائرة بأن العجز وضعف العزيمة يسلمان من يبتلى بهما للفقر والحرمان فقد قالوا فى أمثالهم :

« إنَّ العجز والتَّوانى تزاوجا فأنتجا الفقر »

(المستقصى ٤٠٧

الأمثال وعدوى الطباع :

اهتم العرب – كما يظهر من أمثالهم – بتربية النفس البشرية تربية صحيحة . وعالجوا

التفكير فىالمداخل التى تؤدى إلى فساد النفوس وتردى الطباع ، وعلى الرغم من أنهم لم يأخذوا هذه المعارف عن فلاسفة أو معلمين فقد هداهم تأملهم الدقيق إلى كثير من أدواء النفوس فعرفوا أضرارها ومخاطرها ، وحذروا من عواقبها وسلبياتها .

لقد اكتشفوا قوة تأثير العادات التى يكتسبها الإنسان ، وفطنوا إلى لزومها لمن يعتادها ، وأنه كلما كان ضعيف الإرادة كانت سيطرة العادات عليه أشد ، وتمكنها من سلوكه أرسخ ، والعادات منها النافع ، ومنها الضار ، فينبغى للإنسان العاقل أن يحرص على اكتساب العادات المحبوبة ، ومقاومة العادات المستهجنة .

وهذه من الحقائق التى اهتم بهاعلماء النفس المحدثون ، وقد أدركها العرب وأشاروا إليها فى أمثالهم .

ومن ذلك قولهم :

« عَوّدْتَ كِنْدَةَ عَادَةً فاصبر لها »

(المستقصى ٢ / ١٧٢)

وهذا المثل مأخوذ من قول الأعشى :

عـودت كنـدة عــادة فـاصبر لهــا   اغفر لجـاهلهـا وروّ سجـالهـا[1]

« وهو يضرب فى عادة خير يعوّدها الرجل صاحبه فعليه أن يدوم عليها ولا يرفضها »
وقالوا فى بيان مخاطر عادة السوء :

« أَجْلَسْتُ عبدى فاتَّكأ »

(فصل المقال ٣١٤)

يعنون بذلك أن التهاون مع من هو أدنى منك منزلة قد يجرئه عليك ويسلمه تعوّد ذلك إلى التمادى فى القحةومن ثم يفسد انقياده لك وتستعصى طاعته لأوامرك .

وتلك ظاهرة مقررة لدى المربين ومن توكل اليهم قيادةفريق من الناس أيا كانت نوعياتهم ، فلابد لمن يريد أن يكون موفقاً فى تربيته ناجحا فى إدارته أن يضع الأمور فى نصابها الصحيح ، ولا يدع زمام الأمور يفلت من يده وقريب من هذا المعني قولهم :

---

(١) السجال الدلاء فيها الماء

« الأُنْسُ يُذهِبُ المَهَابة »

(المستقصى ١ / ٣٠٢)

وهو من أقوال أكثم بن صيفى .

أى أن الإنسان عندما يألف شيئاً أو يخالط كبيراً أو رئيساً تتضائل هيبته من نفسه شيئاً فشيئاً وذلك بسبب تعود رؤيته للشىء أو الشخص المهاب ، وتلك حقيقة مَحسَّة فى حياة الناس .

والأهم من ذلك أن العرب أدركوا مخاطر العادات السيئة لأنها تنتقل ممن تعودها وألفها إلى غيره عن طريق التقليد والمجاراة ، فإذا ما كانتَ العادة سيئة كانت عدواها شراً وبيلاً ، وإذا كانت خيّرة غدا من الصواب اكتسابها ومخالطة متعودها .

ومما يدل على أن العرب قد فطنوا إلى ذلك الأصل النفسى المهم قولهم

« العاشيةُ تُهيجُ الآبِيَةَ »

(الميدانى ٢ / ٣٢٩)

أى إذا رأت الإبل التى تأبى العشاء إبلاً تتعشى دعتها إلى التعشى معهاوهيجتها له وكأن رؤية الآبية إقبال العاشية على المرعى يستعديها على أن تشاركها فيما تقبل عليه . والمثل يضرب فى نشاط الإنسان للشىء إذا رأى غيره يفعله وإن لم ينشط له من قبل

والطريف فى هذا المثل أن العرب أدركوا هذه الحقيقة النفسية من خلال تأملهم لسلوك الإبل ويستدل من ذلك على أن العرب قد سبقوا أيضاِ إلى ملاحظة الحيوانات وتأمل حالاتها وأخذ العبرة من نتائج ذلك التأمل ، ومن ثم فإن ما صنعه « بافلوف » و « يونج » وغيرهما فى تجاربهم على الفئران والكلاب ... ليس جديداً فى ساحة استخلاص الحقائق النفسية .

وقريب من معنى المثل السابق قولهم :

« بالَ حمارٌ فاستبال أحْمِرَةٌ »

(المستقصى ٢ / ٥)

وان كان المعنى فيه مقصوداً به السلوك القبيح كما توحى عبارة المثل وقد دكر الزمخشرى أنه يصرب للوصيع يأتى أمراً فيتبعه أقرانه .

وقريب من معناه المثل الآخر :

« لا تُظلَعَنِى فتَهِيجِى القوم للظّعن »

(الميدانى ٢ / ١٩٨)

وهو من قول الشاعر :

يـا ربّــةَ العبر ردّيــه لمرتعــه ... لا تظعنى فتهيجى القــون للظعن

ويضرب لمن يفعل فعل سوء فيتبعه غيره .

ومن أحكم ما قاله العرب فى التدليل على مخاطر العادات السيئة قولهم فى أحد أمثالهم :

« عادةُ السُّوءِ شَرٌّ مِنَ المَغْرَمِ »

(بالميدانى ٢ / ٣٥٤)

أى أن الإنسان إذا تعوّد عادة سيئة ولم تقو إرادته على مخالفتها كانت تلك العادة وبالاً عليه ، وكان ضررها أدهى من ضررتراكم الديون ، فإنه إذا كان مثقلاً بالديون فصحّت عزيمته على العمل الجاد والسعى لكسب الرزق ، فقد ينجح فى ذلك ويؤدى ما عليه من ديون وربما صلح حاله بعد ذلك وتجاوز مصاعب أزمته الموقوتة ، أما إذا كان ذا عادة سيئة - كشرب الخمر مثلا - فإن تلك العادة أخطر عليه مس المغرم لأنها تبدد ما عنده وتتركه صفر اليدين .

تأمــلات شـــتى :

وهناك فضلا عن القضايا السابقة ملاحظات متنوعة تشهد للعربىبصفاء الذهن ، ودقة التأمل ، واستشفاف دخائل النفوس ، ولعل من الغريب أن نسمع فى زماننا هذا عن لجوء بعض الهيئات القضائية وأجهزة كشف الجريمة لمتخصصين فى الدراسات النفسية للاستعانة بخبرتهم فى التثبت من انفعالات المشتبه فيهم ، والاستدلال عليهم من خلال ظواهر معين تبدو على وجوههم . وأغرب من ذلك ما أوردته إحدى الصحف العربية من أن شركة كبرى فى اليابان عندما تكون بصدد إبرام عقد مهم مع شركة أخرى ، أو مع عملاء لتوريع منتجاتها تحرص على أن يكون بين وفدها الذى يتفاوض بشأن تلك الصفقة أحد الخبراء فى الجوانب

النفسية ، ويحضر ذلك الرجل جلسات التفاوض ولا هَمّ له إلا تفرس وجوه الفريق المقابل لمجموعته ، ولا تتم الموافقة على الصفقة إلا بعد أن يوافق ذلك الخبير !!

يحدث هذا فى عصرنا الحاضر ونرى فى الأمثال العربية القديمة ما يشير إلى أصل هذه الحقيقة فى قولهم :

« شاهِدُ البُغْضِ اللّحْظُ »

(الميدانى ٢ / ١٥٦)

ويروى :

« شاهد البغض النَّظَرُ »

(الميدانى ٢ / ١٢٧)

أى أن الدليل على عاطفة الآخرين نحوك تلمح من نوعية نظرهم إليك ، والأريب يدرك من صفة اللحظ إن كان دليلاً على الكراهية والمقت أم لا .

وفى مثل آخر ورد عكس هذا المعنى فقالوا :

« جَلّى مُحِبٌّ نَظَرَهُ »

(الميدانى ١ /٢٨٤)

أى أن نظر المحب يكون مصحوباً بالتودد والتحبب فكأنه يجمل نظراته ، ويقبل على من يحب بأسارير منبسطة ، ويديم إليه النظر ، أما الكاره فإنه ينظر إليك شزراً ولا يكاد يثبت نظره إليك وإنما يلحظك لحظاً .

وقد حكى الميدانى عقب هذا المثل عن أبى عبيدة أن هذا المعنى من قول زهير :

فإن تك فى صديق أو عدوٍّ تخبرك العيون عن القلوب

ومن الإدراكات النفسية المهمة التى فطن العرب إليها تقديرهم للدافع الذاتى الذى يحرك الإنسان لعمل شىء ما والدافع فى اصطلاح علماء النفس :

« حالة جسمية أو نفسية تثير السلوك فى ظروف معينة وتواصله حتى ينتهى إلى غاية معينة »[1]

(١) نقلا عن كتاب « المدخل إلى علم النفس » د . عبد الله عبد الحى موسى ص ٣٢

وعندما نتأمل المثل العربى :

« تَمَسَّكْ بِحَرْدِكَ حَتَّى تُدْرِكَ حَقَّكَ »

(الميداني ١ / ٢٥٣)

نراه يقرر هذا الأصل والحرد هو الغضب ، ففى المثل دعوة لمن ظلم وهضم حقه أن يُبقى جذوة الدافع الذى يحفزه إلى دفع الظلم قوياً فى نفسه ، وطالما أن هذا الدافع قوى لديه فلن يعدم وسيلة يصل بها إلى ما يريد ، أما إذا تبدد غضبه ، وشغل عن تنمية دافع رد الاعتبار فلن يكون له أمل فى الانتصاف أو الثأر من خصمه .

وهكذا نرى الأمثال القديمة تكشف عن معايشة واعية لجوانب النفس الإنسانية ، سواء فى اطار الذات المستقلة أم على مستوى الجماعة الإنسانية ، وتكشف كذلك عن تأمل مستبصر لظواهر السلوك ودوافعه ، بما يترتب عليه من تحديد لمعالم الاستقرار النفسى والتوازن العاطفى ، والتعرف على أدواء النفوس ونقائصها بغية التنبه لمداخلها وسد المنافذ التى تؤدى إليها .

ولا ريب فى أن تلك التأملات لمسارب النفس ونزوعاتها ، وتتبع منابع عللها وأدوائها يجعل للأمثال القديمة قيمة حضارية مهمة ، بحسبانها قد أرست فى الفكر العربى تجارب نافعة ، ورفدته بخبرات وحقائق إنسانية لها تأثيراتها الإيجابية على الشخصية العربية .

الفصل الرابع

الدلالة الأخلاقية للأمثال

لم تخل حياة العرب الأقدمين - حتى فى عصر الجاهلية - من قيم أخلاقية تواضع الناس عليها ، واتفق العقلاء على مراعاتها ، وعلى الرغم من أن العرب لم يبحثوا القيم الأخلاقية بحثاً عقلياً كما فعل الإغريق فإن ما تواضعوا عليه من مفاهيم حول الفضيلة والرذيلة والخير والشر لا يقل أهمية عما قرره الاغريق أو غيرهم من أصحاب النظر الفلسفى . والجدير بالتأمل أن نظرات العرب للقيم والمثل تتسم بطابع واقعى وترتبط بالحياة العملية ومن ثم فهى أحرى بأن نبحثها ونأخذ منها العبرة ، فالعربى لم يعرف للفضيلة أو الرذيلة قيمة مطلقة فى حد ذاتها وإنما ارتبطت الفضيلة والرذيلة فى فهمه بالسلوك الذى يسلكه الإنسان ، وبالتالى فإن القيمة الحقيقية للفضيلة تكمن فى الإنسان الفاعل لها ، كما أن نقيصة الرذيلة تعود على مقترفها . وهذه نظرة واقعية للخير والشر تربط كلا منهما بالسلوك الإنسانى وترتب على ذلك الارتباط نعت السلوك بالخيريّة أو تجريده منها .

والأمثال العربية القديمة تحفل بالأقوال التى تنم عن القيم الأخلاقية السائدة لدى العرب ، وهى القيم الإنسانية العليا التى عرفها الناس منذ أحقاب موغلة فى القدم وتواضعوا عليها ، وإن اتسمت فى كل بيئة بسمات خاصة ولكن أصولها العامة موضع اتفاق بين البشر جميعاً كالحلم والوفاء والعدل والشجاعة وغيرها من الصفات المحمودة ، والكذب والرياء والجبن والجور وغيرها من الصفات المذمومة .

إن الأخلاق المحمودة والمثاليات الرفيعة كانت من أهم ما حرص العربى على التحلى به والاشتهار بين الناس باكتسابه وما أحاديثهم المتكررة عن المكرمات والمآثر إلا أمارة بينّة على تأصل هذا الميل فى نفوسهم ، واستشرافهم إلى اكتساب تلك الخلال . وها هم أولاء شعراؤهم وحكماؤهم يشيدون بأهل المروءة ، والنجدة وذوى السماحة والكرم ، وأرباب الشجاعة والمرؤءة ، كما يسفهون المتصفين بضد تلك الخلال ويشهرون بهم . ويسلقونهم بألسنة حداد .

ان الكتّاب والمؤلفين الذين يدأبون على الحط من شأن العرب الأقدمين وخصوصا فى عصر ما قبل الإسلام وينفون عنهم كل محمدة وينعتونهم بكل رذيلة ليبتعدون كثيرا عن الحقيقة ويناقضون أنفسهم أبين تناقض فقد عرف العرب قبل الاسلام كثيرا من الفضائل الخلقية ، ولذلك عندما نشأ بينهم محمد ﷺ واشتهر قبل البعثة بالصدق والأمانة - كان موضع تقديرهم وإعجابهم وهذا دليل على تأصل حب الصدق والأمانة فى نفوس العرب قبل أن يوصيهم بالتحلى بها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم بعد البعثة .

والحق أن الأمثال القديمة تعد سجلا دقيقا للمعايير الخلقية عند العرب فى عصورهم الأولى وهو سجل كفيل بدحض الأباطيل التى حاول الشعوبيون قديما وحديثا إلصاقها بهذه الأمة التى تنسم أبناؤها عبير الفضيلة منذ فجر التاريخ . ولذلك كثر فى أمثالهم الذائعة الحث على الفضائل والتحبيب فيها . وكشف الأدواء الأخلاقية والتحذير منها .

العرب ومعايير الأخلاق :

أشرت قبل قليل إلى أن نظرة العربى إلى الفضيلة كانت نظرة واقعية بعيدة عن التجريد والتأمل الفلسفى ومع ذلك فهى نظرة جديرة بالبحث لما لها من دلالة على ميل العقلية العربية إلى الواقعية فى تمثل الحقائق والتعامل مع الظواهر . وإن باستطاعة الباحثين إذا تعمقوا فى دلالات تراثنا العربى القديم وبخاصة ألوان الأدب - شعراً ونثرا - الوقوف على كثير من المعطيات الإنسانية النافعة .

لقد قال العرب فى أمثالهم :

« إنّ خَيْراً من الخير فاعله وإنّ شَرًّا من الشر فاعله » (الميدانى ١ / ٩٨)

وهو مثل يقرر أصلا مهما من أصول الأخلاق فى نظرهم ، إذ يدل على أن الفضيلة والرذيلة ليس لأى منهما وجود خارجى مستقل ، ومن ثم فلاينبغى أن توصف بحسن أو قبح ، وإنما يوصف بالحسن فاعل الخير وبالقبح فاعل الشر ، وهكذا نرى العربى بشفافيته وإلهامه يأتى فى هذه العبارة على وجازتها بما لم يأت به كثير من الفلاسفة ، فهو بذلك يضع أساسا مهما من أسس السلوك الإنسانى خلاصته أن الأفعال والنزوعات أهم من المعانى والنظريات فما قيمة أن يعرف الإنسان الخير والشر دون أن يلتزم جانب الخير ويبتعد عن مداخل الشر ؟

وعندما نتفرس بعض الأمثال القديمة التى تحث على الفضيلة وتحذر من الرذيلة نجد

ذلك الربط بين الفضيلة المحبب فيها وفضائل أخرى أعلى منها وأرفع وأرسخ فى نفس الانسان ، فقد ورد فى أمثالهم التى تحث على الصدق وتنفر من الكذب قولهم :

« الصدقُ عزّ والكذبُ خُضُوع » (الميدانى ٢ / ٢٤٠)

ففى المثل دليل على أن العرب أحبوا الصدق وتعلقوا به لأنه دليل على سمو النفس وعلو الهمة ، فالصادق إنسان سوى الإرادة ، راجح العقل ، لدية من الشجاعات وثبات القلب ما يحول بينه وبين الكذب ، فهو لايجد غضاضة فى التصريح بما يقول أو يفعل ، أما الكاذب فهو ذليل خاضع لايجرؤ على التصريح بما انطوى عليه قلبه ولايجد من القوة ما يمكنه من أن تكون علانيته مثل سريرته ، وتلك نقيصة نفسية وخلقية من أشنع النقائص

كذلك من أقوال العرب التى تعاورتها ألسنتهم وصارت أمثالا قولهم :

« الخيرُ عادة والشر لَجَاجَة » (الميدانى ١ / ٤٣٧)

وهو من الأمثال التى تنم عن فهم دقيق لطبيعة النفس الإنسانية وأنها مجبولة على الخلال الطيبة فلو تركت على سجيتها لفعلت الخير بالفطرة والسليقة فصار لها عادة وسهل عليها ، على عكس الشر الذى هو مغالبة للحقيقة وطمس لها وتحايل عليهما فالتكلف فيه أشد والمعاناة بسببه أقوى .

وقريب من المثل السابق قولهم

« الحقُّ أَبْلَجُ والباطل لَجْلج » (الميدانى ١ / ٣٦٧)

ومعناه أن الحق واضح وسبيله مستقيم . أما الباطل فمدخله مضطرب وطريقه معوّجة يحار فيه صاحبه ولايجد لنفسه من شروره مخرجا

فالإنسان الذى يكذب - على سبيل المثال - يكتم الحقيقة فى نفسه ويبالغ فى إخفائها ويبذل من قدراته وطاقاته الكثير فى سبيل الظهور بمظهر الصادق فى حين أنه لو صدق فى قوله لما احتاج منه الصدق إلى مثل تلك المعاناة .

ويؤكد هذا الفهم لحقيقة الخير والشر فى نظر العربى قولهم فيما يتعلق بالصدق والكذب :

« دع الكذب حيث تَرَى أنه ينفعك فإنّه يَضُرّك ، وعليك بالصّدق حيث ترى أنه يضرك فإنه ينفعك » (الميدانى ١ / ٤٧٧)

وهى وصية من أنفس ما يمكن للإنسان أن يأخذ به نفسه ، لأن الكاذب إن نجاه كذبه فى واقعة ما فإن نجاته غالبا تكون مؤقتة . فكثيرا ما ينكشف أمره ويبين تدليسه عندئذ يدرك عن يقين أن الكذب قد ضره أكثر مما أفاده ، وكان الأحرى به أن يلجأ إلى الصدق منذ البداية . وكثيرا ما كانت الصراحة والصدق سببا فى النجاة من العقاب ، وذلك فى دنيانا هذه فما بالنا بالآخرة يوم يقف الناس بين يدى علام الغيوب ؟!

وقريب من معنى المثل الذى سقناه هنا المثل الذى أوردنا فيما سبق والذى يدعو إلى الصراحة والصدق حتى ولو كان فيهما إساءة إلى المخاطب فى قولهم :

« سُبَّنى واصدق » (الميدانى ٢ / ١٢٢)

ومن أمثالهم التى تؤكد فضيلة الصدق وحسن عاقبة الصادق قولهم :

« إنْ كنتَ كذوبا فكن ذَكُورا » (الميدانى ١٢٨)

وليس فى المثل دعوة إلى الكذب – كما قد يتوهم – وإنما فيه تحذير من عاقبة الكذب لأن الكذوب كثيرا ما يناقض نفسه ويكشف للآخرين تخبطه ، ومهما حاول الكذوب أن ينسق أكاذيبه ، فانه لايعدم أن ينسى فينكشف أمره .

قال الميدانى : يضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيحدّث بخلاف ذلك .

الأمثال والأخلاق الفاضلة :

إن الأمثال التى تحث على الأخلاق الفاضلة تكتسب أهمية خاصة لأنها تسوق النصيحة فى معرض مؤثر ، ولاتكتفى بإلقاء النصح فقط بل تتعدى ذلك فى كثير من الأحيان الى دلالات أخرى بعيدة التأثير فى النفس ، فقد تصف الإنسان الفاضل وتبين عن مسلكه وتثنى عليه . فيكون فى ذلك تحبيب للآخرين فى أن ينهجوا نهجه ، وقد تأتى فى صورة إيضاح أثر الفضيلة وجزائها فى حياة الإنسان وعاقبة أمره ، وعلى العكس من ذلك فى الرذيلة فهى دائما أقوال تنطوى على دلائل صدقها وبراهين صوابها ، وليست تقريرات عقلية صرفة كما هو الحال عند الفلاسفة .

ومن السجايا المحمودة التى أشاد بها العرب فى أمثالهم :

الحـــلم :

وهو من الصفات التى تمدح بها العرب وحرص على التحلى بها عقلاؤهم واشرافهم واهل

الرياسة والسيادة فيهم . وقد صربوا الأمثال بأولئك الحلماء . ومن أشهرهم قيس بن عاصم المنقرى والأحنف بن قيس وقد مر ذكرها فى الفصل الأول .

ونذكر هنا بعض ماورد فى الحلم من الأمثال . ومنها قولهم

« حلمى أَصَمٌّ وما أُذُنى بِصَمَّاء » (المستقصى ٢ / ٦٦)

ذكر الزمخشرى فى المستقصى أنه من قول الشاعر :

قل ما بدا لك من زور ومن كذب   حلمى أصم ومـا أذنى بصمـاء

وهو مثل يضربه الحليم للجهول . يقول له : إنى معرض عن الخنا ولن أجيبك بمثل صنيعك وكأنى أصم عن سماع إساءاتك مع أن أذنى على الحقيقة غير صماء .

وورد فى مثل آخر قريب من هذا المعنى قولهم :

« أصمُّ عمَّا ساءه سَمِيعٌ » (الميدانى ٢ / ٢٢٨)

وذلك فى معرض الثناء على الحليم لأنه يتصامم عما يسوء إليه من الأقوال ، ويرهف السمع لما يسره ، فعل الرجل الأريب .

وقالوا عن الحلم والحليم :

« الحَليمُ مَطِيَّةُ الجهُول » (الميدانى ١ / ٣٧٥)

وفيه تصوير احتمال الحليم وإغضائه ، وتطاول الجهول وتماديه ، فكأن الحليم صار مطية للجهول . وأكدوا هذه الحقيقة فى مثل آخر قالوا :

« لايَنْتَصِفُ حليم من جهول » (الميدانى ٣ / ١٩٣)

لأن من طبع الجهول أن يشغب ويصخب ، ويكثر من الجلبة والضجيج ، أما الحليم فانه لايسلك هذا السلوك ، ولايتدنى إلى تلك التفاهات ومن ثم فإنه فى الظاهر لاينتصف من الجهول ، وإن كان العقلاء يعرفون للحليم قدره ويحفظون له إغضاءه وحلمه

الشجاعة :

وهى من السجايا التى تمدح بها العرب واعتدوها من ألزم خلالهم وأحراها بالاكتساب والتعود . ومن أجل ذلك ضربوا الأمثال بجرأة الشجعان وإقدامهم وشبهوهم بالأسود الكاسرة وهى أمثالهم

« أجرأ من أسَامَةَ » (الميدانى ٣٣٧

وهو الأسد

« أجرأ من قَسْوَرَ » (الميدانى ٠ ٣٣١

وهو الأسد

« أجرأ من ذى لبد » (الميدانى ٠ ، ٣٣١)

« أجرأ من ليث بخفان » (الميدانى ٣٣٧

وخفان : موضع كثير الأسود .

وقالوا فى مادة أشجع :

« أشجع من أسامة ومن ليث عريسه ومن هُنَىّ »[1] (الميدانى ٢ ٨ ٢

وهنى رجل شجاع .

وقالوا فى التحبيب فى الشجاعة وذم الجبن :

« الشجاع مُوَقّى والجبان مُلَقّى » (فصل المقال ١٤٩)

أى أن شجاعة المقدام ترهب خصومه وتجعلهم يتقون لقاءه ويحذرون مصادمته أما جبن الجبان فيجعله فريسة سهلة يحرص الآخرون على اصطيادها .

وقالوا فى التدليل على خور الجبان ومحاولة التموية على ما يعانيه فى قرارة نفسه

« عصا الجبانِ أطْوَل » (المستقصى ٢ ٦٣٠

الأدب :

ويعنون به الرشد وسداد الرأى وحسن البصر بالأمور وأحيانا يطلقون على من يتحلى بهذه الصفة « العقل » فى مقابلة « الحمق » .

وفى أمثالهم :

« الأدب خَيْرُاتِ ميراث » المستقصى ٢٩٨)

وقالوا :

« عَدُوُّ الرجل حُمقه وصديقه عقله » (الميدانى ٢ ٣٥ ؛

وقالوا :

« معاداة العاقل خَيْرٌ من مُصافاة الجاهل » (المستقصى ٢ / ٢٤٦)

القناعة :

قالوا :

« من قَنَعَ بما هو فيه قرّت عينهُ » (الميدانى ٢ / ٣٣٦)

وقالوا :

« وحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِىٌّ » (العقد الفريد ٣ / ١٠٦)

الوفـــاء :

وقد بلغ فيه العرب الغاية ، فكان الواحد منهم يفى بوعده مهما كان الخطر الذى يعرّضه له وفاؤه ، وقد حفظت الأمثال أخبار الأوفياء ومن أشهرهم السموءل بن حيان وجاء فى أمثالهم :

« أوفى من السموءل » (الميدانى ٣ / ٤٤٦)

يقولونه أذا أرادوا وصف انسان ببلوغ الغاية فى الوفاء ورعاية العهد .

وكان من وفاء السموءل أن أمرأ القيس لما أراد الخروج الى قيصر استودع السموءل دروعا ، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام ، فتحرز منه السموءل ، فأخذ الملك ابنا له كان خارج الحصن ، فصاح الملك بالسموءل ، فأشرف عليه فقال : هذا ابنك فى يدى وقد علمت أن أمرأ القيس ابن عمى ومن عشيرتى ، وأنا أحق بميراثه فإن دفعت إلىَّ الدروع وإلاّ ذبحت ابنك ، فأجابه السموءل : ليس إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع ، فذبح الملك ابنه ، وأبقى السموءل الدروع عنده حتى دفعها إلى وثة امرىء الفيس . وقال فى ذلك :

وفيت بـــأدرع الكنـــدى انى إذا مـــاخـــان أقـــوام وفيت
وقـــالـــوا : إنـــه كنـــز رغيب ولا واللـــه أغـــدر مـــا مشيت

العفو عند المقدرة :

وهو من دلائل سمو النفس وارتفاعها عن التدنى ، فلم يكن العربى بطبعه محبا لسفك

الدماء ، ولاميالا إلى الانتقام من الآخرين ، ولكنه كان تواقا إلى كسب الأمجاد ، محبا للتفوق فكان يرضيه أن يقر له عدوة بالظفر ، ويخضع لإرادته . جاء فى أمثالهم

« إذا ارجَحَنَّ شاصياً فارفع يدا » (العقد الفريد ٣ / ١٠٦)

أى اذا رأيت خصمك قد خضع واستكان فاكفف عنه .

والشاصي : هو الرافع رجله .

وقالوا أيضا :

« إنَّ المقدرة تُذْهِبُ الحفيظة » (العقد الفريد ٣ / ١٠٦)

أى أن التمكن من الخصم والظفر به يخفف مشاعر الغضب التى يحسها الظافر به نحو

الإبـــــاء :

وهو من ألزم صفات العربى الخلقية بل لعله يرادف فى ذهنه معنى الحياة ، فقد ألف العربى الحرية ، ولم يعرف الخضوع الا للمثل العليا التى عشقها ، والمبادىء التى تربى عليها . ولذلك تراهم يقولون فى أمثالهم :

« الموتُ السَّجيحُ خَيْرٌ من الحياة الذميمة » (الميدانى ٣ / ٣١٧)

والسجيح : السهل اللين .

وقالوا :

« المنية ولا الدنية » (الميدانى ٣ / ٣١٦)

العرب وقوانين الأخــلاق :

وفضلا عن الصفات الخلقية التى أشرنا إليها فيما سبق كانت للعرب مثاليات كثيرة ، وكانت لهم نظرات ثاقبة فى المعايير الخلقية اتسمت بالمرونة وبعد النظر ، فلم يأخدوا قوانين الأخلاق بصورة جامدة ، بل نظروا لغاية كل قانون ، وفطنوا إلى مبدأ الوسطية فى المعايير الخلقية ، فعرفوا أن الشجاعة بين الجبن والتهور ، والكرم بين السفه والبخل وهكذا ولذلك تراهم يقولون فى أمثالهم :

« ليس من القَوَّة التورُّط فى الهَوَّة » (المستقصى ٢ / ٣٠٨)

واعترفوا كذلك بحق الإنسان فى رد الاعتبار فقالوا

« لم يُشْطِطْ من انتقم » (الميدانى ٣ / ١٣٥)

وكانوا أغير ما يكونون على نسائهم وجاء فى أمثالهم :

« كُلُّ شَيْءٍ مَهْمَهٌ ما النساءُ وذِكرُهُنَّ » (فصل المقال ١٣٩)

ومعناه أن الحر يحتمل كل شيء حتى يأتى ذكر حرمته فيمتعض ويثور .

وقد دعوا الى صون المرأة عن السقوط والحيلولة بينها وبين مواطن الريبة فقالوا :

« كُلُّ فَحْلٍ يَمْذِى وكُلُّ أُنثى تَقْذِى » (الميدانى ٣ / ٤٣)

وهو يضرب فى المباعدة بين الرجال والنساء .

ولقد كانت للمرأة فى أخلاقيات العرب الأصلاء حرمة يحرصون على مراعاتها ويلزمون أنفسهم بذلك فى السلم والحرب ، ولم تشذ تصرفاتهم عن ذلك إلا فى حالات نادرة تؤكد المبدأ ولا تنفيه .

وفى أمثالهم :

« كُلُّ ذَاتِ صِدَارٍ خَالَةٌ » (الميدانى ٣ / ٥)

والصدار : ثوب لا كمين له تلبسه المرأة فى بيتها .

ومعنى المثل : أن الأبِىَّ إذا رأى أمرأة عدها بمثابة خالة له وأوجب لها من الصون والتكريم ما يوجبه لخالاته .

فالأمثال القديمة - كما رأينا - سجلت كثيرا من أخلاقيات العرب ومثلهم المرعية بما يؤكد عمق الالتزام الخلقى فى طبائع العرب الأقدمين ، وحرصهم على التحلى بمكارم الأخلاق ، والاشتهار بين الناس بحسن الشيم ، وجميل الخلال ، ومن المؤكد أن البحث المستوعب فى أخلاقيات العرب وقيمهم التى يعتزون بها خليق بأن يبدد كثيرا من الأوهام التى حاول خصومهم قديما وحديثا أن يشوهوا بها صورتهم وينتقصوا من مكانتهم فى ميدان القيم والأخلاق ، والأمثال كما أشرنا شاهد ناطق على سمو الشخصية العربية ونزوعها إلى الفضائل العليا والمآثر التى يتوارثها الأبناء وتعتز بها الأجيال .

وما أحرانا أن نزيل القتام عن الجوانب الوضيئة فى تراث العرب الأقدمين ومما لاريب فيه أن الأمثال المورثة كان لها دور تربوى مهم لدى العرب الأقدمين وخاصة قبل الأسلام .

وذلك لأنهم لم يكن لهم دين صحيح يستمدون منه مثالياتهم ومبادئهم الأخلاقية كما لم تكن لديهم مراكز علمية أو مدارس فلسفية يأخذون عنها مبادئهم وقيمهم

ومن ثم حرصت القبائل العربية على الاستفادة بآراء حكمائها المجربين فكان دور « الحكيم » لايقل أهمية عن دور شيخ القبيلة أو الخطيب أو الشاعر . وكانت الأمثال والحكم المأثورة هى الزاد الذى يعتمد عليه الحكماء ، ويحرص الناس على حفظها وتناقلها . مستفيدين منها الخبرة والتجربة ، يترسمون على هديها المبدأ القويم . والخلق النبيل

الفصـــل الخـــامـــس

الدلالة اللغوية للأمثـــال

للأمثال أهمية كبرى من حيث دلالتها اللغوية وإن لم تنل من هذا الجانب عناية على أيدى الباحثين المحدثين ، لأنها لم تدرس إلى الآن دراسة لغوية مستوعبة تكشف خصائصها ، وطبيعة تكوينها . وسأحاول فى هذا الفصل إطلاع القراء على بعض تلك الجوانب .

تتميز ألفاظ الأمثال بالدقة ، وتدل دلالة بينة على سعة اللغة العربية ، وثرائها وتعبيرها عن أدق المعانى ، وأعمق الأفكار ، وتصويرها لخلجات النفس ، ومقدرتها على التعبير الإيحائى ، وطواعيتها لأداء مختلف المضامين . كما تدل الأمثال على عمق الحس اللغوى عند العرب الأقدمين وجرأتهم فى استخدام اللغة ، وتطويعها لمقاصدهم الفنية ، وميلهم لتنميق العبارة ، وجرسها ، بعيدا عن القيود التى لم تعرفها العربية إلا فى عصور الجمود والتحجر ، والقعود عن الانطلاق والابتكار ، حيث كانت اللغة تلبى حاجات أهلها فى تأدية مادق وسما من المعانى والأفكار .

إن التلقائية التى نحسها فى عبارات الأمثال تؤكد بما لايدع مجالا للريب أن العرب الأقدمين كانوا أكثر منا تحررا فى استخدامهم للغة ، وتعبيرهم بها ، فكانوا بحق سادتها ، وكانت خادمهم المطيع ومطيّتهم الذلول ، ولقد بقيت للغة العربية هذه السمة فى إبان ازدهار الدولة الاسلامية ، وارتقاء حركة الفكر فى ربوعها ، فلما اعتورها الجمود والضعف ، جمدت اللغة أيضا وتحجرت ، وصارت تعانى من الأغلال والأصفاد التى كبلها بها دعاة المحافظة ، وهم لم يحافظوا عليها فى الحقيقة بل سجنوها فى أطمار بالية ، بعد أن كساها الأوائل بعلومهم وفهومهم حللا من أزهى وأبدع ما يكون .

الأمثال والتصرف فى اللغة :

توسع العرب فى ألفاظ الأمثال بصورة لم تعهد عنهم فى سائر كلامهم ، فكانوا يتجاوزون

فيها فى بعض الأحيان قواعد اللغة ، وأصول اشتقاقها ، ويتحررون من بعض قوانينها . ومرد ذلك فى تقديرى إلى أنهم كانوا يتطلبون فى الأمثال نسقا تعبيريا معينا ، ومن أجل أن يستقيم لهم ذلك النسق كانوا يطوعون مفردات اللغة ولايبالون بما يقع منهم فى سبيل ذلك من تجاوز للمألوف من الأساليب والشائع من اشتقاق الكلمات . بل لقد حكى عن بعض علماء اللغة أن الأمثال يتجاوز فيها عن مخالفات الأصول اللغوية بمثل ما يتجاوز للشعراء فى ضرورات الشعر ، روى السيوطى فى المزهر عن المرزوقى قال :

« المثل جُمَيْلَةٌ من القول مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه الى كل ما يصلح قصده بها من غير تغيير يلحقها فى لفظها ، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني ، واستجيز من الحذف ، ومضارع ضرورات الشعر فيها ما لايستجاز فى سائر الكلام » (المزهر ١ // ٢٨٩) .

وقال المرزوقى أيضا : **« من شرط المثل أن لايغير عما يقع فى الأصل عليه ، ألا ترى أن قولهم : « أعطِ القَوْسَ بآريهاً » تسكن ياؤه وإن كان التحريك الأصل ، لوقوع المثل فى الأصل على ذلك »** (المزهر ١ / ٢٨٩) .

وقال أبو عبيد فى المثل : **« أجْنَاؤُهَا أبْنَاؤُهَا »** : أى الذين جنوا على هذا الدار بالهدم هم الذين كانوا بنوها قال : وأنا أظن أن أصل المثل جناتها بناتها ، لأن فاعلا لايجمع على أفعال ، إلا أن يكون هذا من النوادر ، لأنه يجىء فى الأمثال ما لايجىء فى غيرها »

(المزهر ١ / ٢٨٩) .

ومن دلائل الاستخدام الغريب لألفاظ اللغة فى الأمثال قولهم :

« لاتَعِظِينى وَتَعَظْعظِى » (فصال المقال ٢٤٤)

فقد تركت كلمة « تَعَظْعظِى » فيه علماء اللغة حيارى فى الاهتداء إلى أصل اشتقاقه ووجه دلالتها على المعنى هنا فقد استخدم العرب مادة عظعظ فى قولهم عظعظ السهم بمعنى : التوى واعوج ، وقد فسر بعض الشراح تعظعظى فى المثل بمعنى : كفى وارتدعى وفسره آخرون بمعنى : اتعظى ، وحكى ابن منظور فى لسان العرب قال : قال الجوهرى وهذا الحرف جاء عنه هكذا فيما رواه أبو عبيد ، وأنا أظنه وتُعَظْعِظَى بضم التاء أى لايكن منك أمر بالصلاح وتفسدى أنت فى نفسك ، كما قال المتوكل الليثى :

لاتنــه عن خلــق وتــأتى مثلــه ... عــــار عليـــــك إذا فعلت عظيم

فيكون من عظمط السهم : إذا التوى واعوج . يقول كيف تأمريسى بالاستقامة وأنت تتعوجين . قال ابن برى : الذى رواه أبو عبيد هو الصحيح ، لأنه قد روى المثل « تَعَظْعَظى ثُمّ عِظِى » وهذا يدل على صحه قوله .

وقال صاحب فصل المقال فى تعليقه على المثل : قال أبو محمد (سلمة بن عاصم) : انما يكون التضعيف اذا كان آخره مشددا مثل حَثٌّ . يقال منه حثحث وكذلك رقّ يقال منه : رقرق . قال : ولا أعلم لتعظعظى مثلا . قال : صاحب فصل المقال : وقد وجدت أنا حروفا مثله منها قولهم : فمطمطوا به من قولهم عيط عيط ، ومنها قوله .

ومستعجب ممـا يرى من أنـاتنـا ولـو زبنتـه الحرب لم يترمرم

أى لم يتحرك من قولهم لم يرم .

وهكذا نرى علماء اللغة يجهدون قرائهم فى معرفة أصل هذه الكلمة وطبيعة اشتقاقها وما أحسب أن العربى الذى أرسل هذا المثل قد راعى فى استخدامه لتلك الكلمة طبيعة دلالتها فى أصل اللغة وإنما قصد إلى إحداث المشاكلة اللفظية بين قوله «« تعظينى » فلم يحصل له ذلك إلا بقوله « **تعظعظى** » فأرسلها كيفما اتفق[1] .

وهناك مما يشبه ذلك فى الأمثال الشوء الكثير الغريب فى اشتقاقه أو فى دلالته معناه المراد . وأرجح أن من هذا القبيل المثل الآخر .

« لأشْأَنَنَّ شَأْنَهُمْ » (الميدانى ٣ / ١٢٠)

فقد فسره الميدانى بقوله : أرى لأفسدن أمرهم ، والشأن : ملتقى القبائل من الرأس ، ومعناه لأصيبن ذلك الموضع منهم ، كما تقول رأسته إذا أصبت رأسه ، وهذا لفظ يتضمن الوعيد .

وفسره الزمخشرى بقوله : « **أى لأقصدن قصدهم يقال شأنت شأنه وصمدت صمده يقوله المتوعد** » (المستقصى ٣ / ٢٣٧) .

---

(١) ومما يؤكد ذلك ما ذكره الزبيدى فى تاج العروس ٥ / ٢٥٤ ردا على ما قاله الجوهرى قال نقلا عن الهروى قول الجوهرى على مافسره خطأ لأن تعظعظى المضموم التاء على ما ظنه وفسره خبر يلزمه النون كما قال : أنت تتعوجين فحذف النون لما كان خبراً وإنما النون محذوفة من تعظعظ المفتوحة التاء لأنه أمر ومعناه كفى وارتدعى عن وعظك إياى ثم قال الزبيدى ومنهم من جعل تعظعظى بمعنى اتعظى أنت فهو أمر من الوعظ . وهذا القول شاذ لأن العرب إنما تفعل ذلك فى المضاعف فتبدل من أحد الحرفين كراهية لاجتماعهم ولو كان تعظعظى من الوعظ لقيل توعظى

وقال أبو عبيد البكرى فى تعليقه على المثل معناه لأخبرن أمرهم هكذا قال أبو على وقال ابن الأعرابى وما شأنت شأنه معناه ما عرفت به ولا أردته وقال الخليل « الشأن الخطب وجمعه الشئون » (فصل المقال ٢٨٤)

ونقل صاحب لسان العرب عن التهذيب قال أتانى فلان وما شأنت شأنه وما مأنت مأنه ولا انتبلت نبله أى لم أكترث به ولا عبأت به .

وحسبنا ما قدمناه دليلا على غرابة الاشتقاق فى بعض الأمثال وإرسال العرب لها على عواهنها فى عفويّة دون تعمل أو انتخاب لألفاظها ، وربما كانوا يعمدون فيها إلى هذه المخالفات على سبيل التمليح أحيانا أو على سبيل المشاكلة اللفظية أحيانا أخرى مما يؤكد ظاهرة تطويع اللغة لمقتضيات الأداء التعبيرى وربما تعود تلك الظاهرة إلى أن الأمثال كانت تصدر فى بعض الأحيان عن أناس من عامة القوم ودهمائهم وهؤلاء لم يكونوا على مستوى راق من الفصاحة ونحن لانستطيع أن نزعم أن العرب جميعا كانوا على درجة واحدة من إصابة القول وسلامة البيان . ولاريب أن الدراسة اللغوية المستوعبة للأمثال يمكن أن تكشف كثيرا من أسرار العربية وطبيعة تأليف العرب لكلامهم وتوسعهم فى التعبير عن خواطرهم وظواهر حياتهم .

الأمثال وغريب اللغة :

تشتمل بعض الأمثال على مفردات لغوية غريبة ، وتعد من هذا الجانب سجلا لاستخدامات لغوية نادرة ، وكثيرا ما تفيدنا الأمثال فى مجال الاستخدام اللغوى للكلمات المعجمية التى تجاوزها الناطقون بالعربية فى أطوار التحول الحضارى الذى عاشته لغتهم فى أحقاب متتابعة .

ففى أمثالهم التى تعد الآن غريبة بالإضافة لعصرنا قولهم :

« تَرَكْتُهُ مُخْرَنْبِئاً لِيَنْباق » (الميدانى ١ / ٢٤٦)

أى تركته مطرقا يضمر الشر فى نفسه ليثب على خصومه[1] . وألفاظه غريبة مألوفة ومثله قولهم .

---

(١) ذكر أبو زيد فى النوادر روايتين لهذا المثل إحداهما « مخرنبق لينباع » والأخرى « مخرنبق لينباق » وهما بخلاف ما رواه الميدانى والزمخشرى .

« ثأداءُ وَجْهٍ شَاقَهُ التَّرْغِيسُ » (الميداني ١ / ٢٧١)

الثأداء . الأمة . والشوف : الجلاء . والترغيس : تكثير المال . يقال رغّس الله فلان فلان إذا بارك له فيه ، وأراد « وجه ثأداء » فقلب ومعنى المثل : وجه قبيح عطى قبحه كثرة ماله ويساره . وغرابة ألفاظه بيّنة

وقريب من هذا المثل وإن كان بعكس معناه قولهم

« تَهْيِيفُ بَطْنٍ شَيَّنَ الدَّرِيسُ » (الميداني ١ / ٢٤٨)

والتهييف : التضمير يقال : رجل أهيف إذا كان ضامر البطن . وذلك محمود .

والتشيين : من الشين وهو العيب . والدريس : الثوب البالي .

يضرب لمن له فضل وبراعة يسترهما سوء حاله .

وفي المثل الآخر

« اذا ارجعَنَّ شاصيا فارفع يدا » (الميداني ١ / ٢٢)

ارجعن : مال ويروى ارجحن (بالحاء) بمعنى سقط . شاصيا : مرتفعا .

ومعناه : اذا سقط الرجل وارتفعت رجله فاكفف عنه . يريدون : اذا خضع لك فكف عنه .

وفي أمثالهم أيضا :

« اللهم هَوْراً لاأَياً » (الميداني ٣ / ١٥٠)

والهور : الاتهام . والأى : الحنين والرقة . والمعنى اجعلني اللهم ممن يظن به الخير واليسار ، لاممن يرحم ويرثى لحاله .

الأمثال والإتباع والمزاوجة :

من ظواهر اللغة العربية التي تحدث عنها فقهاؤها ولها حضور بارز في الأمثال القديمة - الإتباع والمزاوجة .

وقد عرف ابن فارس الإتباع بقوله : « هو أن تُتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويها

إشباعا وتأكيدا ، مثل قولهم : ساغب لاغب ، وخراب يباب[1] . والمراوجة كما يفهم من أقوالهم : أن تتفق الكلمتان المتواليتان فى الروى وتختلفا فى المعنى مثل أسوان أتوان » فأسوان من قولهم : أسى الرجل يأسى أسى إذا حزن ، ورجل أسيان وأسوان أى حزين وأتوان من قولهم : أتوته آتوه ، بمعنى أتيته آتيه وهى لغة لهذيل .. فمعنى قولهم أسوان أتوان : حزين متردد يذهب ويجيء من شدة الحزن[2] . وهذه الظاهرة لها شواهد كثيرة حكاها علماء اللغة مثل : غنىّ ملىّ ، وقسيم وسيم ، وعطشان نطشان ، وجائع نائع . وحسن بسن ، وروى ابن فارس أن بعض العرب سئل عن الإتباع فقال : « هو الشىء نتد به كلاما » أى نثبته ونؤكده .

وهذه الظاهرة كثيرة فى الأمثال وكثرتها تدل على رغبة الناطق بالمثل أن يؤكد عبارته ويلفت السامعين إليها ويجعلها أعلق بأسماعهم وأيسر على الحفظ .

والغالب على هذا اللون من الأمثال أن تكون عبارته منفية ، وقد تكون مبدوءة « بما » النافية أو « لا » وغالبا ما يكون النفى فيها مكررا مثل « **ماله هابل ولاآبل** » ، أو « **ماعنده خير ولامير** » ، وكذلك الحال مع النفى بلا فيقولون مثلا : « **لا فى العير ولا فى النفير** » أو « **لا أصل له ولا فصل** » وسأورد بعضا من الأمثال التى فيها إتباع أو مزاوجة لتتضح للقارىء طبيعتها من ذلك قولهم .

(الميدانى ٣ ٢٢٩)

« ما أدرى أغار أم مار »

يقال « غار » : أى أتى الغور ومار « أنجد ، أى أتى نجدا أى مكاناً مرتفعا ومعنى المثل : نفى العلم بموضع أو وجهة المخبر عنه نفيا مؤكداً .

(الميدانى ٣ ٣)

« ما لَهُ هَابِلٌ ولا آبِلٌ »

الهابل : المحتال ، والآبل : الحسن الرعية . ويضرب لما لايكون له أحد يهتم بشأنه

ويقولون فى وصف الانسان الحقير الشأن :

(الميدانى ٣ ٢٨٢)

« ما عِنْدَه خَيْرٌ ولا مَيْرٌ »

الخير : كل ما رُزِقَهُ الناس من متاع الدنيا . والمير : ما جُلب إلى بلادهم من جهات أخرى ومعنى المثل ما عنده خير عاجل ولا يرجى منه أن يأتى بخير .

---

(١) الصاحبى ص ٤٥٨

(٢) أمالى القالى ج ٢ ص ٨ ٢

وقريب من معناه المثل الآخر

« ما عِندَه طائِل ولا نائل » (الميدانى ٣ / ٢٨٣)

الطائل : من الطول وهو الفضل ، والنائل : من النوال وهو العطية ، والمعنى ما عنده فضل ولا جود .

ويقولون :

« ما لَهُ جُول ولا مَعْقُول » (الميدانى ٣ / ٢٩٥)

الجُول : عرض البئر من أسفله إلى أعلاه ، فإذا صلب لم يحتج إلى طىّ ، والمعقول : العقل . ومعنى المثل : ماله عزيمة قوية كجول البئر الذى يؤمن من انهياره لصلابته ، ولاعقل يمعنه ويكفه عما لايليق بأمثاله .

ويقولون :

« ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ » (الميدانى ٣ / ٢٢٥)

السبد : الشعر ، واللبد : الصوف .

ويقولون :

« ما له حَانَّةٌ ولا آنَّةٌ » (الميدانى ٣ / ٢٢٥)

أى ما له ناقة ولا شاة .

ويقولون :

« ما يَعْرِف فلان الحَوَّ من اللَّوِّ » (الميدانى ٣ / ٢٥٤)

أى لايعرف الكلام الذى يفهم من الذى لا يفهم .

وما يسير على هذا النمط كثير جدا فى الأمثال وهو مظهر لاهتمام الناطقين بالعربية بالتجانس بين عباراتهم خصوصا تلك التى يراد لها السيرورة ، وتتعاورها الألسنة فى مناسباتها ، وهى مزيج من التأكيد وتوازن الجملة وتوشية العبارة ، كما أنها تحمل فى كثير من الأحيان طابع السخرية والمبالغة فى تصوير المعنى كقولهم :

« ما له هارِبٌ ولا قارِبٌ » (الميدانى ٣ / ٢٥٤)

والهارب : الصادر عن الماء . والقارب : طالب الماء ليلا كما حكى عن الخليل ومعناه : ماله صادر عن الماء ولا وارد فكأنه نفى عنه كل شىء ذى قيمة .

والإتباع والمزاوجة كثيران فى الأمثال وكثرتهما تدل على خاصية لغوية لصيقة بالأمثال وهى توقيعها على نظام صوتى معين ، يساعد على جعلها خفيفة على الأسماع ، وبالتالى تحصل الغاية المقصودة منها وهى السيرورة والانتشار ، وترديد الناس لها فى مناسباتها

فاذا كان الشاعر ينظم كلامه فى إطار نغمى موسيقى فإن المتكلم بالحكمة الصائبه أو الكلمة المأثورة ذات المغزى المؤثر والدلالة العميقة قد حرص على إرسالها فى عبارة موقّعه وان اختلف نمط إيقاعها عن نمط الشعر ففيها من التجانس الصوتى ما يكفل لها الرسوخ فى الأفهام وإيناس العقول .

الأمثال والشعر :

ومن خصائص التركيبة اللغوية للأمثال الميل إلى تحقيق النغم الوزنى الذى يتفق فى كثير من الأحيان مع بحور الشعر العربى المأثورة وأكثر الأوزان الشعرية التى وردت عليها الأمثال بحر الرجز ، فهل المثل الذى من هذا النوع بيت أو مصراع شعرى فى الأصل أو أنه وضع على هذه الصورة ولا علاقة له بالشعر سوى مجيئه على أحد أوزانه ؟ الحقيقة أن الجواب على هذا التساؤل ليس بالأمر اليسير فهناك كثير من الأمثال مأخوذة من الشعر وتمثل بيتا أو جزءا من بيت وقد حرص شارحو الأمثال على ذكر الشعر الذى منه المثل وأكثر من اهتم من جامعى الأمثال بهذا الجانب الزمخشرى فى المستقصى . ولكن هناك من الأمثال التى تبدو عباراتها موزونة ما يصعب إرجاعه إلى أصل شعرى معروف ، وهذا النوع من الأمثال الموزونة لم يشر شراح الأمثال فى كثير منها إلى أصلها الشعرى ، وقد أحصيت عدداً ليس بالقليل منه الأمثال التالية :

« أجاءَهُ الخَوْفُ إلى شَرٍّ شمر » (الميدانى ١ / ٣٩٠)

ومعناه : ألجأه الخوف الى شر شديد . ولو تأملنا إيقاعه لوجدناه من بحر الرجز .

« أَرْخَتْ مَشَافِرها للعَسِّ والحَلَبِ » (الميدانى ٣ / ٣٤)

وهو من وزن البسيط .

« أُرَيْنِبٌ مُقْرَنْفِطَةٌ على سَوَاء عُرْفُطَةْ » (الميدانى ٢ / ٦٠)

يمثل بيتا من مجزوء الرجز .

« أُريدُ حياته ويريد قاتلى » (الميدانى ٢ / ٥٧)

شطر بيت من الوافر

« اِسْتَاهِلِى إِهالتى وأَحْسِنِى إِيالَتِى » (الميدانى ١ / ٨٨)

من الرجز .

« أعْزُ الحديثَ للخطيب الأوّلِ» (الميدانى ٢ / ٣٦٨)

من الرجز أيضا .

« إن لا أكن صِنْعاً فإنّى أعْتَشِم » (الميدانى ١ / ١٠٣)

من الرجز أيضا .

والتداخل بين الشعر والأمثال لايقف عند هذا الحد بل يتجاوز ذلك إلى تضمين الشعراء للأمثال فى مرحلة تالية لشيوع المثل واشتهار دلالته بين الناس فيكون تضمين الشاعر لعبارة المثل رمزاً للمعنى الذى يستفاد من فحواه . وهذا كثير جدا فى التراث العربى شعرا ونثرا وليس من المستطاع حصر الأشعار التى ضمنها قائلوها عبارات أو معانٍ مشهورة .

فالتقارب اذا بين الأمثال والشعر قائم واستفادة كل منهما من الجنس الآخر لايقف عند حد .

ومن الضرب الأول الذى يشيع فيه البيت أو الشطر الشعرى ويغدو مثلا مضروبا قولهم :

« عند الصباح يحمد القوم السرى » (المستقصى ٢ / ١٦٨)

فهو مروى فى أرجوزة منسوبة الى الجليج منها :

انى اذا الجبس على الكور اثنى   لو سئل الماء فداء لافتدى
وقال كم تعبت قلت قد أرى   عند الصباح يحمد القوم السرى
وتنجلى عنه عمايات الكرى

هذه رواية الزمخشرى فى المستقصى .

وحكى الميدانى فى مجمع الأمثال أن أول من قال ذلك هو خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه وهو باليمامة أن سر إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائى : قد سلكتها فى الجاهلية وهى خمس للإبل الواردة ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء ، فاشترى مائة شارف فعطشها ثم سقاها الماء حتى رويت ثم كتبها وكعم أفواهها ثم سلك المفازة حتى إذا مضى يومان ، وخاف العطش على الناس والخيل وخشى أن يذهب ما فى بطون الإبل نحر الإبل واستخرج ما فى بطونها من الماء ، فسقى الناس

والخيل ومضى ، فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظروا هل ترون سدْراً عظاما فان رأيتموها وإلا فهو الهلاك فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ، ثم هجموا على الماء فقال خالد :

لله در رافع أنى اهتدى — فوّز من قراقر الى سوى
خمسا اذا سار به الجيش بكى — ما سارها من قبله إنس يرى
عند الصباح يحمد القوم السرى — وتنجلى عنهم غيابات الكرى

وفى قصة المثل :

« عند جهينة الخبر اليقين » (الميدانى ٢ / ٣١٩)

يتضح أنه ورد فى الأصل ضمن شعر قاله الأخنس بن كعب الجهنى وكان قتل الحصين ابن عمرو الكلبى وجعلت أمرأة القتيل تبكيه وتسأل عنه فقا الأخنس :

وكم من ضيغم ورد هموس — أبى شبلين مسكنه العرين
علوت بياض مفرقة بعضب — فأضحى فى الفلاة له سكون
وأضحت عرسه ولها عليه — بعيد هدوء ليلتها رنين
وكم من فارس لاتزدريه — إذا شخصت لموقعه العيون
كصخرة إذ تسائل فى مراح — وأنمار وعلمهما ظنون
تُسائل عن حصين كل ركب — وعند جهينة الخبر اليقين
فمن يك سائلا عنه فعندى — لصاحبه البيان المستبين
جهينة معشرى وهم ملوك — إذا طلبوا المعالى لم يهونوا

والمثل :

« لايذهب العرف بين الله والناس » (المستقصى ٢ / ٢٦٨)

من قول الحطيئة :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه — لايذهب العرف بين الله والناس

والمثل :

« لاتظعنى فتهيجى القوم للظعن » (المستقصى ٢ / ٢٥٥)

من قول الشاعر

يـــاربـــة العير رديـــه لمرتعـــه — لاتظعنى فتهيجى القـــوم للظعن

ويضرب لمن يفعل فعل سوء فيتبعه غيره .

ومن النوع الآخر الذى التفت فيه الشعراء إلى الأمثال واستوحوا معانيها وضمنوها أشعارهم، شواهد كثيرة مبثوثة فى الشعر ، قديمه وحديثه منها على سبيل المثال تضمين جماعة من الشعراء لمعنى المثل :

« كالثور يضرب لما عافت البقر » (المستقصى ٢ / ٢٠٤)

منهم أنس بن مدركة الخثعى فى قوله :

إنى وقتلى سليكـــا ثم أعقلـــه — كـالثـور يضرب لمـا عـافت البقر

ومنهم عوف بن الخرع فى قوله :

هجـونى أن هجـوت جبـال سلمى — كضرب الثـــور للبقر الظمــــاء

ومنهم نهشل بن حرى فى قوله :

أتترك عـــارض وبنـــو عـــدى — وتغـــرم دارم وهـــم بـــراء
كـــذاك الثـــور يضرب بـــالهراوى — إذا مـــا عـــافت البقر الظمـــاء

وقال الهيبان الفقيمى :

كما ضُرب اليعسوب أنْ عاف بـاقر — ومـا ذنبـه إن عـافت المـاء بـاقر

والمثل :

« اسق اخاك النمرى يصطبح » (المستقصى ١ / ١٧٠)

له قصة خلاصتها أن كعب بن مامة الايادى خرج فى ركب من إياد وربيعة حتى اذا كانوا بالدهناء فى حمارة القيظ عطشوا ومعهم شىء من ماء قليل انما يشربونه بالحصى فيقتسمونه فشرب كل إنسان منهم بقدر تلك الحصاة فشرب القوم حصتهم فلما أخذ « كعب » الإناء ليشرب نظر إليه شمر بن مالك النمرى فلما رآه كعب ينظر اليه ظن أنه عطشان فقال للساقى : اسق أخاك النمرى يصطبح فذهبت مثلا وفعل فى اليوم الثانى كذلك حتى وردوا الماء وقد أشرف كعب على الموت من فرط العطش فقالوا له : رد كعب إنك وراد فعجز عن الجواب ومات بعد قليل فضرب العرب به المثل فى الجود فقالوا « أجود من كعب بن مامة »

وقال أبوه يرثيه :

أوفى على الماء كعب ثم قليل لـه ... رد كعب إنـــك وراد فمـــا وردا

ما كان من سوقه أسقى على ظمـأ ... خمرا بمـاء إذا نـاجـودهـا بردا

من ابن مـامـة كعب ثم عى بـه ... زو المنيـــة إلا حرة وَقُـــدَى

أى لم تهتد المنية إلى قتله إلا بالعطش

وقال الفرزدق يذكر قصته .

وكنا كأصحاب ابن مـامـة إذ سقى ... أخا النمر العطشـان يوم الضجـاعم

إذا قال كعب هل رويت ابن قاسط ... يقــول لــه زدنى بـلال الحـلاقم

وكنت ككعب غير أن منيتى ... تـأخر عنى يـومهـا بـالأخـارم

وجملة القول أن الأمثال جنس أدبى عريق فى تراث العرب شديد الارتباط بفنونهم القولية الأخرى ومن أبرزها الشعر ، ولعله قد اتضح من هذه الوقفة التى ألمحت فيها الى علاقة الأمثال بالشعر - أهمية دراسة الأمثال بحسبانها رافدا أصيلا من روافد البيان العربى المؤثر عند القدماء وعند المحدثين أيضا وان اختلفت جهة التأثر ومقداره .

الباب الثانى

القيمة الأدبية للأمثال

الفصل الأول : بلاغة الأمثال وبراعة صياغتها .

الفصل الثانى : الأمثال وفنون القصص عند العرب .

الفصل الثالث : الأمثال والخرافة .

تمهيـد :

لاشك أن جانباً كبيراً من الأمثال تعد قطعاً أدبية بديعة إذ تحفل على إيجازها - بشتى الخصائص الفنية للأسلوب الأدبى فى تراثنا القديم ، وهى ما استقى منه العلماء منذ قرون خلت أصول البلاغة العربية وقوانينها ، غير أن تلك الأمثال بتكرار ترديدها ودورانها على الألسنة تفقد جانباً من سحرها وروعتها ، لأن النفس الإنسانية تطرب دوما للجديد ، وتبحث عن الطارف غير المألوف . والقارىء الذى يطالع الأمثال القديمة وبخاصة غير المشهور منها للمرة الأولى يأخذه العجب من جمال تركيبها وبراعة حبكها .

وسأحاول فى هذا الباب أن أشير إلى ضروب الإبداع الأدبى فى الأمثال القديمة ، مع الإشارة إلى ظواهرها الأسلوبية ، والرموز فى دلالاتها ، والقصة فى الأدب العربى على ضوء ما ورد فى الأمثال ، وفى الفصل الأخير سأعرض لموضوع الخرافة فى الأدب العربى على ضوء الأمثال . وكلها كما يتضح للقارىء قضايا على جانب كبير من الأهمية لجدتها من ناحية ، ولأنها تكشف للقراء والباحثين حقائق غفل الكثيرون عنها ، وتزيل عن العقول كثيراً من الغشاوات التى تسببت فى تراكمها الأحكام المتسرعة والافتراءات المستشرية حول تراثنا القديم .

الفصل الأول

بلاغة الأمثال وبراعة صياغتها

للأمثال العربية القديمة قيمة أدبية لا تنفصل فى الغالب عن قيمتها المعنوية وقد كانت خصائصها التعبيرية من أهم ما لفت أنظار العلماء الأقدمين إليها ، وجعلهم يولونها عنايتهم على أساس أنها معرض لبراعة العرب وحسن بيانهم ، وبلوغهم الغاية فى الفصاحة ، ورسوخ قدمهم فى اللسن وفطنتهم بأساليب القول ومناحى الايحاء الدال والتلويح للمراد دون التصريح به . وقد أشار أبو عبيد القاسم بن سلام إلى ذلك بقوله عن الأمثال : هى حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها[1] ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجتها فى المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه .

(المزهر ١ / ٢٨٨)

ويقول الزمخشرى فى افتتاحية كتابه المستقصى عن الأمثال العربية القديمة « .... ، ثم هى قصارى فصاحة العرب العرباء ، وجوامع كلمها ، ونوادر حكمها ، وبيضة منطقها ، وزبدة حوارها ، وبلاغتها التى أعربت بها عن القرائح السليمة ، والرَّكن البديع إلى ذرابة اللسان وغرابة اللسن ، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى ، وقصرت العبارة فأطالت المغزى ، ولوحت فأغرقت فى التصريح ، وكنت فأغنت عن الإيضاح »[2]

والحق أن الأمثال القديمة يصدق على معظمها هذا النعت ، وتتحقق فيها تلك الميزات ولا نستطيع أن نزعم أنها كلها على درجة سواء فى البلاغة وروعة الأسلوب ، بل إن درجاتها فى ذلك متفاوتة : منها ما هو بالغ الغاية فى حسن الصياغة وروعة التعبير ، ومنها ما هو جيد فى صياغته بارع فى تأديته لمعناه ، ومنها ما هو دون ذلك فى رتبته البيانية والسبب

(١) تعارض كلا مهم : بمعنى الكلام الذى يحتمل معنيين ومنه إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب

(٢) ج ، ص ج

فى تلك التفاوت هو أن الأمثال جُمعت على أساس الحصر والتبويب وليس على أساس الانتخاب والاختيار ، فاختلط فيها الغث بالسمين ، وتجاور الدر والبعر ، وهذا التفاوت كما هو حاصل فى الصياغة والأسلوب حاصل كذلك فى المضمون والفكرة التى ينطوى عليها المثل ، فلو أن الأمثال القديمة عوملت من قبل الشراح والرواة معاملة القطع الشعرية لجاءت على نسق أبدع مما هى عليه الآن ولحصلت الاستفادة منها بصورة أعم ، ولكنها عوملت معاملة النصوص اللغوية ، فرتبها العلماء على حروف المعجم ، وجمعوا فيها كل ما وقع لهم مما رووه عن العرب .

وواجبنا نحن فى دراساتنا الحديثة أن نراعى فى الأمثال أسلوب الاختيار ؛ فننتقى منه ما يسمو فى عبارته ويرتفع فى فكرته ، تماماً كما فعل الأقدمون بالشعر الجاهلى والإسلامى ، عندما وضعوا كتب الاختيارات الشعرية المشهورة .

وسأوجز للقارىء - فى الصفحات التالية - معالم البراعة فى صياغة الأمثال القديمة ومناط بلاغتها .

التعبير بالصــورة :

من أبرز ما تتميز به الأمثال القديمة أن معظمها يعتمد على التعبير بالصورة ، فقلما نجد فيها العرض المباشر للفكرة أو إلقاء المعنى غفلا من العبارة البليغة .

ومن ثم تكتسب الأمثال قيمة أدبية بحسبانها قطعا فنية يتضح من خلالها جمال التعبير وروعة الأداء ، وحسن تصوير المعنى ، ولهذه الخواص الأسلوبية أهمية فى التأثير على المتلقى ، بل لعلنا لا نعدو الصواب إذا حكمنا بأن هذه المزايا الأسلوبية كانت من أهم ما حفظ الأمثال وجعل العقول تعيها والألسنة ترددها على مر العصور .

وعندما نتأمل عبارة المثل :

« كالحادى وليس له بَعِير »

(الميدانى ٣ / ٢٢)

وهو يضرب لمن يدعُى ما ليس عنده - فإننا نلمس ذلك التشبيه الطريف الذى يعرض المعنى فى صورة حسية مؤثرة والمقصود من المثل إحتقار الأدعياء والسخرية من صنيعهم . وقد أسهمت الصورة التى صيغ فيها المثل فى تأدية هذا المعنى ، وعلينا أن نُدخل فى

الحسبان ظروف البيئة التى قيل فيها هذا المثل ، وهكذا فى الأمثال التى ترتبط بأشياء لها وجود فى واقع حياة قائليها .

وإذا تأملنا المثل الآخر :

« وَعِيدُ الحُبارى الصَّقْرَ »

(المستقصى ٢ / ٣٧٥)

وجدنا تشبيها طريفا وتصويراً موحيا بالفكرة المراد تقريرها وهى تهديد الشخص الضعيف لمن هو أقوى منه وأشد .

وفى المثل :

« القَطْرَةُ بَدوامِها تَحْتَفِرُ الصَّخر »

(المستقصى ١ / ٣٣٩)

نجد المعنى معروضاً من خلال صورة وهذه الصورة أدعى إلى الإقناع بالفكرة التى يساق المثل لتأكيدها وهى تأثير الشيىء القليل إذا طال وامتد .

ويشبه ذلك المثل الآخر :

« استَمْسِكْ فإنكَ مَعْدُوٌّ بِكَ »

(المستقصى ١ / ١٥٨)

فالمراد به التحذير من التعرض للمخاطر ولاشك أن من يركب دابة تعدو به يكون أدعى إلى أن يستمسك بها بل إنه يفعل ذلك تلقائياً خشية أن تطرحه أرضاً ، فكأنَّ المتكلم بهذا المثل أراد أن يقرر هذا المعنى فى نفس سامعه فصوَّر حاله بحال المعْدُوِّ به

وفى قولهم

« حَيَّاكَ مَنْ خَلاَ فُوه »

(الميدانى ١ / ٣٤٢)

صورة طريفة أيضاً للمعنى المراد ، والمثل يضربه المشتغل عن الاهتمام بشأن غيره . فقد صور له شغله عنه ، وانصرافه بشأن نفسه بمن امتلأ فمه بالطعام ، فهو لا يقدر على أداء

الضحية لو ومعا ، وفيه إيحاء إلى المراد من بعيد بواسطة الرمز وكأنه يقول لصاحبه إنى عنك مشغول .

وهكذا يجد المتفرس للأمثال أنه بين صياغة فنية بديعة ، وتعبيرات ذات إيحاء قوى بالمعانى المعبَّر بها عنها . وليتأمل القارىء هذه الطائفة من الأمثال ليرى قيمة التعبير فيها بالصورة وهى لا تحتاج إلى تعليق فقط تحتاج إلى تأمل وإنعام نظر .

قالوا :

« عَيْرٌ رَكَضَتْهُ أُمُّهُ »

(الميدانى ٢ ٣٣٦)

يضرب لمن يظلمه ناصره . والمثل يصور حالة من تعرض للأذى والظلم من أقرب الناس إليه وأولاهم بنصرته بالعير الذى ركلته أمه ، فهو من قبيل تصوير حالة بحالة وعرض المعنى المجرد من خلال صورة محسة . وقالوا فى قريب من ذلك .

« عير عاره وتده »

(الميدانى ٢ ٣٣٦)

وهو يضرب لمن أهلكه ما احترس له به ، وعاره أى : أهلكه وذهب به . قالوا وأصله أن رجلا أشفق على حماره فربطه إلى وتد ، فهجم عليه السبع فلم يمكنه الفرار .

وقالـــوا :

« فى القمر ضياء والشمسُ أَضْوَأُ منه »

(الميدانى ٢ ٤٥)

يضرب فى تفضيل أحد الشيئين على الآخر .

وقالـــوا :

« شُخْبٌ فى الإِنَاء وشُخْبٌ فى الأَرْضِ »

(الميدانى ٥٠)

يضرب لمن يصيب مرة ويخطىء مرة .

وقالـوا :

« ألفُ مُجِيزٍ ولا غَوّاص »

(الميدانى ١ / ١٠٠)

يضرب لأمرين أحدهما سهل والآخر صعب جداً .

وقالوا :

« من استرعى الذّئب ظَلَم »

(الميدانى ٣ / ٣١٤)

يضرب لمن يُولّى غير المُؤتمن .

وقالـوا :

« يا عاقِدُ اذكر حَلاً »

(الميدانى ٣ / ٣١٣)

يضرب للنظر فى العواقب .

وقالـوا :

« تَضَرَّعْ إلى الطبيب قبل أن تَمْرَضَ » .

(الميدانى ١ / ٢٥٦

يضرب فى التوصية بالتقرب من الإخوان قبل الحاجة إليهم .

تجسيـم المعانـى :

وهى خاصية من خصائص الأمثال القديمة تقرب المعنى وتعرضه فى صورة محسة ليكون أوقع فى النفس وأكثر إقناعاً . ومن ذلك قولهم :

« ألَذُّ مِنَ الأَمْنِ »

(المستقصى ٣٢

فقد صَوَّرَ الأمن وهو أمر يدرك بالعقل بشىء مادى محس ذى مذاق طيب .

وقالوا فى قريب من ذلك :

« ألذُّ من الغنيمة الباردة »

(المستقصى ١ / ٣٢١)

وهى الغنيمة التى يصيبها القوم دون قتال أو صدام . فيكون وقعها على نفوسهم طيباً لأنهم لم يتعبوا فى تحصيلها .

وقالـوا :

« قَيَّدَ الإيمانُ الفَتْكَ »

(الميدانى ٢ / ٥٠١)

فقد صور الإيمان والفتك وهما أمران معقولان بأشياء مادية يقيّد أحدهما الآخر على سبيل التجسيم ، لتقرير المعنى وتقويته . وهذا المثل من كلام الرسول ﷺ كما ذكر الميدانى ومعناه أن الإيمان حرّم على المؤمن الغيلة وهى القتل مفاجأة وعن مكر .

وقريب من معنى المثل وصورته قولهم :

« جَدَعَ الحلالُ أنفَ الغَيْرة »

(الميدانى ١ / ٢٩٠)

وهو من أقوال الرسول ﷺ أيضاً قاله ليلة زفت فاطمة إلى على « رضى الله عنهما » وفى المثل تجسيم للحلال والغيرة كليهما .

وفى المثل :

« إنَّ العجز والتَّوانى تزاوجا فأنتجا الفقر »

(المستقصى ١ / ٤٠٧)

تجسيم للمعنى فى صور حسية .

التعبيـــر الساخـــر :

وهناك طائفة من الأمثال وردت فى إطار تهكمى ساخر ، وربما تكون الأمثال القديمة من بواكير تراثنا النثرى الذى اصطنع فيه العرب هذا الإطار فى التعبير عما يعن لهم من

أفكار ، وما يتوارد على فهومهم من خواطر ، ولعل استخدامهم لهذا النمط التعبيرى الساخر جاء رغبة منهم فى تعميق الإحساس بالفكرة أو الخاطر الذى يعبرون عنه ، ويشتد تأثيره فى نفوسهم . وأكثر – ما تكون الأمثال التى تعتمد على أسلوب السخرية – نابعة من رؤية ناقدة لبعض ظواهر الحياة التى تنطوى على سلوك شاذ أو مفارقات تبعث على الدهشة وتثير الحنق فى النفوس فلا يجد من يتأملها ويريد أن يكون تعبيره عنها صادقاً مؤثراً إلا أن يصطنع الإطار الساخر فى رسمها وتسجيل عدم استساغته لها . وما أكثر تلك الأوضاع المقلوبة التى يراها الناس فى حيواتهم قديماً وحديثاً دون أن يكون لها مبرر من العقل أو الشعور .

ويلعب الأسلوب الساخر فى تصوير تلك المواقف الشاذة أو المفارقات الغريبة دوراً فى الانتقاد اللاذع لها ومحاولة تغيرها . وهذا يسلمنا من ناحية أخرى إلى التنبيه إلى أن تراثنا العربى القديم ضم ألوانا من فنون التعبير عن المعانى والمضامين من النمط التقريرى والنمط القصصى والنمط الساخر منذ أقدم ما وصل إلينا من نصوصه ، وهذا دليل آخر على نضج اللغة العربية التى بين أيدينا واجتيازها مراحل كثيرة حتى وصلت إلى هذا المستوى من الدقّة فى التعبير والتنوع فى الاساليب والأنماط التعبيرية .

وقد تكون السخرية فى المثل موجهةً إلى سلوك معوج أو تصرف فيه إجحاف بحقوق الآخرين أو إلى تصرف غريب أو خلق ذميم ، وربما عرضت فى صورة ردّ لاذع أو تعليق ساخر يدل على ذكاء وحضور بديهة .

فمما يدل على السخرية من فعل مجحف قولهم :

(أ) « أحشفا وسُوءَ كِيلَةٍ »

(مجمع الأمثال = ١ / ٣٦٧)

والحشف : أردأ التمر . ومعنى المثل أتجمع رداءة التمر وسوء الكيل فالغبن إذا شامل للصفقة من شتى نواحيها . ويضرب لمن يجمع بين خصلتين مذمومتين .

وقولهم :

(ب) « أَكَسْفاً وإمْسَاكاً »

(المستقصى ١ / ٢٩٥)

والكسف : العبوس وتقطيب الوجه والإمساك البخل ومعناه أتجمع العبوس إلى البخل فكأنه أيضاً أساء من جانبين ولم يدع للإحسان موضعا

وقولهم :

(جـ) « أَغَيْرَةً وجُبْناً »

(المستقصى ١ / ٢٦٥)

ويذكرون في قصته أن امرأة من العرب قالته تعيّر به روجها ، وكان تخلّف عن قتال العدو ولبث في منزله ، فرأى امرأته تنظر إلى الفرسان فضربها فقالت : أغيرة وجبنا ؟

ومما يصور سلوكا غير مقبول ينطوى على مفارقة صارخة قولهم

ــ « تَنْهانا أُمُّنَا عن الغَيّ وتَغْدُو فيه »

(المستقصى ٢ / ٣٢)

وهو يضرب لمن يعظ الناس ولا يتعظ هو . وقد حكى أن المثل قاله إخوة كانت أمهم تجنّبهم الرّيب وهى مريبة .

وقالوا لمن يضع الشيىء فى غير موضعه :

ــ « مُقَنَّعٌ واستُهُ بادِيَةٌ »

(المستقصى ٢ ٣٤٦)

أى يستر وجهه ويبدى عورته التى هى أحق بالستر .

ومنها : « من مال جعد وجعد غير محمود » .

وكذلك المثل : « يحمل شَنٌّ ويُفَدّى لُكَيْز » وقد مرّا فى فصل سابق . وقالوا فى المسيء إلى من أحسن إليه .

ــ « أَحُشُّكَ وتَروثُنى »

(المستقصى ٦٧)

وهو فى الأصل خطاب للفرس أى أأعلفك وتروث على

وقالوا فى التعبير عن سوء الصيع

ـ « سَكَتَ أَلْفاً ونَطَقَ خَلْفاً »

(الميداني ٢ / ١)

وقالوا فى التعبير عن الدهشة من واقع غير معقول :

ـ « مُحْتَرَسٌ مِنْ مِثْله وهو حارس »

(الميداني ٢ / ٣٢١)

أى أن الناس يحترسون منه ومن مثله وهو حارس .

ومن الردود والتعليقات الساخرة وردت الأمثال التالية :

« بَطْنِي عَطْرِى وسائرى ذَرِى »

(الميداني ١ / ١٧١)

وقصته أن رجلاً نزل بقوم وكان جائعاً فأمروا جارية لهم بتطييبه فقال لها ذلك

وقالوا لمن يتودد إليك لمنفعة يريدها وحاجة يطلبها دون أن يكون مهتما بك :

« مَأَرَبَةٌ لا حَفَاوة »

(المستقصى ٢ / ٣٠٩)

وقالوا فى التعبير عن نفرتهم من المديح الكاذب والإطراء عن نفاق :

« دُون ذا ويَنْفَقُ الحمار »

(الميداني ١ / ٤٦٥)

وحكوا فى قصته : أن رجلاً أراد بيع حمار له ، فقال لِمُشَوِّرٍ : أَطْرِ حمارى ولك علىّ جُعْلٌ .[1] فلما دخل به السوق قال له المشوّر : هذا حمارك الذى كنت تصيد عليه الوحش فقال الرجل : دون ذا وينفق الحمار .

يريد اكتف بقول دون الذى تقول فما يحتاج نفاق الحمار ورواج سوقه إلى هذا الإيغال فى الكذب .

(١) المشوّر : الرجل الذى يركب الإبل والدواب عند العرض على المشترين . والجعل : العطية تجعل للشخص على عمله

وواضح من سياق هذه الأمثال مدى ما يضفى عليها أسلوبها التهكمى الساخر من قوة فى تأديتها لمعانيها وتعميق إحساس السامع والقارىء بما وراءها من دلالات وما ترمى إليه من توجيه وتقويم .

التعـــبير بالرمـــز :

من الميزات الأسلوبية للأمثال إعتمادها أسلوب الرمز لتأدية مضمونها المراد والذى أقصده من الرمز فى الأمثال هو معناه اللغوى العام دون معناه المذهبى الخاص فى اصطلاح نقاد الأدب المحدثين .

فالمثل يؤدى معناه فى كثير من الأحيان عن طريق الإيماء دون تصريح بالمعنى المراد وهذا النمط من الأداء التعبيرى يعد معرضاً لثراء اللغة ونباهة المتحدثين بها ويشكل عنصر من عناصر عطائها الفنى .

ومن الجلى أن هذا النمط الرمزى (أو الايحائى) فى أداء المعنى يفوق فى وقعه وتأثيره على نفوس السامعين أسلوب التقرير الذى يودى المعنى غفلا ، والسبب فى ارتفاع قيمة أسلوب التلويح والرمز أنه يعرض المضمون وزيادة تشبه فى كثير من الأحيان أن تكون دليلاً عملياً مقنعاً على صدق الفكرة التى تساق من خلال المثل وإذا أردنا أن نلمس الفارق بين النمطين فلنتأمل التمايز بين العبارتين التاليتين . وكلتاهما تعبران عن مضمون واحد فإذا أردنا التعبير عن حال إنسان تعرض لمكروه فأراد التخلص منه ولكنه وقع فى مكروه آخر قلنا لقد أراد فلان أن يتخلص من كرب فوقع فى أشد منه

إذا فعلنا ذلك فنحن نقرر حقيقة ما حصل ونحكيه بأسلوب تقريرى خالص . أما إذا عبّرنا عن قصته تلك بالمثل القديم :

« اضطرّه السيلُ إلى مَعْطَشَة »

(الميدانى ٢ / ٢٦٤)

ولو فعلنا ذلك للمسنا الفارق الكبير فى أداء المعنى في العبارتين ، فالعبارة الأولى التقريرية تؤدى المعنى مجردا من الإضافات التى أعطتها عبارة المثل التى تعرض المعنى فى قالب تصويرى مؤثّر ، إذ توحى بأن المتحَدَّث عنه قد هاله السيل فجدّ فى الرحيل نحو التلال البعيدة ، ولم يلبث أن أدرك بأنه قد وقع فريسة لخطر آخر هو الهلاك عطشا .

والتعبير بالرمز فى الأمثال متنوع الصور ، فقد يرمز المثل بحقيقة من الحقائق . لمعنى ما كما فى قولهم :

« إنَّكَ لا تَجنى من الشَّوْك العنب »

(فصل المقال ٣٠١)

فكون الشوك لا يجنى منه العنب حقيقة مقررة وليس المراد من المثل أداء هذه الحقيقة المجردة وإنما المقصود به أن الإنسان لا يحصد إلا نتاج ما زرعه وجد فى تثميره ، فإن كان قدّم الخير فسيكون جزاؤه خيراً وإن كان قدّم الشرّ فسيكون جزاؤه شراً .

ومن ذلك أيضاً المثل :

« الَخيلُ تَجْرِى على مَسَاويها »

(فصل المقال ١٣٩)

فهو يعبر عن حقيقة واقعة فى عالم الوجود وهى أن الخيل تتحامل على نفسها وتجرى على ما يكون بها من أذى أو مضرة - يحملها على ذلك أصالتها وكرم عنصرها - وليس المراد من التعبير بالمثل تقرير هذا المعنى بل المراد أن الأحرار من الناس يذودون عن حرماتهم مهما كانوا فيه من جهد أو اعتلال .

وكذلك المثل الآخر :

ـ « لا يُرسِل السَّاقَ إلا مُمْسِكاً ساقا »

(المستقصى ٢ / ٢٦٩)

فأصله فى وصف الحرباء ومن طبعه الذى جُبِل عليه أنه يُكَوِّر إحدى رجليه بغصن من الأغصان فلا يتركه حتى يمسك غصنا آخر حتى لا يسقط عن موضعه . وليس المراد من اطلاق عبارة المثل هذا المعنى الحقيقى للعبارة بل المراد تصوير الحرص والحذق لدى الإنسان الحذر الذى لا يفرغ من حاجة إلا طلب أخرى .

وكثيرا ما يكون الرمز فى الأمثال لمَعْنىً مستفاد من حادثة ذائعة أو حكاية مشهورة نحو قولهم :

ـ « جَزَاءُ سِنِمَّار »

(الميدانى ١ / ٢٨٣)

وقد حكى الميدانى فى قصته خبرين أحدهما أنه رجل رومى بنى الخورنق التى بظهر الكوفة للنعمان بن امرىء القيس ، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فخر ميتاً ، وإنما فعل ذلك لئلا يبنى مثله لغيره ، فضربت العرب به المثل لمن يُجزَى بالإحسان الاساءة ، قال الشاعر :

جـزتنـا بنـو سعـد بحسن فعـالنـا جـزاء سنمـار ومـا كـان ذا ذنب

والآخر أنه الذى بنى أُطَمَ[1] أحيحة بن الجلاح ، فلما فرغ منه قال له أحيحة : لقد أحكمته قال : إنّى لأعرف فيه حجرا لو نزع لتقوض من عند آخره ، فسأله عن الحجر فأراه موضعه ، فدفعه أحيحة من الأطم فخر ميتا .

أو المثل :

ــ « مالى ذنب إلا ذنب صحر »

(فصل المقال ٣٠٦)

وقصته أن لقمان بن عاد خانته امرأته فقتلها ، ولقيته ابنته صحر فقال : وأنت أيضا امرأة فلطمها لطمة ماتت منها فيما زعموا فقيل لكل من يساء إليه وهو برىء : ذنبه ذنب صحر ، أى لا ذنبه له .

ومثله المثل :

« يدَاكَ أوْكَتَا وفُوكَ نَفخَ »

(فصل المقال ٣٦١)

وأصله أن جماعة أرادوا اجتياز نهر وبعضهم لا يحسن السباحة فأحضروا قربا ونفخ كل منهم فى قربته وربط فوهتها ليحتبس بداخلها الهواء فتطفو على الماء ويتعلق بها يجتاز النهر ولما بدأوا فى الاجتياز تتبدد الهواء الذى بداخل قربة أحدهم وأشرف على الغرق فاستغاث برفاقه فقال له أحدهم « يداك أوكتا وفوك نفخ » أى أنك الذى جلبت على نفسك الهلاك لأنك الذى نفخت الهواء وربطت فم القربة .

والمثـل :

« أجشع من أسرى الدخان »

(١) الأطم الحصن

وقصته أن قوما من بنى تميم أغاروا على لطيمة كسرى فكتب إلى عامله بالبحرين فى شأنهم وأمر باتخاذ طعام على رأس الحصن بحطب رطب واستحصرهم فاغتروا بالدخان فلما دخلوا الحصن أصفق عليهم الباب فبقوا يمتهنون فى البناء وغيره فهلكوا وبقيت منهم شرذمة حتى جاء الاسلام فضرب بهم المثل فقيل ليس بأول من قتله الدخان وأجشع من وفد بنى تميم

والمثــل

« مَتَى سُخَيْلُ بَعْدَهَا أَوْ صَبِّحِي »

(الميدانى ٣ / ٢٠٢)

وقصته أن سخيل كانت جارية لعامر بن الظرب العدوانى ، وكان عامر حكم العرب ، وكانت سخيل ترعى عليه غنمه ، وكان عامر قد عَيَّ فى فتوى قوم اختلفوا إليه فى خنثى يحكم فيه ، فسهر فى جوابهم ليالى ، فقالت الجارية : أتبعه المبال فأيتهما بال فهو هو[1] ، فَفَرَّجَ عنه وحكم به ، وقال : مسى سخيل بعدها أو صبحى . أى بعد جواب هذه المسألة لا سبيل لأحد عليك بعد ما أخرجتنى من هذه الورطة . ويضرب المثل لمن يباشر أمرا لا اعتراض لأحد عليه فيه .

والمثل الآخر :

ـــ « كَالكَبْشِ يَحْمِلُ شَفْرَةً وزِنَادًا »

(المستقصى ٢ / ٢٠٩)

وقصته أن عمرو بن هند الملك سَمَّنَ كبشا وعلَّق فى عنقه شفرة وزنادا ، ثم سرحه لينظر هل يجترىء أحد على ذبحه . فتحاماه الناس حتى مرَّ ببنى يشكر ، فذبحه علباء بن أرقم ثم أتاه فمدحه بشعر واستوهبه نفسه .

ويضرب المثل لمن يتعرض لما فيه هلاكه .

وبهذه السمة الفنية التى تعبر بها الأمثال عن المعانى تؤدى قيمة أسلوبية أخرى وهى الإيجاز فى العبارة والدلالة بألفاظ قليلة على معان ومضامين واسعة وتترك للعقل المثقف استشفاف دلالات شتى .

---

(١) تقصد تتبع أثر بوله فإن كان يحدث من عضو الذكورة فهو ذكر وإن كان يحدث من عضو الأنوثة فهو أنثى .

الفصــــل الثــــانى

الأمثال وفنون القصص عند العرب

لا أظن أن جيلا من المثقفين العرب أساء إلى تراثنا الفكرى والأدبى مثلما أساء الجيل الذى تتلمذ فى مطلع النهضة الحديثة على المستشرقين ، فعلى قدر زهو هذا الجيل بالمنهج الجديد للبحث الذى أفاده أربابه من أساتذتهم على قدر ما انساق الى آراء فجة ومزاعم خاطئة ، راحت تلك الفئة ترددها عن انبهار خادع بعقلية الأوربين وسداد فهمهم ولو أن الأمر اقتصر على تلك الفئة بعينها لهان الخطب ولكن البلوى بهذه الأفكار المزعومة تستشرى فى أجيالنا الحاضرة التى غدا كثيرون منها يردد ما ردده ذلك الجيل البائد خطأ وانقيادا على الرغم من اتضاح جهة الخطأ فيها .

وليس أبعد عن السداد وأنأى عن الحقيقة من فرية اتهام الأدب العربى بأنه خلا من القصص الخصب ، وأجدب من العناصر الروائية .

وإذا كان الجيل الذى تتلمذ على المستشرقين معذورا فى التأثر والانبهار فان استمرار ترديد تلك الأفكار يغدو أبعد ما يكون عن الموضوعية ، فواجب باحثينا ومفكرينا العصريين أن يراجعوا تلك التقريرات غير الدقيقة التى أرسلها المستشرقون ، أو رددها تلاميذهم الذين تبنوا أفكارهم دون نقاش . لا أقول ذلك عن تعصب أو مقت لهؤلاء أو أولئك ، فأنا مم يقدّر جهود هذا الجيل على ما شابها من نقائص وبخاصة فى ميدان تحديث المنهج ، وإخراج كتب التراث بأسلوب عصرى مفيد .. إلى غير ذلك من إسهاماتهم العلمية النافعة . ولكنى أقول أن بعضا مما قرره المستشرقون حول أدبنا وتراثنا يتطلب مراجعة جادة لان كثيرين منهم عندما يتحدثون عن ظواهر تراثنا الأدبى والفكرى يجانبهم الإنصاف أحيانا ويخطئهم الاستنتاج الصحيح واستيعاب الظاهرة فى أحيان أخرى .

ولئن كان أدبنا العربى الحديث قد عرف فنون القصص بأساليب وأنماط جديدة فإن أدبنا القديم لم يخل من تلك الفنون ، ولكنها وجدت فى العصور القديمة متأثرة ببيئاتها

وأزمانها وخليق بنا أن نبحث هذه الفنون ونعرضها للدارسين بأسلوب جديد حتى تتكشف لهم قيمها ودلالاتها ولست الآن بصدد الحديث عن القصص فى الأدب العربى بصفة عامة فذلك يتطلب مجموعة من المؤلفات ، ولكن الذى يعنينى الآن أن ألفت الأنظار إلى باب مهم من أبواب الفن القصصى فى الأدب العربى ألا وهو قصص الأمثال ، التى تبدو للمتأمل على جانب كبير من الثراء والتنوع فى عطاءاتها ومضامينها .

لقد حفل التراث العربى بالعناصر القصصية والروائية ، بل وحفل بالأساطير التى تشبه فى طابعها العام أساطير الأغريق ، وبعضها يرتبط بأحداث تاريخية واقعية ، ولكن خيال القصاص أضاف إليها اضافات هائلة ، أبعدته عن الواقع وحلّقت به فى أودية الوهم والظنون ، كقصة جذيمة الأبرش والزباء .

وحسب القارىء أن يعود إلى أيام العرب والأخبار التى استفاضت فى مصادر تراثهم عن حرب البوس ، أو حرب داحس والغبراء أو قصة الزباء ، أو حكايات لقمان بن عاد فاذا اقترب القارىء قليلا تطالعه أيام العرب فى الإسلام وقصصهم الغرامى فى عصر بنى أمية ، ومسامراتهم فى أروقة الخلافة فى دمشق ثم بغداد ، وقد اشتهر فى زمن معاوية عبيد بن شرية صاحب أقدم كتاب وضع فى الأمثال ، وفى عصر الرشيد اشتهرت مسامرات الأصمعى وأقاصيصه عن الأعراب التى كان يعظ بها هارون ويسرى عنه ، وفى ذلك العصر أيضا ينضج القصص بصورة واضحة عند الجاحظ فى بخلائه على نمط فذ ، وفى غيرها من المؤلفات على نحو ملفت للنظر . ويتقدم الزمن قليلا فتظهر المقامات ويتضح أكثر فأكثر أصالة هذا الفن فى الأدب العربى ، ولصوقه بنفوسهم بشكل يدحض الزعم القائل بأن عقليتهم جزئية وخيالهم ضحل .

لقد أخذ القصص عند العرب مسارا مختلفا عن القصص عند الأمم الأخرى ، ومرجع ذلك - فى اجتهادى إلى الأمرين التاليين :

أولا : كان القصص شائعا قبل الإسلام وكان هناك قصاص مشهورون ، ولكن قصصهم لم يتح له من يدونه فى عصر التدوين ، فظل ما بقى منه نبذا مفرقة فى مختلف المصادر وضاع أكثره ، لأن هذا اللون من الأدب شأنه شأن غيره ، يعتريه المسخ والتشويه ويتعرض للاضطراب الشديد إذا ما ظل أحاديث تتداولها الألسنة ولم يسجل ويحفظ عن طريق التدوين . والرواة مختلفون فى مواهبهم القصصية فقد يكون بينهم من لايحسن السرد القصصى ، ولايعرف كيف يعرض الخبر أو القصة فى سياق فنى مؤثر . ومنهم من يُجيد فى

ذلك ، ومن ثم رأينا الجاحظ يشترك مع غيره من العلماء فى رواية بعض الأخبار والقصص ولكننا نراها معروضة بصورة مؤثرة وجيدة فى كتابات الجاحظ فى حين نراها بعينها عند غيره باهتة ممسوخة . فلو قد أتيح لقصص القدماء من يصوغه صياغة بديعة ، ويسبكه سبكا فنيا مشوقا ، لبلغنا منه الشىء الكثير .

وما يرجحه الباحثون فى الأدب اليونانى القديم أن الالياذة والأوديسة لهو ميروس كانتا فى الأصل قصصا ذائعا لدى الشعب اليونانى منذ عهود موغلة فى القدم ، وترجع شهرة هوميروس إلى أنه برع فى صياغة هذه القصص ، وحاك من نثارها المبدد عملا فنيا متكاملا رسم من خلاله الشخصيات بصورة معبرة وكان خياله بارعا فى تصوير الأحداث وعرضها عرضا مشوقاً يجسم البطولة ويتواءم مع طبيعة البيئة اليونانية بمعطياتها وعاداتها وأعرافها ، ومن ثم فإن المادة القصصية كانت متاحة لهوميروس ومأثرته تمثلت فى الصياغة الفنية والبراعة فى تصوير الأحداث والشخصيات .

ثانيا : تأثر مسار الفن القصصى عند العرب بظهور الاسلام ، حيث حدث الصراع بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين خصومه من كفار مكة وكان هؤلاء يحاولون صرف الناس عم يقوله الرسول بو اسطة القصص والأساطير التى يحكونها عن الأمم السابقة كما هو الحال لدى النضر بن الحارث وأكثر المفسرين يذكرون أنه المقصود بالآية الكريمة : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » وورد فى حديث الرسول ﷺ ذمٌّ القصص الذى يصرف عن العمل الجاد بقوله يذم صنيع بنى اسرائيل : « إن بنى اسرائيل لما قصوا هلكوا » أى اتكلوا على القول وتركوا العمل ، فكان ذلك سبب هلاكهم ، أو العكس ، لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص . ولما نزل القرآن قالوا يارسول الله : « لو قصصت علينا ، قال فنزلت : « نحن نَقُصُّ عليك أحسن القصص » وورد أنهم قالوا له : يارسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص فأنزل الله الآية . وفى هذا الإلحاح على الرسول أن يقص عليهم دلالة على مدى حب الجاهلين وإعجابهم بالقصص »[1] فلعل القرآن الكريم صرفهم إلى الجد والعمل وأبعدهم عن القصص الذى يهيم فى أودية الخيال ، وقد ربى الإسلام المسلم على الاشتغال بالأمور الواقعية ، وكانت القصص التى وردت فى القرآن الكريم حكاية لوقائع تاريخية وهدفها العظة والعبرة وليس تزجية الفراغ ولغو القول ، ومن ثم انصرف الناس فى صدر الإسلام عن القصص ، ولعل هذا هو السبب فى ضياع كثير من قصص الجاهلية لأنه لم يلق عناية من المسلمين بصفة عامة .

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٨ ص ٣٧١ .

قصص الأمثال :

١ - هناك نوع من الأمثال يرتبط فى دلالته بقصة ، ويرمز لمعنى مستفاد منها وهذا النوع لايفهم ولايدرى مغزاه الا اذا عرفت قصته ومن ذلك قولهم : « جزاء سنمار » ، وقولهم : « أجشع من أسرى الدخان » ، وقولهم : « الصيف ضيعت اللبن » وقولهم : « أهون من تبالة على الحجاج » ، وقولهم « صفقة لم يشهدها حاطب » . وقولهم : « غرثان فاربكوا له » . وقولهم : « لا أبوك نشر ولا التراب نفد » . ونحو هذا كثير جدا فى الأمثال ، وقد تكفل جامعو الأمثال بإثبات قصص أو أقاصيص الأمثال التى سموها مورد المثل وعنوا بتقصى تلك الأخبار ، بل إن المفضل الضبى جعل سياق كتابه « أمثال العرب » سياقا قصصيا حيث يحكى ويورد فى ثناياها مثلا وأكثر مبينا أول من قاله والمناسبة التى قيل فيها فكتابه عبارة عن مجموعة من الأخبار المتمرفه ترد الأمثال وتشرح فى ضمنها . وهذه فقرة من كتابه جاء فيها :[1] .

« وزعموا أن عمرو بن عمرو بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم تزوج بنت عمه دختنوس بنت لقيط بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم بعدما أسن ، وكان أكثر قومه مالا وأعظمهم شرفا فلم تزل تولع به وتؤذيه وتسمعه ما يكره وتهجره وتهجوه حتى طلقها ، وتزوجها من بعده عمير بن معبد بن زرارة وهو ابن عمها ، وكان رجلا شابا قليل المال ، فمرت إبله (أى إبل زوجها الأول) عليها كأنها الليل من كثرتها فقالت لخادمتها ويلك انطلقى إلى أبى شريح - وكان عمرو يكنى بأبى شريح - فقولى له فليسقنا من اللبن ، فأتاه الرسول فقال : إن بنت عمك دختنوس تقول لك اسقنا من لبنك ، فقال لها عمرو قولى لها : الصيف ضيعت اللبن . ثم أرسل لها بلقوحين وراوية من اللبن ، فقال الرسول : أرسل اليك أبو شريح بهذا وهو يقول : الصيف ضيعت اللبن ، فذهبت مثلا فقالت وزوجها عندها ، وحطأت بين كتفيه ، أى ضربت : « هذا ومَذْقَةٌ خَيْر » فأرسلتها مثلا . والمذقة شربة ممزوجة » .

وهكذا ساق المفضل فى هذا الخبر مثلين من الأمثال القديمة هما : « **الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللبن** » و « **هذا ومَذْقَةٌ خَيْر** » . وقد يطيل فى سرد الأخبار كما فعل فى قصة حرب داحس والغبراء وكذا حرب البسوس وقصة جذيمة والزباء . وعلى الرغم من اختلاف موارد أو

---

(١) أمثال العرب للضبى ص ٥١ .

قصص - بعض الأمثال من كتاب لآخر إلا أنها غالبا تتفق على قدر كبير من الأصول وهذا يدل على شيوع تلك الأخبار لدى العرب قديما وتداولهم لها ، وكثيراً ما تكون القصة موضع اتفاق ويكون الاختلاف فى جزئياتها ، كأول من قال المثل أو المناسبة التى قيل فيها .

٢ - وثمة أمثال ترتبط فى معانيها بأحداث مطولة وصراع ممتد وتعد قصصها من قبيل الأحداث الروائية ومنها قصة المثل : « **أعز من كليب وائل** » والمثل : « **أعز من الزباء** » . وتشكل كل قصة من هذه القصص أصلا روائيا مكتمل الأركان مستوفى العناصر . فأحداث كل منها طويلة ممتدة ، وأبطالها كثيرون متنوعون ، والصراع فيها ينمو بشكل « درامى » مؤثر ، والنماذج الإنسانية معروضة من خلالها عرضا واقعيا - ولو اتيح لأمثال هذه الأحداث من يعرضها فى إطار فنى لأنتجت أعمالا روائية لاتقل عن أشهر ما أبدعة الروائيون الذائعو الشهرة فى العالم - والغريب أن أصول هذه القصص واقعية ولكن دخلها التزيد وأضاف اليها الرواة إضافات كثيرة حتى غدت فى صورتها النهائية أقرب إلى الأعمال الروائية المخترعة ، ويصعب على الباحث الآن أن يعرف ما هو من قبيل الحقائق مما هو من فعل الأساطير ، لأن رواية هذه الأحداث الطريفة لم يقتصر على شراح الأمثال أو أصحاب كتب الأدب ، بل تعداهم إلى كتب التاريخ والأخبار التى أوردت تلك الأحداث بما داخلها من مبالغات متخيله على أنها أحداث واقعية .

٣ - وفى قصص الأمثال تصوير لشخصيات ونماذج من التاريخ العربى والإسلامى ارتبطت أسماؤها بأحداث مشهورة ، ومواقف فريدة من نوعها ، فجاءت الأمثال لتسجل تلك المواقف والأحداث فى عبارات موجزة ، وتومىء إلى مغزى القصص التى ذاعت عن أولئك الأشخاص ، ومن تلك الأمثال قولهم :

« لَيْتَ حفصة مِنْ رجال أم عاصم » (الميدانى ٣ / ١٣٧)

قال الميدانى : هذا من أمثال أهل المدينة . وأصله أن عمر رضى الله عنه مر بسوق الليل وهى من أسواق المدينة ، فرأى أمرأة معها لبن تبيعه ، ومعها بنت لها شابة ، وقد هَمّت العجوز أن تمذق لبنها ، فجعلت الشابة تقول : يا أمة لاتمذقيه ولاتغشيه ، فوقف عليها عمر فقال : من هذه منك قالت : ابنتى ، فأمر عاصماً فتزوجها ، فولدت له أم عاصم وحفصة ، فتزوج عبد العزيز بن مروان أم عاصم . فكانت حسنة العِشْرة ليّنة الجانب محبوبة عند أحمائها ، فولدت له عمر . فلما ماتت خلف على حفصة ، فكانت سيّئة الخلق تؤذى

١٠٥

أحمائها ، فسُئل مخنث من موالى مروان عن حفصة وام عاصم فقال ... حفصه من رجال أم عاصم » فذهبت مثلا .

وفى قصة المثل « غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية » (الميداني ٢ ٤١٣) نتعرف من خلالها على شخصية من شخصيات العرب فى الجاهلية وهى شخصية عامر بن الطفيل ، ذلك الطاغية المتصلف الذى وفد على رسول الله ﷺ وقدم معه أربد بن قيس أخو لبيد بن ربيعة الشاعر لأمه ، فقال رجل : يارسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك . فقال: دعه فإنَّه إنْ يُرد الله تعالى به خيرا يهده فأقبل حتى قام عليه ، فقال يامحمد مالى إن أسلمت قال : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، قال : تجعل لى الأمر بعدك ، قال : لا ، ليس ذلك إلىّ ، إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء ، فقال تجعلنى على الوبر وأنت على المدر ، قال : لا ، قال : فماذا تجعل لى قال صلى الله وعليه وسلم : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها قال : أو ليس ذلك إلىّ اليوم ، وكان أوصى إلى أربد بن قيس إذا رأيتنى أكلّمه فدُرْ من خلفه فاضربه بالسيف ، فجعل عامر يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه ، فدار أربد خلف النبى ﷺ ليضربه ، فاخترط من سيفه شبرا ثم حبسه الله تعالى فلم يقدر على سله ، وجعل عامر يومىء اليه ، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع بسيفه ، فقال ﷺ : اللهم إكفنيهما بما شئت ، فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فى يوم صائف صاح فأحرقته ، وولى عامر هاربا ، وقال يا محمد دعوت ربك فقتل أربد ، والله لأملأنها عليك خيلا جردا وفتيانا مردا ، فقال رسول الله ﷺ : يمنعك الله وابنا قيلة - يريد الأوس والخزرج ، فنزل عامر ببيت امرأة سلولية ، فلما أصبح ضم عليه سلاحه وخرج وهو يقول واللات لئن أصحر محمد إلىّ وصاحبه - يعنى ملك الموت - لأنفذنهما برمحى ، فلما رأى الله تعالى ذلك منه أرسل ملكا فلطمه بجناحه فأذراه فى التراب وخرجت من ركبته غدة فى الوقت عظيمة ، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول : « غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية » ، ثم مات على ظهر فرسه .

٤ - وثمة قصص تدل على صراحة العربى وجرأته وخطاره بنفسه فى أوقات الشدائد ومن ذلك قصة المثل :

« هذا التَّصافى لاتَصافى المِشْجَبِ » (المستقصى ٢ / ٣٨٥)

وخلاصتها أن رجلين من هديل أسرا وهما مطلوبان بدم ، فقال أكبرهما : أنا الثأر المنيم فاتركوا هذا الغرّ البرىء وقال الشاب . بل أنا مقتبل الشباب فما تريدون من هذا الشيخ

الفانى فقيل لهما ذلك . والمشجب : خَشَبَاتُ موثقة تنصب فتنشر عليها الثياب . ويضرب المثل فى التصافى بين الأخلاء[1] .

ومن هذا القبيل قصة المثل :

« صَارَتْ الفِتْيَان حُمَمَا » (الميدانى ٢ /٢٩٦)

وقائلته : الحمراء بنت ضمرة بن جابر ، وذلك أن بنى تميم قتلوا سعد بن هند أخا عمرو ابن هند الملك فندر عمرو ليقتلن بأخيه مائة من بنى تميم ، فجمع أهل مملكته فسار إليهم ، فبلغهم الخبر ، فتفرقوا فى نواحى بلادهم ، فأتى دارهم فلم يجد إلا عجوزا كبيرة وهى الحمراء بنت ضمرة ، فلما نظر إليها وإلى حمرتها قال لها : إنى لأحَسبَكِ أعجمية ، فقالت : لا ، والذى أسأله أن يخفض جناحكَ ، ويهدّ عمادك ، ويضع وسادك ، ويسلبك بلادك ، ما أنا بأعجمية . قال : فمن أنت قالت : أنا بنت ضمرة بن جابر ، ساد معداً كابراً عن كابر ، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة ، قال : فمن زوجك قالت : هوذة بن جرول ، قال : وأين هو الآن أما تعرفين مكانه قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعلم مكانه حال بينك وبينى ، قال : وأى رجل هو قالت : هذه أحمق من الأولى أعن هوذة يسأل هو والله طيب العَرْق ، سمين العِرق[1] لاينام ليلة يخاف ، ولايشبع ليلة يُضاف ، يأكل ما وجد ولايسأل عما فقد ، فقال عمرو : أما والله لولا أنى أخاف أن تلدى مثل أبيك وأخيك وزوجك لاستبقيتك ، فقالت : وأنت والله لاتقتل الا نساء أعاليها ثدى وأسفلها دمى ، والله ما أدركت ثأرا ولامحوت عارا ، وما من فعلت هذه به بغافل عنك ، ومع اليوم غد ، فأمر بإحراقها فلما نظرتْ إلى النار قالت : « ألا فتى مكان عجوز » فذهبت مثلا ، ثم مكثت ساعة فلم يفدها أحد فقالت : هيهات : « صارت الفتيان حمما » فذهبت مثلا ، ثم ألقيت فى النار .

٥ - ومن قصص الأمثال ما يسجل البطولة والفروسية ويشيد بالمغاوير من الرجال ومنها الأمثال :

« أفــرس مـن عامــر » (الميدانى ٢ / ٤٦٦)

و « أفرس من بسطام » (الميدانى ٢ / ٤٦٦)

---

(١) وفى مجمع الأمثال ورد المثل « هذا التصافى لاتصافى المحلب » وفسره بقوله : أى هذه المصافاة لامصافاة المؤاكلة والمشاربة

(١) طيب العرق بكسر العين وسكون الراء أى كريم الأصل . وسمين العرق بفتح العين وسكون الراء أى جواد يقدم لضيوفه أجود اللحم والرواية فى المستقصى سمين العرق

و « أفتك من الجحاف » (الميدانى ٢ / ٤٦٩)

و « أفتك من الحارث بن ظالم » (الميدانى ٢ / ٤٧٠)

و « أفتك من عمرو بن كلثوم » (الميدانى ٢ / ٤٧١)

٦ - وفى كثير من قصص الأمثال نلمح تمتع بعض شخصياتها بالذكاء وحسن الحيلة والمخاتلة ومنها قولهم :

« لاييأسنّ نائِمٌ أنْ يَغْنَمَا » (الميدانى ٢ / ٢١٤)

وقصته أن رجلا كان يسير بإبل له حتى إذا كان بأرض فل [٢] إذا هو برجل نائم ، فأتاه يستجيره ، فقال : إنى جائرك من الناس كلهم إلا من عامر بن جوين ، فقال الرجل : نعم ، وما عسى أن يكون عامر بن جوين وهو رجل واحد ؟ وكان هو عامر بن جوين . فسار به حتى توسط قومه ، فأخذ إبله وقال : أنا عامر بن جوين وقد أجرتك من الناس كلهم إلا منى ، فقال الرجل عند ذلك : « لاييأسنّ نائم أن يغنما » ، فذهبت مثلا .

ومنها قصة المثل :

« العَجَبُ كُلُّ العجب بين جُمَادى ورَجَب » (الميدانى ٢ / ٣٥٤)

وأول من قاله عاصم بن المقشعر الضبى ، وكان أخوه « أبيدة » علق أمرأة الخنيفس بن خشرم الشيبانى ، وكان الخنيفس أغير أهل زمانه وأشجعهم ، وكان أبيدة عزيزا منيعا فبلغ الخنيفس أن أبيدة مضى إلى امرأته ، فركب الخنيفس فرسه وأخذ رمحه وانطلق يرصد أبيدة ، وأقبل أبيدة وهو يقول :

ألا إن الخنيفس فـــاعلمـــوه ... كمـــا سماه والــــده اللعين
بهيم اللـــون محتقر ضئيـــل ... لئيمـــات خـلائقـــه ضنين
أيـوعـدنى الخنيفس من بعيـد ... ولمـــا ينقطـع منـــه الـوتين
لهـوت بجـارتيـه وحـاد عنى ... ويـــزعم أنـــه أنف شنـــون

قال : فشد عليه الخنيفس ، فقال أبيدة : أذكرك حرمة خشرم ، فقال : وحرمة خشرم لأقتلنك ، ثم قتله وقال :

أيـــا بن المقشعر لقيت ليثـــا ... لـــه فى جـوف أيكتـــه عرين

---

(٢) الفل . الأرض الجدبة أو التى أخطأها المطر

تقول صددت عنك خنا وجبنا — وانــك مــا جــد بطـل متين
ستعلم أينـــا أحمى ذمـــارا — إذا قصرت شمالـــك واليمين
لهـوت بهـا فقـد بُـدّلت قبرا — ونـائحـة عليـك لهـا رنين

قال : فلما بلغ نعيه أخاه ، عاصما لبس أطمارا من الثياب ، وركب فرسه وتقلّد سيفه ، وذلك فى آخر يوم من جمادى الآخرة ، وبادر قتله قبل دخول رجب ، لأنهم كانوا لايقتلون فى رجب أحدا ، وانطلق حتى وقف بفناء خباء الخنيفس ، فنادى ، يابن خشرم أغث المرهق فطالما أغثت ، فقال : ما ذاك قال : رجل من بنى ضبة غصب أخى أمرأته فشد عليه فقلته ، وقد عجزت عنه . فأخذ الخنيفس رمحه وخرج معه فانطلقا ، فلما علم عاصم أنه قد بعد عن قومه داناه حتى قارنه ثم قنعه بالسيف فأطار رأسه ، وقال : « العجب كل العجب بين جمى ورجب » فأرسلها مثلا ، ورجع إلى قومه .

٧ - وأخيرا تحتوى قصص الأمثال على كثير من الطرائف والنوادر على أساس أنها أحداث غريبة غير مألوفة ، فهى دائما تحفظ ويتندر بها الناس فى مجالسهم وهذا اللون كثير جدا فى الأمثال نذكر هنا بعضها . قالوا :

« وافَقَ شَنٌّ طَبَقَةَ » (الميدانى ٣ / ٤١٨)

ويذكرون فى قصة هذا المثل أن « شنا » كان رجلا من دهاة العرب وعقلائهم فقال : والله لأطّوفنّ حتى أجد أمرأة مثلى أتزوجها ، ففيما هو فى بعض مسيره إذ وافقه رجل فى الطريق .. حتى إذا أخذا فى مسيرهما قال له شنّ : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال الرجل : ياجاهل أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملنى فسكت عنه شن ، وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع قد استحصد ، فقال : أترى هذا الزرع أُكل أم لا ؟ فقال له الرجل ياجاهل ، ترى نبتا مستحصدا فتقول أكل أم لا ؟ فسكت عنه شن ، حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة فقال شن : أترى صاحب هذا النعش حيا أو ميتا ؟ فقال الرجل ما رأيت أجهل منك ، ترى جنازة تسأل عنها أميت صاحبها أم حى ؟ فسكت عنه شن ، فأراد مفارقته ، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله فمضى معه ، فكان للرجل بنت يقال لها طبقة ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ، فأخبرها بمرافقته إياه ، وشكا اليها جهله ، وحدثها بحديثه فقالت : يا أبت ، ما هذا بجاهل ، أما قوله : أتحملنى أم أحملك فأراد أتحدثنى أم أحدثك حتى نقطع الطريق ، وأما قوله : أترى هذا الزرع أكل أم لا فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا . وأما قوله فى الجنازة فأراد : هل ترك عقباً يحيا بهم ذكره

أم لا ، فخرج الرجل فقعد مع شن فحادثه ساعة ، ثم قال: أتحب أن أفسر لك ما سألتنى عنه ه قال : نعم فسره ففسره ، قال شن : ما هذا من كلامك ، فأخبرنى عن صاحبه قال : ابنة لى ، فخطبها إليه فزوجه اياها ، وحملها الى أهله . فلما رأوها قالوا : « وافق شن طبقة » فذهبت مثلا .[1]

ومن ذلك أيضا قصة المثل :

« ما أَرْخَصَ الجَمَلَ لولا الهِرَّةُ » (الميدانى ٣ / ٢٥١)

وقصته أن رجلا ضل له بعير ، فأقسم إن وجده ليبيعنّه بدرهم ، فأصابه ، فقرن به سنورا وقال : أبيع الجمل بدرهم ، وأبيع السنور بألف درهم ولا أبيعهما إلا معا ، فقيل له : ما أرخص الجمل لولا الهرة » فجرت مثلا .

والمثل :

« كُنْ حُلْماً كُنْهُ » (الميدانى ٢ / ٥٠)

وقصته أن رجلا أهوى برمحه حتى جعله بين عينى امرأة وهى نائمة فاستيقظت فلما رأته فزعت ، ثم غمضت عينيها وقالت : كن حلما كنه .

ومن هذا الباب المثل :

« كُفِيتَ الدَّعْوَةَ » (الميدانى ٣ /٤٥)

وأصله أن بعض المُجَّانِ نزل براهب فى صومعته ، وساعده على دينه ، وجعل يقتدى به ، ويزيد عليه فى صلاته وصيامه ، ثم أنه سرق صليب ذهب كان عنده ، واستأذن لمفارقته فأذن له وزوده من طعامه ، ولما ودعه قال له : صحبك الصليب - على رسم لهم فيمر يريدون الدعاء له بالخير فقال الماجن : « كفيت الدعوة » فصارت مثلا لمن يدعو بشىء مفروغ منه .

(١) وللمثل تفسيرات أخرى حكى الميدانى بعضها وذكر صاحب فصل المقال ثلاثا أخرى .

الفصـــل الثالـــث

الأمثـــال والخرافـــة

الخرافة كما تذكر كتب اللغة ، الحديث المستملح من الكذب . وحكوا أن خرافة كان رجلا من بنى عذرة أو من جهينة احتطفته الجن ، ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى يَعَجَب منها الناس ، فكذبوه فجرى على أسن الناس وفى أمثالهم السائرة : « **أمحل من حديث خرافة** » ونسب الميدانى لبعضهم أن خرافة اسم مشتق من اختراف السمر أى استظرافه .

والذى يعنينا هنا أن نشير إلى وجود هذه الظاهرة فى الأمثال ، مثلما هى موجودة فى ألوان التراث الأدبى القديم من الشعر والقصص وغيرهما وللمبرد فى الكامل باب من تكاذيب الأعراب ، ساق فيه طائفه من خرافاتهم التى زعموها ، وإن يكن هذا الموضوع لم تتجه إليه همم الباحثين المحدثين فيما عدا كتابات قليلة لم توفه حقه .[1]

وأظهر أشكال الخرافة فى الأمثال ، ما حكاه العرب على ألسنة الحيوان ، وهذا اللون موجود فى الآداب القديمة ، ولكن الباحثين[2] غير متفقين على منشأ هذا النمط من الحكايات ، هل هى يونانية الأصل أم أنها هندية أم أن قدماء المصريين هم أسبق من عرفها ؟ ولكن يبدو أنها تنشأ شعبية أسطورية ثم تأخذ فى الارتقاء إلى المكانة الأدبية ، فتتبادل الصلات مع الآداب الأخرى .

وأياما كان فالذى نستنتجه من هذه الإشارة إلى وجود هذا الجنس الأدبى فى مختلف الآداب العالمية ، وأنه ينشأ نشأة شعبية أن تراثنا الأدبى صنو لنظائره من الآداب القديمة فى

---

(١) للدكتور أحمد كمال ركى كتاب بعنوان « الأسطورة دراسة حضارية مقارنة » وله بحث صغير بعنوان : « التشكيل الخرافى فى شعرنا القديم » .

(٢) الأدب المقارن دكتور غنيمى هلال ص ١٧٩

ظواهره وأطواره ، وليس بدعا كما يريد الأدعياء الذين يصمونه بالفقر والخواء ، ومشهور أن أدبنا العربى لم ينقل إليه هذا الجنس من آداب أخرى إلا عندما ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة ، أما قبل ذلك فكان وجود هذا اللون يقتصر على الأمثال والقصص الخرافى .

ويتضح من الأمثال التى تحكى على ألسنة الحيوان أن لها مغزى فكريا وأخلاقيا فهى ليست كلاما خاليا من المضمون ولا عبثا فارغا ، بل أنها تشبه إلى حد كبير قصص كليلة ودمنة فى مغزاها الأخلاقى وهدفها التربوى الإصلاحى ، ويبدو أن بعضها ارتبط بالأقاصيص التى تحكى للأطفال والتى يصنعها لهم الكبار صنعا وينسجون بعضها من وحى الخيال ، وتبقى أصداؤها فى أذهان الناس جيلا بعد جيل . وتشبه أقاصيصها ما نألفه نحن فى أساطيرنا الشعبية من خرافات وأوهام عرفت قديما وما يزال لها حضورها الواضح فيما يشيع على ألسنة العامة من قصص ، وذلك بسبب أن العامة لايميزون ولايمحصون الأحاديث المكذوبة ، بل إن المبالغات تروقهم وتعجبهم ويطربون لها بطبيعتهم ، وتروج بينهم رواجا عظيما ، وقد تكون هذه الأمثال فى أصلها قصصا وهمية تشبه أحاديث الجد والجدة التى يقولانها للصغار ، ثم تستشهر وتذيع فتبقى أحداثها ماثلة فى الأذهان جارية على الألسنة .

وهذه ميزة جديدة تضاف لما للأمثال من ميزات ، وبخاصة فى قوة ارتباطها بالبيئة التى تنبع فيها وتصويرها لشتى جوانب الحياة اجتماعية وفكرية وحضارية فضلا عن كونها تمثل أعماق المجتمعات العربية القديمة ، حتى فى خرافاتها وأساطيرها وأوهامها التى لا أساس لها من الواقع ، لأنها تصور طفولة الفكر البشرى لدى الأمة وميله الفطرى إلى هذه الألوان التى يحلق فيها الخيال دون قيود أو حدود .

ولنطالع قصة المثل :

« كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » (أمثال العرب ١٧٧)

حكى المفضل الضبى قال : زعموا أن أخوين كانا فيما مضى فى إبل لهما فأجدبت بلادهما ، وكان قريبا منهما وادٍ فيه حية قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أنى أتيت هذا الوادى المكلىء فرعيت فيه إبلى وأصلحتها ، فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادى إلا أهلكته قال : فوالله لأهبطن ، فهبط ذلك الوادى فرعى إبله به زمنا ثم إن الحية لدغته فقتلته ، فقال أخوه : ما فى الحياة بعد أخى خير ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخى ، فهبط الوادى فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : أَلَسْتَ ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح فأدعك بهذا الوادى فتكون به

وأعطيك ما بقيت دينارا فى كل يوم ، قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال فإنى أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيق لايضيرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا فكثر ماله ونبتت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالا ، ثم إنه ذكر أخاه فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان ، فعمد إلى فأس فأخذها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجُحْر ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثّر فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، فلما رأى ذلك وتخوف شرها ندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ماكنّا عليه فقالت : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » ، وأنت فاجر لاتبالى العهد .

ويبدو أن هذا النوع من الأمثال قد ترك بصماته فى عقول الشعراء الأقدمين فرددوا مضامين تلك الخرافات فى أشعارهم قال نابغة بنى ذبيان :

وإنى لألقى من ذوى الضغن منهم ... وما أصبحت تشكو من الشجو ساهرة
كما لقيت ذات الصفا من حليفها ... وكانت تديه المال غبا وظاهره[1]
تذكر أنى يجعل الله جنة ... فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما توفى العَقْلَ إلا أقَلَّهُ ... وجارت به نفس عن الخير جائرة[2]
أكبّ على فأس يحد غرابها ... مذكرة بين المعاول باتره
فقام لها من فوق جحر مشيد ... ليقتلها أو يخطىء الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللبر عين لاتغمض ناظره
تندم لما فاته الذحل عندها ... وكانت له إذخاس بالعهد قاهرة
فقال تعالَىْ نجعل الله بيننا ... على مالنا أو تنجزى لى آخره
فقالت يمين الله أفعل إننى ... رأيتك مسحورا يمينك فاجره
أبى لى قبر لايزال مقابلى ... وضربة فأس فوق رأسى فاقره

والقصة كما يبدو تؤكد على أهمية الوفاء بالعهد وتبين عواقب الغدر كما حدث من الرجل الذى تعاهد مع الحية على قبول الدية عن أخيه ثم انقلب عليها بعد أن وفت ا على نفسها . وقد أكد ذلك الذبيانى فى أبياته فمغزى الرمز فى القصة إذاً هو : أن من يغدر بعهده مرة فالناس معذورن فى عدم الثقة به والاطمئنان إلى وعوده .

---

(١) ذات الصفا : هى الحية التى يتحدث عنها العرب ، والبيت مرتبط بما قبله .

(٢) العقل : الدية .

وفى المثل :

(الميدانى ٢ ٢٨٠)

« طارَتْ بهم العَنْقاءُ »

قال ابن الكلبى : كان لأهل الرس نبى يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له « دمخ » مصعده فى السماء ميل ، وكانت تنتابه طائرة كأعظم ما يكون لها عنق طويل ، من أحسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منتصبة ، فكانت تكون على ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكله ، فجاعت ذات يوم وأعوذت الطير فانقضت على صبى فذهبت به ، فسميت « عنقاء مغرب » بأنها تغرب كل ما أخذته .

ثم أنها انقضت على جارية فضمتها إلى جناحين لها صغيرين ثم طارت بها ، فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فقال : اللهم خذها ، واقطع نسلها ، وسلط عليها آفة ، فأصابتها صاعقة فاحترقت ، فضربتها العرب مثلا .

ومن هذا النوع أيضا المثل :

(الميدانى ٣ / ٧٤)

« أكْرَهُ مِنْ خَصْلَتَي الضَّبُع »

وأصل ذلك - فيما تزعم العرب - أن الضبع صادت مرة ثعلبا ، فلما أرادت أن تأكله قال الثعلب : مُنّى عَلَىّ أمّ عامر[1] ، فقالت الضبع : قد خيرتك يا أبا الحصين بين خصلتين ، فاختر أيهما شئت فقال الثعلب : وما هما فقالت الضبع : إما أن آكلك ، وإما أن أمزّقك ، فضربت العرب بخصلتيها المثل ، فقالوا : عرض على خصلتى الضبع ، لما لاخيار فيه .

وفى قصة المثل .

(الميدانى ٢ / ٤٤٢)

« فى بيته يُؤْتى الحَكَمُ »

قال الميدانى : هذا مما زعمت العرب عن ألسن البهائم قالوا : إن الأرنب التقطت ثمرة ، فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل[2] ، فقال سميعا دعوت ، قالت : أتيناك لنختصم إليك ، قال : عادلا حَكّمْتُما ، قالت : فاخرج إلينا قال: « فى بيته يؤتى الحكم » ، قالت : إنى وجدت ثمرة ، قال : حلوة فكليها ، قالت : فاختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغى الخير ، قالت : فلطمته ، قال : بحقك أخذت ، قالت : فلطمنى قال : حر انتصر ، قالت : فاقض بيننا قال : قد قضيت ، فذهبت أقواله كلها أمثالا .

---

(١) أم عامر : كنية الضبع .

(٢) أبا الحسل : كنية الضب ، والحسل ولده

ومن الخرافات التى راجت فى أذهان العرب قديما ما زعموه من أن السّلام وهى الحجارة كانت رطبة لينة قال رؤبة بن العجاج :

قــد كـــان ذاكم زمن الفطحـل والصخر مبتـل كطين الــوحــل

وقال مقاتل بن سليمان : أثرت قدم إبراهيم (عليه السلام) فى الصخر كتأثير أقدام الناس فى ذلك الزمان فى الصخور ، إلا أن الله تعالى سوى تلك الآثار ، وعفاها ومسحها ، ومحاها ، سِوَى أثرِ قدم إبراهيم (عليه السلام) تكرمة له ، وإرادة لتخليد ذكره . وكانوا يقولون : إن كل شيء كان يعرف وينطق . قال أمية :

بــآيــة كـــان ينطــق كــل شىء وخــان أمــانــة الــديــك الغراب

ويقولون إن الأشجار لم يكن لها شوك قال الشاعر :

وكـان رطيبـا يـوم ذلـك صخرهـا وكـان خضيـدا طلحهـا وسَيَـالُهـا

وان ذلك كان إنما تغير حين عصى ابن آدم فى قتله أخاه ، وأن الأرض لما شربت من دم المقتول عوقبت بعشر خصال : أُنبت فيها الشوكُ ، وصير فيها الفيافى ، وخرق فيها البحار وملح طعمها وطعم أكثر مياهها ، وخلق فيها الهوام والسباع ، وجعلت قرار العاصين ، وصير جهنم فيها ، وجعل ثمرها لايأتى الا فى حين ، وجعلت توطأ بالأقدام . ثم لم تشرب بعد دم ابن آدم دم أحد من ولده ولا غير ولده ، ولذلك قال عمر لأبى مريم الحنفى ، وكان قتل أخاه زيدا يوم اليمامة : إنى لأشد بغضا لك من الأرض للدم . فقال أبوم مريم أو يضر بى ذلك عندك قال : لا . قال : فلا أبالى .

ويقال إن الأرض لاتشرب إلا يسيرا من دماء الإبل ، وكانوا يزعمون أن الحية كانت مثل الجمل ، وكانت تطير فدخل فيها إبليس وطارت به حتى أدخلته الجنة ، فأغوى آدم ، فصيرت ملعونة .

قال عدى بن زيد :

وكـانت الحيـة الرقشـاء إذ خلقت كما ترى ناقـة فى الخلق أو جملا

قال : فعوقبت بقص جناحها وقطع أرجلها ، وإعراء جلدها ، وشق لسانها ، وإلقاء عداوة الناس عليها ، ونسب الكذب والظلم إليها ، فيقال : « أكذب من حية » « أظلم من حية » وكذبها أن تنطوى فى الرمل على الطريق ، فتصير كأنها طبق خيزران ، ومنها حيات بيض

تستدير فتحسب خلاخيل وأسورة وذلك لتغر الناس لتهلكهم . وظلمها أنها لاتمر بجحر فتدخله الا هرب صاحبه منه ، وخلاه لها ، الى غير ذلك من حشو كثير وتخليط طويل عريض[1] .

« وليس من السهل على أية حال أن ننكر على القدماء استعانتهم بالخرافة فى تشكيل جانب كبير من أفكارهم ، بل لعل كل محاولة لتطهير آثارهم منها إنما هى إهدار لكثير من القيم التراثية الحقيقية . فقد مضى الحين الذى كنا فيه نخضع المرويات الجاهلية لسلطان العقل المتأثر بمنطق أرسطو ناسين أن النظر بالعقل إلى مرحلة تاريخية لم تكن تعتد بالمنطق إنما هو تسفيه لحضارة ينبغى أن تعرف على نحو دقيق . ومع أن الدراسة التاريخية غير المتأثرة بنزعات النقليين الأول قد وقفتنا على حياة جاهلية خصبة ، فلا نزال فى حاجة إلي تقويم شامل لأصول الجاهلية التى تركت بصماتها على نتاج القدماء ، ويمثله بنحو خاص : شعرهم ، وأمثالهم ، وملامحهم التى رصدت باسم الأيام ، وانتسخت بعد قرون فى السير الشعبية »[2] .

وجملة القول أن هذا النوع من الأمثال يدل دلالة قوية على ثراء تراثنا الأدبى وتنوع أجناسه وفنونه ، وفى تصورى أن الرواة فى العصور الإسلامية الأولى قد أهملوا كثيرا من هذا النوع استسقاطا له وزراية به ، ولو قد وصلت إلينا هذه الألوان بجملتها لكان لنا منها مادة خصبة لدراسة طبيعة الأسطورة فى الأدب القديم ولكنها قليلة كما أشرنا وموزعة فى مصادر شتى .

---

(١) الأوائل ١ / ١٠٤ وما بعدها .
(٢) التشكيل الخرافى فى شعرنا القديم – ملحق كتاب شعراء السعودية المعاصرون د – أحمد زكى ص ٢٤٧

الباب الثالث

القيمة الفكرية للأمثال

الفصل الأول : الأمثال وخيرة الحياة .
الفصل الثانى : الأمثال وحسن الاستفادة من المواقف .
الفصل الثالث : الأمثال وواقع حياتنا .

تمهـــيد :

إن دراسة الدلالات والقيم التى تنطوى عليها الأمثال العربية القديمة لاينبغى أن ينظر اليها قراء هذا الكتاب على أنها تمثل غاية علمية بحتة ، أو تفرسا للآثار القديمة بهدف التعرف على مزيد من الحقائق بشأنها ولكنها فى نظرى تعد وسيلة لهدف أوسع ، خلاصته إبراز القيم النفسية والاجتماعية والفكرية التى تستنبط من الأمثال ، وتمثل قيمة مهمة يستفيد من التعرف عليها الإنسان العربى فى العصر الحديث ، ويبنى على ضوئها كثيرا من الركائز النافعة التى تنمى خبرته بالحياة ، وتسعفه فى التعامل مع كثير من مشكلاتها ، وتتيح له رؤية أعمق لطبائع الناس ، وسلوكهم ، وتوفر عليه قدرا كبيرا من العناء فى تفسير الظواهر المحيطة به ، فى نطاق الحركة المتصاعدة التى لايستطيع أن ينأى عن التعرض لها فى علاقاته المتنوعة . سواء فى محيط الأسرة الصغيرة ، أم على مستوى العمل الذى يمارسه ، أم على نطاق المجتمع بصورة عامة .

وفى اعتقادى أن الأمثال تعطى من خبرة الحياة الشىء الكثير فهى أشبه ما تكون بمحصلة عظيمة القيمة يستفيدها المتأمل لعطاء الأمثال ، وأن حال القارىء معها كحال شاب نابه يجلس الى شيخ أريب قد خبر الحياة ، وحلب أشطر الدهر ، وجلس ينصح بنيه ، ويعرض على عقولهم الغضة عصارة تجاربه ، وزبدة خبراته فى عبارات موجزة بالغة الروعة عظيمة التأثير .

الفصل الأول

الأمثال وخبرة الحياة

من القيم الثابتة للأمثال أنها ذخيرة إنسانية لاتنضب ، يطالعها الإنسان فيجد فيها متاعا لعقله ، وزاداً لخبرته ومعارفه بحقائق الحياة وطبائع البشر ، وهى حقائق باقية على مر العصور ، لأنها تلخص ظواهر أبدية ارتبطت بطبائع الناس قديما ولاتزال تؤثر فى دوافع سلوكهم وستبقى كذلك ما بقيت الطبيعة البشرية التى فطر الله عز وجل الناس عليها .

والأمثال التى تلخص خبرة الحياة كثيرة ، وليس من مقاصد هذه الدراسة أن أحصيها للقارىء وحسبى أن أدله عليها ، وهى وإن ارتبطت فى صورتها الظاهرة بحياة العربى فى العصر القديم ، فإنها مع ذلك صالحة لأن يطبقها إنسان الحاضر والمستقبل على حياته بعد أن ينتزع عنها إطارها البيئى المحدود ، ويستخلص دلالتها العامة ومغزاها الإنسانى .

والخبرات التى تعبر عنها الأمثال القديمة لاتأتى فى نسق عقلى منظم وإنما تأتى فى صورة ومضات فكرية متناثرة تتعلق بظواهر شتى ، ومن العسير على الباحث المدقق أن يصوغ هذه الخبرات فى أطر عامة تجمع الشبيه إلى الشبيه ، وتدنى الفكرة من أختها ، حتى أولئك الشراح الذين بوبوا الأمثال على أساس مقاصدها لم يفلحوا فى ذلك[1] .

فكيف إذا الاستفادة من تلك الذخيرة العقلية الخصبة ؟

فى تصورى أن الاستفادة يمكن أن تتحقق إذا أولى الباحثون فى الأدب الأمثال القديمة عناية أكبر ، وأفردوا لها فى تاريخهم للأدب مجالا أوسع فالغريب أن الكتب المدرسية بل والجامعية التى يدرسها المتخصصون تغفل الأمثال إغفالا بينا . وإذا تناولها أحد المؤلفين فانه غالبا ما يتخطاها فى سرعة ، ويشير إليها اشارات لاتكافىء مالها من قيمة . إن فهم

---

(١) وأشهر من صنع ذلك أبو عبيد بن سلام الهروى صاحب كتاب « الأمثال » الذى سبقت الاشارة إلى منهجه وتابعه فى الطريقة أبو عبيد البكرى صاحب « فصل المقال » فى شرح كتاب « الأمثال » بيد أن جامعى الأمثال وشارحيها لم يلبثوا أن آثروا المنهج الآخر الأشهر وهو تبويب الأمثال على حروف المعجم

باحثينا للأدب وتصويرهم له يهمل جوانب على قدر كبير من الأهمية ، لدرجة أن الدارس للأدب القديم لايكاد يعرف من صور الأدب سوى الشعر ومدارسه ومذاهب الشعراء ، ثم إن أتيحت له الفرصة ألم بشىء من الفنون النثرية ، كالخطابة والكتابة فى عجالة عاجلة واقتضاب شديد .

وفى تقديرى أن مؤرخى الأدب ودراسيه بحاجة إلى إعادة النظر فى المنهج الذى تسير عليه دراساتهم ، فهناك من ألوان الأدب القديم وفنونه ما تتطلبه حاجة هذا الجيل أكثر من شعر الجاهلين والإسلاميين ، وأغلب ظنى أن الشعراء الكبار الذين تربوا على مائدة التراث القديم كانت حصيلتهم من هذه الألوان التى أغفلناها نحن فى عصورنا المتأخرة جد عظيمة . ودلائل ذلك واضحة فى نتاج أولئك الشعراء بصور تبدو ظاهرة فى بعض الأحيان ومتوارية فى أحيان أخرى ، وقد اتضح لنا ذلك فى حديثنا عن الأمثال والشعر .

وإذا كنا نهدف من برامجنا التربوية فى مجال دراسة الأدب القديم إلى أعطاء الدارس لذلك الأدب جرعات نافعة تنمى لديه تذوق الأدب العربى والتمرس بأساليبه فلاضير إن أعطيناه بجانب ذلك جرعة من الأمثال تنمى قدراته الفكرية وتوسع مداركه ، وترفده ، بخبرات نافعة ، وهى مع ذلك كله تعرض عليه فنا تعبيريا جميلا حافلا بخصائص الأسلوب الأدبى المؤثر . وبذلك نكون قد ربطنا ناشئتنا بتراثنا ، وأطلعناهم على صفحات وضيئة منه ، وأفدناهم فى الوقت ذاته حصيلة عقلية نافعة ترفد خبراتهم ، وتوسع مداركهم ، وتوثق مع ذلك كله علاقاتهم بلغتهم الأصيلة ، وبدلا من أن يضطر أحدهم إلى اقتباس الأمثال العامية أو العبارات الدارجة فى كلامه يسوق الأمثال الفصيحة ، ولعلنا نلحظ ذلك فى حياتنا عندما يعرض للناس إيراد مثل من الأمثال العربية القديمة نجدهم ينطقونه بلغته الفصحى وصورته السديدة . فَلِمَ لانساعد أبناءنا ودراسينا على المضى فى هذا السبيل ؟!

والأمثال على الرغم من قيمتها الفكرية الكبرى لاتسوق الحقائق والخبرات فى إطار عقلى بحت وإنما تعرض الخبرة والرأى ممزوجين بإحساس قائل المثل ومظللين بشعوره إزاء الموقف أو الظاهرة التى يَسُوق المثلَ تعبيرا عنها .

فالعربى الذى لخص لنا اختلاط الخير بالشر فى هذه الحياة ، وامتزاج راحتها ومتعها بالألم والنصب عندما قال :

« تَمْرَةٌ وزُنْبُور » (المستقصى ٢ / ٣٢)

ساق لنا تلك الحقيقة فى عبارة مؤثرة حافلة بالإيحاء لاتقل براعة عن تصوير الشعراء وبلاغة البلغاء .

والآخر الذى عبر عن إطالة الانسان حبال الأمل وغفلته عن مصيره المحتوم عندما قال :

« كُلُّ امرىءٍ بِطُوَال العيش مَكْذُوب » (المستقصى ٢ / ٢٢٥)

صور لنا الظاهرة المألوفة فى حياة كل منا بصورة بالغة الروعة فى الأداء التعبيرى ، حيث صور لنا ذلك الغافل المخدوع بصورة من يبنى آماله العراض على كذبه كبيرة راح هو ضحيتها ، وأيا كان سبب ذلك الغرور ومنابعه فان كُلاًّمِنا مكذوب عليه ومخدوع عن نفسه ومصيره .

والعربى الأريب الذى أرسل قولته المأثورة :

« لَيْسَ لِلَئيمٍ مِثْلُ الهَوانِ » (الميدانى ٣ / ١٢٤)

أعطانا تجربة إنسانية ثمينة صالحة لكل زمان ومكان ، جربها هو وعركها واستخلص ثمرتها ، وإن شئت أن تجربها أنت فى حياتك فافعل ، فلن تجد وسيلة تعالج بها تطاول اللئيم ودناءته مثل أن تُشْعِرَهُ بالهوان والضعة .

وهكذا يرى المتأمل للأمثال أنه بين منافع شتى ، ونفائش متنوعة ، كلما تجول فى دوحها المعشب انثال عليه جناها الطيب ، ومنحته أكلها فى كل حين .

وأستطيع أن أعرض على القارىء ألوانا من العطاءات العقلية النافعة للأمثال ، تاركا له إدراك دلالتها التعبيرية على ضوء ما قررته فى الفصول السابقة .

طبائع الإنسان :

فى الأمثال القديمة حشد هائل من الأقوال النافعة التى تعد تصويرا صادقا لطبائع النفس البشرية ، واستنتاجا صائبا لدوافع السلوك الإنسانى الذى يرتبط بطبيعة الإنسان فى كل زمان ومكان ، و من تلك الأمثال قولهم :

« أجْلَسْتُ عَبْدى فاتّكأ » (فصل المقال ٣١٤

وهو يصور حقيقة نفسية نلمسها فى علاقاتنا الإنسانية ، عندما يتهاون القيم أو الرئيس مع من له عليه القوامة أو الرئاسة فإن تهاونه وتجاوزه عن بعض الصغائر يترتب عليه تفاقم

الأخطاء والتجاوزات .. وتلك حقيقة يلمسها المسئول فى مرؤسيه ويحسها الأستاذ مع تلاميذه ، ويعايشها الأب فى بيته .. ، وهكذا فى كل نواحى الحياة .

وقولهم :

« عَصَا الجبانِ أطْول » (الميدانى ٢ / ٣٤٥)

وهى أيضا من الحقائق المشاهدة لأنه يرى فى طول العصا غطاء لقصر ثباته وارتعاد فرائصه ، فيحاول التمويه على تلك الحالة النفسية التى يعيشها مع نفسه بإطاله العصا عسى أن تخيف عدوه ، فتوفر عليه عناء المواجهة التى لايستطيعها .

وقالوا :

« رَهَبوتٌ خَيْرٌ من رَحَمُوتٍ » (المستقصى ٢ / ١٠٧)

أى أن تكون مرهوبا مخشى الجانب خير من أن تكون موضعا للرحمة والشفقة لأنك لن تجد الرحمة والإشفاق من الجميع ، ولكنك إن كنت مرهوبا مَخُوفا أجبرت الرحماء والقساة جميعا على احترامك .

وما أعظمها من حقيقة نحتاجها فى حياتنا أفرادا ونحتاجها أمة عبث بها الأعداء ولم تستفد شيئا من تعاطف الرحماء .

وقالوا :

« ومِنَ العَنَاء رياضَةُ الهَرِمِ » (فصل المقال ١٥٧)

وهى حقيقة ملموسة أيضا فالهرم - وهو الذى بلغ من العمر أرذله - لايستجيب فى سهولة للإقلاع عن عاداته الأولى ، ولن يفلح رائضوه فى صرفه عما ألفه ، أو إكسابه عادات جديدة إلا بعد عناء ومشقة . ومن ثم فلتكن محاولات الترويض والتهذيب فى المراحل الأولى ، التى تكون جدوى الترويض فيها مستطاعة وإمكانه فيها هيّناً .

وقالوا :

« النفسُ مُولعة بحُبِّ العاجل » (الميدانى ٣ / ٣٧٢)

وهى حقيقة إنسانية ، بل انها فطرة فى الإنسان أكدها خالقه الأعظم عندما قال : « وكان الإنسان عجولا »[1] .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١١

وقالوا

« ليس عليك نَسْجُهُ فاسحَبْ وجُرَّ » (المستقصى ٢ / ٣٠٦)

ويعنون بذلك الثوب الذى يستعيره أحدهم ولا يرفق فى استخدامه ، غير مبال بما يعرضه له من تلف - لأنه لم يعن نفسه فى غزله ونسجه وحياكته .. وتلك أيضا من الظواهر المأنوسة فى حياة الناس ، وتلمح بخاصة فى سلوك أبناء الموسرين الذين يولدون وأسباب الترف تحيط بهم ذات اليمين وذات الشمال فتراهم - إلا من هدى الله - يتلفون ويخربون غير عابئين بما يضيعون لأنهم لم يتعبوا فى جمعه ، ولم يذقوا طعم الحرمان الذى تنصهر على لهيبه أدرانُ البطر والأشر .

وقالوا :

« ليس لِمَا قَرَّتْ به العينُ ثَمَنٌ » (المستقصى ٢ / ٣٠٧)

فالشىء الذى يسر النفس ويمتع النظر ويشعر الإنسان بأنه يُشبع رغباته ويحقق ما يريد - جدير بأن يقدم الشخص من أجله أنفس ما لديه وألا يباحث فى ثمنه بالغا ما بلغ .

وقالوا :

« وَيْلٌ لِعَالِمِ أَمْرٍ مِنْ جَاهله » (الميدانى ٣ / ٣٤٩)

يعنون أن العالم بأمر من الأمور عندما يماريه جاهل به يشوش عليه ويصخب فما أيسر التشويش والصخب ، وما أكثر ما يعانى أهل الخبرة والعلم من صخب الجهلاء وازدرائهم .

وقالوا :

« لاتَعْدَمُ الحَسْنَاءُ ذَامًا » (فصل المقال ٣٩)

وتلك طبيعة البشر إذ تختلف أذواقهم وتقديرهم لمعايير الحسن وصفات الكمال الإنسانى ، وقد يداخلهم الحسد والحقد فلا تستريح نفوسهم إلى الاقرار للحسناء بحسنها ، والتسليم لها بما منحته من جمال ، وهكذا فى كل شئون الحياة لايعدم أهل التبريز والنبوغ من يذمهم وينتقص أقدارهم ، وينبغى للإنسان العاقل أن يعرف ذلك عندما يعرض للحكم بصدد تلك الظواهر أو عندما يقرأ سير العظماء وما قيل عن النابغين فى شتى فنون المعرفة .

ظواهر الحياة وعواقب الأمور :

وللأمثال فى تقرير حقائق الظواهر الثابتة فى حياة الإنسان ومصائر الأمور باع طويلة

وحرى بنا أن نتأمل تلك المطالعات الإنسانية القيمة التى تعمق خبراتنا فى الحياة ، وتوسع آفاق عقولنا ، وتجعل خطانا أكثر ثباتا وأنأى عن الزلل قالوا :

« الرُّومُ اذا لَمْ تُغْزَ غَزَتْ » (الميدانى ٢ / ٥٧)

فاذا توسعنا فى العبارة وحوّرناها لتغدو معبرّة عن ظاهرة ثابتة فى حيوات الأمم والشعوب ، لوضعنا بدلها عبارة : العدو إذا أحس بضعفك هجم عليك وغنى عن البيان أن تاريخ الإنسانية سواء على المستوى الفردى أم العشائرى أم الدولى يؤكد هذه الحقيقة بما لايدع سبيلا للجدل حولها .

وقالوا :

« ولَكِنّ مَنْ يمشى سيرضى بما رَكِب » (المستقصى ٢ / ٣٨٠)

وهى حقيقة أخرى مقررة لانستطيع حين نقرأ ذلك المثل المصور لها إلا أن يأخذنا العجب كل مأخذ بذلك الصفاء وتلك الشفافية اللذين يبدوان لنا من خلال عبارتها الموجزة البليغة .

وقالوا :

« التجارِبُ ليست لها نِهَاية » (المستقصى ١ / ٣٠٥) .

وصدقوا فيما قالوا ، فحياة العقلاء سلسلة متصلة من الخبرات والتجارب ، التى يستفيدونها من لدن يدركون إلى حين يفارقون الحياة أو تفارقهم عقولهم المتأملة ، وتجاربهم النافعة .

وقالوا :

« النَّظْرةُ الأولى حمقاء » (المستقصى ١ / ٣٥٣)

وذلك فى معرض الحث على التأنى والتروى فى الحكم على الأمور ، فلابد لمن يريد أن يكوّن له رأيا بصدد أمر ما أن يعاود النظر فيه ولايتسرع فى إطلاق الرأى ، سواء أكان ذلك متعلقا بشىء مادى أم بقضية من قضايا الفكر والنظر ، ومع تسليمنا بدور الذكاء والفراسة لايسعنا إلا أن نوافق ذلك العربى الأريب الذى حذرنا من التسرع فى الحكم على الأمور ، لأن التروى والحذر قريبان من السداد وسبيلان إلى الصواب .

وقالوا :

« النَّظَرُ فى العواقب تَلْقِيحُ العُقُول » (المستقصى ١ / ٣٥٢)

وما أعظمها من نصيحة سديدة تدعو إلى صقل العقول ، وشحذ قواها بالنظر فى عواقب الأمور ، وما قد يترتب على المقدمات من نتائج ، استنادا الى الواقائع المشاهدة ، والخبرات المكتسبة ، وهذا النظر هو الذى يلقح العقول ، فينتج عن ذلك التلقيح نتاج قوى يصمد للعواصف ، ويقوى على مجابهة الأخطار .

وقالوا :

« مَنْ لَمْ ينتفع بظَنّه لم ينتفع بيقينه » (المستقصى ٢ / ٣٦٠)

أى من لم يضع للاحتمالات التى من الجائز أن تأتى النتائج موافقة لها ضيَّع جانبا مهما من جوانب طاقاته الفكرية ، لأنه إن انتظر ما تتمخض عنه الأمور ولم ينهض بعمل أو موقف تمليه النتائج المتوقعة - لم ينتفع بيقينه ومعرفته ، فربما تفوته الفرصة لفعل ما يفيده أو تحقيق ما يرجوه .

وقريب من هذا قولهم :

« ظَنُّ العاقل كَهَانَةٌ » (المستقصى ٢ / ١٥٤)

لأن العاقل يبنى ظنونه وتوقعاته على أسس صحيحة ، وكثيرا ما تأتى العواقب موافقة لما توقعه ، فظنه من هذه الجهة شبيه بالكهانة ، التى هى تنبؤ بما يكون فى المستقبل .

وقالوا :

« الأُمورُ تَشابَهُ مُقْبلَةً ولايعرفها إلا ذُو الرَّأيِ ، فاذا أدبرَتْ عرفها الجاهل كما يعرفها العاقل » (فصل المقال ١٣٣)

وهنا تتضح ميزة العقلاء وأهل البصائر النافذة ، لأنهم يستطيعون أن يزنوا الأمور ، ويميزّوا بين الضار والنافع ، فيأخذون للأمر أهبته ، ويُعِدُّون لكل موقف ما يناسبه من سلوك ، أما الجهال فلا يدركون شيئا من ذلك ، ولايعرفون الأمور إلا بعد أن تدبر قواديمها ، وتعبر عليهم أخطارها ، فيجدون أنفسهم على الرغم منهم يعانون آثارها . والعقلاء وحدهم الذين يقدورن مواضع أقدامهم ولاينتظرون إلى أن تفاجئهم العواقب بما يكرهون .

وقالوا :

« ظَنُّ العاقل خَيْرٌ من يقينِ الجاهِلِ » (الميدانى ٢ / ١٤٣)

وذلك فى معرض إظهار قيمة العقل الأريب ونفاسة عطاءاته ، حتى ولو كانت من قبيل الظن ، فهى خير من يقين الجهلاء ، لأن يقينهم مَبْنِيّ على غير أساس ، على العكس من ظنون العقلاء التى تأتى دوما نتيجة تأملات دقيقة وأقيسة منضبطة .

ومن أمثالهم التى تتصل بذم الحرب والتحذير من عواقبها قولهم .

« الحرب غشوم » (المستقصى ١ / ٣٠٥)

« الحرب عشوة » (المستقصى ١ / ٣٠٥)

والعشوة ركوب الأمر بلا بيان . ويضربان في منال الحرب بالمكروه من ليس بالجانى والمثلان كما هو واضح يمثلان حقيقة ملموسة فى تاريخ البشرية قديما وحديثا .

وقريب من ذلك قولهم :

« الشرُّ يَبْدؤه صِغارُه » (المستقصى ١ / ٣٢٦)

يعنون أن منشأ كبيره من صغيره ، فمن الكياسة احتمال الصغير لئلا يؤدى الى الكبير . ويضربونه في « الحلم وكظم الغيظ » .

وقالوا :

« إنَّ خَيْراً من الخير فاعلُه وإن شراً من الشر فاعله » (المستقصى ١ / ٤١٢)

أى أن الخير وإن أعجبنا وسرنا فينبغى أن يكون سرورنا بالإنسان الخيِّر الذى تغلب على نوازع الشر في نفسه وراضها على الخير أشدّ ، وإن الشر وإن استأنا منه وكرهناه فينبغى أن تكون كراهيتنا للإنسان الشرير الذى غلب الشر على نفسه أشدّ ، فليس للخير أو الشر قيمة مطلقة الا بمقدار ارتباط كل منهما بالإرادة الإنسانية صعودا وانحدارا .

وقالوا :

« كُلُّ جِدّةٍ تُبْلِيها عِدّةٌ » (المستقصى ٢ / ٢٣٦)

بمعنى أن كل جديد تذهب جدته وطرافته بمرور الزمن ، فكأن حداثة الجديد ورواءه يبليان على مر الأيام كما تبلى الماديات التى يستهلكها الإنسان ، وهى حقيقة إنسانية ملموسة فى شتى مظاهر الحياة .

وقالوا فى معرض التعبير عن نبذ أسباب القلق والخوف من الأخطار :

« تَهْوِى الدَّواهى حَوْلَهُ ويَسْلَمُ » (المستقصى ٢ / ٣٣)

أى رب متعرض للمخاطر لايصاب منها بأذى . ولعل القارىء يعجب معى من ذلك التجسيم الجميل للدواهى فى عبارة المثل وتصويرها بشىء مهلك يتساقط هاهنا وهاهنا وفى وسط ذلك إنسان تحفظه عنايه الله فلاتصيبه تلك المهلكات ، ويخرج من جحيمها سالما . وهى صورة غاية فى الروعة والتأثير .

وقالوا :

« شَرُّ إخوانك مَنْ لاتُعاتِب » (المستقصى ٢ / ١٢٨)

لأن عتابك لايصدر إلا عن ثقة فى أخيك ، وتأميل منك فى تقبل عتبك ، وإزالة موجدتك عليه ، أما الذى لاتحس بجدوى عتابك له فهو غير أهل للأخوة والخلف بينك وبينه جد بعيد .

وقالوا :

« عادَةُ السوء شَرٌّ مِنَ المَغْرم » (المستقصى ٢ / ١٥٥)

يعنون أن من اعتاد عادة سوء كانت شرا عليه ووبالا مقيما ، لأنه لا يسهل عليه الإقلاع عنها ، وتطل أضرارها تؤثر فيه وتبدد مالديه ، أما المَغْرَم وهو الدَّيْن فإن صاحبه قد يتحمل مشاق تأديته ويسلم من أثقاله ثم يفرغ بعد ذلك لإصلاح حاله ، وتربيب ما يجمعه بكده وجهده ، وصاحب عادة السوء مهما كثر لديه الخير فإن عادته الذميمة تضيع ذلك كله وتقضى عليه .

ومما يدخل فى نطاق البصر بعواقب الأمور وخاصة ما يلحظ فى الأمثال من تنبيه على أهمية التيقظ للعواقب وعدم الانخداع بظواهر الأمور ، أو ماجرت به العادة ، لأن النتائج قد تأتى على غير المتوقع ، وقد لاحظت أن كثيرا من الأمثال المبدوؤة برُبَّ تفيد هذا المعنى ومنها :

« رُبَّ أمنيَّةٍ جلَبتْ مَنيَّة » (الميدانى ٢ / ٥٠)

« رُبَّ حامٍ لأنفه وهو جَادِعُه » (الميدانى ٢ / ٩٢)

« رُبَّ رميةٍ من غير رام » (الميدانى ٢ / ٤٤)

« رُبَّ شَبْعانَ من النِّعَمِ غَرثانُ من الكرم » (الميدانى ٢ / ١٥)

ومعناه رب متخم بالأموال صفر اليدين من المكارم ومحاسن الأخلاق .

« رُبَّ عالمٍ مرغوبٌ عنه ، وجاهلٍ مُستَمَعٌ مِنْهُ » (الميدانى ٢ / ١٥)

« رُبَّ عَجَلَةٍ تهب رَيْثاً » (الميدانى ٢ / ٣٦)

« رُبَّ مُكْثر مستقلٌ لما فى يديه » (الميدانى ٢ / ٤٤)

« رُبَّ مُخطِئَةٍ من الرّامى الذّعَاف » (الميدانى ٢ / ٤٩)

أى رب رمية مخطئة من الرامى المجيد . من قولهم ذعفه إذا سقاه الذُّعَاف وهو السم القاتل .

« رب مَلُوم لا ذَنْبَ لَهُ » (الميدانى ٢ / ٦٥)

« رب مُؤتمن ظَنين ، ومُتَّهم أمين » (الميدانى ٢ / ٦٥)

« رب نَعْلٍ شَرٌّ مِنَ الحفاء » (الميدانى ٢ / ٤١)

« ربّما دَلَّكَ على الرَّأيِ الظُّنون » (الميدانى ٢ / ٦٧)

« ربّما كان السكوتُ جوابا » (الميدانى ٥١)

وأختتم هذه الطائفة من الأمثال بقصة ذات دلالة فى هذا المقام وهى تدور حول المثل :

« رُبَّ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكَلاتٍ » (الميدانى ٢ / ٤١)

حكى الميدانى عن المفضل قال : أول من قال ذلك عامر بن الظرب العدوانى وكان من حديثه أنه كان يدفع بالناس فى الحج ، فرآه ملك من ملوك غسان فقال : لا أترك هذا العدوانى أو أذله ، فلما رجع الملك إلى منزله أرسل إليه أحب أن تزورنى فأحبوك وأكرمك وأتخذك خِلاً ، فأتاه قومه فقالوا : تفد ويفد معك قومك إليه ، فيصيبون فى جنبك ويتجيّهون بجاهك ، فخرج وأخرج معه نفرا من قومه ، فلما قدم بلاد الملك أكرمه وأكرم قومه ، ثم انكشف له رأى الملك فجمع أصحابه وقال : « الرأى نائم والهوى يقظان ، ومن أجل ذلك يغلب الهوى الرأى ، عجلت حين عجلتم ولن أعود بعدها ، إنا قد توردنا بلاد هذا الملك فلا تسبقونى بريث أمر أقيم عليه ولا بعجلة رأى أخف معه ، فان رأيى لكم ، فقال قومه له : قد أكرَمَنَا كما ترى ، وبعد هذا ما هو خير منه ، قال : لاتعجلوا فان لكل عام طعاما ، ورب أكلة تمنع أكلات ، فمكثوا أياما ، ثم أرسل إليه الملك فتحدث عنده ، ثم قال له الملك : قد رأيت أن أجعلك الناظر فى أمورى ، فقال له : إن لى كنز علم لست أعلم إلا

به ، تركته فى الحى مدفونا وإن قومى أضناء بى ، فاكتب لى سجلا بجباية الطريق ، فيرى قومى طمعاً تطيب به أنفسهم ، فأستخرج كنزى وأرجع إليك وافرا ، فكتب له بما سأل ، وجاء إلى أصحابه فقال : ارتحلوا ، حتى إذا أدبروا قالوا : لم ير كاليوم وافد قوم أقل ولا أبعد من نوال منك ، فقال : مهلا ، فليس على الرزق فوت ، وغنم من نجا من الموت ، ومن لاير باطنا يعش واهنا ، فلما قدم على قومه أقام فلم يعد .

ومما تجد ملاحظته أن تلك الخاصية لاتقتصر على الأمثال المبدوءة برب أو ربما بل توجد فى أمثال أخرى كثيرة منها قولهم :

« قَدْ يُؤْتَى على يَدَيِ الحريص » (المستقصى ١ / ١٩٤)

وقولهم :

« مع الخواطِىء سَهْمٌ صَائِب » (فصل المقال ٣٨)

وهكذا نلمس فى هذه النوعية من الأمثال أصالة النظرة الحكيمة لدى العربى ، وابتناءها على أسس واعية من التأمل ، وتفرس بواطن الأمور وعدم الانخداع بظواهرها .

ومن أمثالهم التى تلخص كثيرا من خبرات الحياة الأمثال التالية وليتأملها القارىء مستنتجا مواضع العبرة فى كل منها ، من ذلك قولهم :

« للباطل جَوْلَةٌ ثُمَّ يضمحلّ » (الميدانى ٣ / ١٣٠)

« الخير عادة والشر لجاجة » (ث الميدانى ١ / ٢٤٧)

« ما هلك امرؤ عن مشورة » (الميدانى ٣ / ٢٩١)

« زُر غِبًّا تزدد حُبًّا » (المستقصى ٢ / ١٠٩)

« رُبَّ بَعيدٍ لايُفقد بِرُّه وقريب لايؤمن شره » (الميدانى ٢ / ٦٥)

« لكل أناس فى بعيرهم خبر » (الميدانى ٣ / ٩٠)

« رزقَ الله لاكَدُّكَ » (الميدانى ٢ / ٧٢)

« سَبَّكَ من بَلَّغَكَ السَّبَّ » (الميدانى ٢ / ١٢٢)

« لم يَفُتْ من لَم يَمُت » (الميدانى ٣ / ٩٤)

« الناس بخير ما تباينوا » (الميدانى ٣ / ٣٨٤)

« زَلَّةُ العالم يضرب بها الطَّبل وزَلَّةُ الجاهل يخفيها الجهل » (الميدانى ٢ / ٩٠)

« فَضْلُ القول على الفعل دَناءة وفَضلُ الفعْل على القول مكرُمَة »
(المستقصى ٢ ١٨)

وهكذا ننتهى من استعراض الأمثال الموروثة فى مجال خبرات الحياة إلى أن هذا الجانب فى أمثالنا عظيم الأهمية متنوع العطاء ، يصور بجلاء يقظة العقلية العربية ونباهتها ، ويدل على أن العرب فى عهودهم الأولى كانوا يتصفون بالحصافة وبعد النظر وسداد الفهم ، واستيعاب خبرات الحياة ، وتجارب ذوى الدراية ممن عركوا الحياة وعرفوا كيف يجتازون دروبها الوعرة ومسالكها المحفوفة بالأخطار دون أن تتعثر خطاهم أو تتفرق بهم السبل .

الفصـــل الثـــانى

الأمثال وحسن الاستفادة من المواقف

من الأمور التى حرص العرب على تقريرها والتأكيد عليها فى أمثالهم ، وتعد من الخبرات المهمة المستفادة من تراثهم - الثبات تجاه المواقف الصعبة ، والتماسك مهما كانت الشدائد والبحث الدائب عن حيلة أو مخرج للانسان مما هو فيه من شدة أو كرب ، وألا يفوت العاقل فرصة للاستفادة من الموقف الذى هو فيه أيا كانت درجة الاستفادة .

والحق أن العرب فى هذا الباب قد أثبتوا تحليهم بالسياسة وحسن الحيلة والتلطف فى الأمور لبلوغ المراد بصورة تجعل الطابع العام لفكرهم الاجتماعى والسياسى هو طابع الحكمة وشمولية النظرة ونبذ الجزع والفرق حتى فى أقسى فترات المعاناة .

وترسم الأمثال التى من هذا النوع صورة محببة للشخصية العربية المثلى فى العصور القديمة ، حيث نطالع ذلك الانسان البدائى الذى تلهمه فطرته السليمة وفكره الثاقب ذلك الحشد من الإدراكات النابهة ، وذلك الفيض من بعد النظر وسداد الرأى وصواب الاستنتاج ، وقد رسم العقلاء من العرب صورة جديرة بالتأمل للشخصية المتكاملة التى عرفتها الانسانية على امتداد تاريخها الطويل ، نبلا ومرؤة وإقداما وحصافة وسداد رأى وحسن تأت للأمور ، ورحمة بالضعفاء ونصرة للمظلومين وحماية لمن يطلب الحماية .. ، إلى غير ذلك من الخصال النفسية العالية ، التى كان العربى يحرص على الاتصاف بها ويضحى من أجلها بالنفس والنفيس ، وغدت أملا تغنى به الشعراء وتبارى فى بيانه الفصحاء ، وجرت به الأمثال وصار مطمح كل أبى وغاية كل شريف ومبلغ أمل كل نابه

ولايظن القارىء أننا نزعم له أن العرب جميعا كانوا على حظ واحد من تحصيل هذه الخصال النفسية العالية ولكننا نؤكد أن تلك الخصال كانت محط آمالهم ونصب أعينهم و أهل التبرير والسبق منهم قد حازوا من تلك الصفات ما أربى على الغاية ، وجاراهم فى ذلك أرباب الهمم العالية فنالوا منها ما أكسبهم الفضل وحسن الأحدوثة ، ولم يخل عامتهم

من اكتساب بعضها ، أما من صفرت أيديهم من تلك الفضائل أو جنحوا الى سلوك ما ينافيها فكانوا موضع الزراية والانتقاد ومثلوا فى مجتمعاتهم الصورة الكريهة التى يتحاماها الأسوياء ويأنف منها عامة الناس .

ومن الأمثال التى تدعو إلى التزام جانب الحزم والاستفادة من الموقف المتاح وعدم التضْييع قولهم .

« إلاّ حَظِيّةٌ فلا أَلِيّة » (فصل المقال ١٩٧)

قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى تفسيره : ان أخطأت الحظوة فيما تطالب به ، فلاتأل أن تودد إلى الناس وتداريهم ، لعلك تدرك بعض ما تريد .. وأصل هذا فى المرأة تصلف عند زوجها فلا تحظى . يقول فلا ينبغى لها أن تعينه على سوء رأيه فيها فتهلك ولكن تحبب اليه بما أمكنها .

وما أجملها من نصيحة تكفل للعاقل ألا يقطع الروابط التى تربطه بالناس فيبقى على صلاته معهم حتى ولو لم يظفر فى بعض المراحل بما يريد ، وحتى لو تعرض للجحود والإهمال وبخس الحق ، فحرى به مادام حريصا على الظهور بالمظهر الطيب خَلْقاً وخُلُقاً أن يتحقق للناس فضله ويحصل له من مخالطيه ما يُؤَمِّله .

وقالوا :

« أنْ تَرِدَ المَاءَ بِمَاءٍ أَكْيَسُ » (المستقصى ١ / ٣٧٠)

أى لأى يكون معك بقية ماء ترد بها على ماء آخر خير من أن تُفرط فى حمل الماء ثم تفاجأ بأنّ الماء ليس فى متناولك ، فتتعرض للعطش وربما الهلاك .

وقالوا :

« الفِرارُ بقِرَابٍ أكيس » (الميدانى ٢ / ٤٤٨)

القراب : غمد السيف . والكيس : الفطنة وبعد النظر . ومعنى المثل إذا فاتك أن تنسحب من معركة وبيدك سيفك فخير لك أن تنسحب ومعك قرابه بدلا من أن تعود بلاسيف ولا قراب . وهى دعوة الى الاستفادة من الموقف حتى فى أحلك الظروف وأشدها .

وقالوا فى معرض الحث على الاستفادة من الموقف المتاح أيضا :

« إنْ لَمْ تَغْلِبْ فاخْلِبْ » (المستقصى ١ / ٣٧٥)

أى أن أعوزك الغلب فاخدع عدوك بغية الظفر به . وحكى الزمخشرى جواز أن يكون « اخلب » مأخوذا من مخلب الطائر ويكون معناه انتش شيئا بعد شىء وفى المثل دعوة إلى التوصل للمراد بالحيلة عند إعواز القوة والغلبة .

ومن قبيل ثنائهم على حسن الحيلة وذمهم للحمق والفشل قولهم :

« لو كَاَن ذَا حِيلة لتَحَوَّلَ » (الميدانى ٢ / ٨٣)

وأصله أن رجلا كان يطبخ فى بيت فكثر من حوله الدخان فلم يتحول حتى قتله ، فجعلت أمرأته تقول : أى فتى قتله الدخان فقيل لها لو كان ذا حيلة لتحول . أى لو كان عاقلا لتحوّل من ذلك الموضع فسلم . وفسره الأصمعى قال : أى تحول فى الأمر الذى هو فيه ، يريد لتصرف فيه واستعمل الحيلة .

وقالوا فى مثل آخر يعبر عن القصة نفسها :

« أعجز ممن قتله الدخان » (المستقصى ١ / ٢٣٦)

وقريب من هذا المعنى قولهم :

« المرء يعجز لا المحالة » (المستقصى ١ / ٣٤٦)

أى لاتضيق الحيل ومخارج الأمور الا على العاجز . والمحالة : الحيلة .

وهو من أقوال : أكثم بن صيفى .

وقالوا :

« نَحِّ الجَرْبَى عَنِ العَارّة » (المستقصى ٢ / ٣٣٦)

والجربى هى الإبل التى استشرى فيها الجرب . والعارة : هى التى بدأ ظهور الجرب فيها . ومعنى المثل : أبعد العارة عن الجربى حتى لايعمها الجرب ويستفحل فيها الوباء . وهو يضرب فى مفارقة صاحب السوء الذى أعداك ببعض دائه حتى لايعديك بكل .

وسخر العرب من الرجل الذى يعرض نفسه للمهالك ويدنو من الشر وهو عنه بمعزل فقالوا :

« كالمُتَمَرِّغِ فى دَمِ القتيل » (المستقصى ٢ / ٢١٠)

وأدرك العربى أن الرجل الذى يهاب الناس ويستحى من غشيان مجالسهم ومشاركتهم فيما تضطرب به حياتهم يكون أدعى الى الحرمان وأبعد عن إصابة حظه من الرزق . فقالوا :

« قُرِنَ الحرمانُ بالحياء » (المستقصى ٢ / ١٩٧)

وقالوا :

« قُرِنَتْ الهَيْبةُ بالخَيْبة » (المستقصى ٢ / ١٩٧)

وفى باب السياسة وسعة الحيلة وحسن التأتى للأمور .

قالوا :

« إذا نَزَلَ بكَ الشر فاقْعُدْ » (فصل المقال ١٩١)

أى الزم الحلم ولاتسارع إلى الشر .

وقالوا فى التوصل إلى المراد بالحيلة :

« تَلَبَّدِى تَصِيدِى » (فصل المقال ١٤٦)

والتّلبّد : اللصوق بالأرض لختل الصيد . ومعنى المثل احتل تتمكن وتظفر .

وقالوا :

« ليس من القُوة التورّط فى الهُوّة » (المستقصى ٢ / ٣٠٨)

أى ليس من شجاعة الرجل أن يقحم نفسه فى المخاطر إنما هى لمن يحتال لتخليصها إذا أوقعت فى المهلكة .

وقالوا :

« الحَزْمُ سُوءُ الظن بالناس » (الميدانى ١ / ٣٦٩)

ويروى هذا المثل عن أكثم بن صيفى

ومثله قولهم :

« حُسْنُ الظَّنّ وَرْطَة » (الميدانى ١ / ٣٨١)

وهكذا تتراءى لنا الشخصية العربية من خلال هذه الأمثال شخصية أريبة ، بعيدة النظر ، واسعة الحيلة ، تعرف كيف تتلطف لمرادها ، وكيف تتغلب على ما يصادفها من مشكلات، وما يعرض لها من أزمات ، فما أبعد تلك الروح عما يشاع عن العرب الأقدمين من سفه وطيش !!

الفصل الثالث

الأمثال وواقع حياتنا

على الرغم من أن الأمثال القديمة إرتباطت إلى حد كبير بالبيئات التى انتشرت فيها وظهرت فى ربوعها ، إلا أنها تنطوى على كثير من القيم الباقية على تبدُّل العصور والأزمان وبخاصة تلك التى تصور ميول الإنسان ونزوعاته وتتعقب سلوكه وطباعه ، وتقدم له تأسيساً على ذلك النصح ، وتضع يديه على مفاتيح السلوك الصحيح ، وتحذِّره من مخاطر كثيرة تكتنف تعامله مع الآخرين فى خِضَمّ العلاقات الإنسانية ، والروابط الاجتماعية ، وهذه الأمور تأخذ طابع الإستمرار لأن الإنسان هو الإنسان منذ آدم إلى أن تقوم الساعة ، فيه الخير والشر ، والوفاء والخيانة ، والصدق والكذب ... إلى غير ذلك من الفضائل والرذائل التى صبحت مسيرة الإنسانية منذ طفولتها الأولى .

ومن ثم تغدو للأمثال أهمية كبرى بحسبانها نمطاً فكرياً عظيم القيمة يتضمن تجارب السابقين وخلاصة خبراتهم فى قضايا الحياة وعلاقات الناس بعضهم ببعض وحسب الإنسان العاقل أن يستفيد من عطاءات الأمثال فهى رافد مهم من روافد الخبرات الإنسانية النافعة . وإذا كان الناس يقدرون أهمية الخبرة العملية فى مجالات العمل المختلفة فإن الأمثال تلخيص لخبرات سنين عديدة بل أدهار متصلة .

فالعربى الذى لَخَّص لنا فى موضوع سوء الجوار والأذى الذى يتعرض له بعض الناس من جيران السوء ، قد وضع أيدينا على تجربة صادقة وعبر عنها تعبيراً مؤثراً فى قوله :

« لا ينفعُكَ من جَارِ سُوءٍ تَوَقٍّ »

(الميدانى ٣ / ١٩٢)

فمهما حاول الإنسان اتقاء جار السوء ومدراته وتجنب شروره فإنه لا يسلم مع ذلك كله من أذاه ، ولابد أن يفتعل جار السوء ما يُوصل به شروره إلى من حوله . وقد أكدَّ هذه

الحقيقة مثل آخر من أمثالهم وإن كان يصور الفكرة فى مرحلة تالية . وهى مرحلة الهروب من جار السوء وترك البقعة التى تقله حيث قال عربى آخر :

« بعتُ جارى ولم أبع دارى »

(الميدانى ١٨١)

وما أحكمها من عبارة تصور ذكاء العربى وحسن تعبيره عن الأفكار ، فهذا لم يكره من داره ما يدعوه إلى بيعها وإنما كره جيرانها فباعها من أجلهم ، فهو لم يبع الدار بل باع الجار . على سبيل السخرية ويتبع تصوير هذه الظاهرة المقلقة التنبه لأهمية الجوار والدعوة إلى تفقد الإنسان لمن سيكونون جيرانه .

وفى أمثالهم المأثورة :

« الجارَ ثُمَّ الدَّار »

(الميدانى ١ / ٣٠٧)

ويروى عن النبى ﷺ

ويستطيع من يطيل تفرس الأمثال القديمة واستلهام عطاءاتها النافعة أن يهتدى إلى فيض من التجارب الإنسانية العظيمة التى يحتاجها الإنسان فى حياته وفى تعامله مع الآخرين ، ولا أزعم أنه سيجد فى الأمثال ما يُتَلَقَّى على سبيل الحتم وكأنه أمر مفروغ من صوابه ومصداقيته ، ولكن يمكنه الاستفادة بما ينطوى عليه من تجربة نافعة أو دعوة إلى التريث فى الحكم على الأمور .

ويمكننا أن نطلع القارىء على صور من هذه التجارب التى تحفل بها الأمثال وباستطاعتنا أن نستفيد منها فى حياتنا الحاضرة :

١ - فى الأمثال القديمة دعوة متكررة إلى الحث على العمل وتحمل مشاقه وترك الشواغل التى تعوق إتمام الأعمال المهمة والسعى الحثيث لانجازها على خير وجه وبخاصة فى أيام الشباب والمراحل المبكرة من العمر ، وقد حذرت الأمثال من التراخى والتواكل وأبانت مخاطر العجز والتوانى ، وما أخطرها من ظواهر تهدد حياتنا الحاضرة ، وبخاصة فى أوساط الشباب الذين يقضى - أكثرهم - زهرة عمرهم فى لهو وعبث . دون تطلع إلى هدف سام أو أمل مرموق ، ولا ريب أن مصدر كثير من متاعبنا القومية

يعود فى كثير من جوانبه إلى اشتشراء روح التراخى وفقدان الرغبة فى العمل الجاد والابتكار النافع ، والإشتغال بما من شأنه رفعة الأمة وسبقها ولا شك أن الروح العامة السائدة فى مجتمعاتنا العربية الحاضرة لا تقدم النموذج الأمثل للإنسان المتوثب إلى الرفعة والسبق كما كان الحال فى مجتمعاتنا العربية القديمة التى أغرم أبناؤها بالتفوق والسبق وربوا أبناءهم على تلك الروح ، ومن ثم بذوا غيرهم وارتفعوا على هام العُلاَ ، فى اعتزاز زائد بأنفسهم ، وتقدير موضوعى لميزاتهم الأخلاقية والنفسية ، فسادوا غيرهم ، وعاشوا أعزاء أقوياء .

ومن الأمثال التى تحث على الجد فى الأمور قولهم :

« خُذْ الأمر بقوابله »

(الميدانى ١ / ٤١١)

أى بمقدماته ، يعنون دَبِّر الأمر قبل أن يفوتك تدبيره . وهذه دعوة إلى عدم تفويت الفرص المناسبة فى حينها . وما أعظمها من نصيحة يحتاجها الإنسان وتحتاجها الأمم على السواء .

وقالوا فى الدعوة إلى الجد وترك الصغائر :

« بِغَيْرِ اللّهو تَرْتَتِقُ الفُتُوقُ »

(الميدانى ١ / ١٨٤)

فعندما يراد إصلاح أمر مضطرب أو تدارك خطأ قائم فإن إصلاح تلك الفتوق ورأب الصدع لا يكون باللهو والعبث بل بالجد والتشمير .

وقالــوا :

« أَوْلى الأمورِ بالنجاح المواظبَةُ والإلحاح »

(الميدانى ٣ / ٤٤٦)

وقالــوا :

« اطْلُبْ تَظْفَرْ »

(الميدانى ٣ / ٢٩٤)

وقالـــوا :

« عَدْوَكَ إذْ أنْتَ رُبَع »

(الميدانى ٢ / ٣٥٨)

وقالوا في دعوة منهم إلى تحقيق السبق والحفاظ على مكان مرموق بين علْية القوم وصدر المجتمع :

« إيَّاك والسآمَةَ فى طلب الأُمور فتقذ فك الرجال خَلْفَ أعْقَابها »

(الميدانى ١ / ١٢٩)

ودعوا إلى تحمل المشاق والصبر على المكروهات فى سبيل تحقيق الآمال والتمرس بالخبرات النافعة حتى ولو أصاب الإنسان بسببها العناءُ والمشقة فلا ينبغى للإنسان أن يجزع من ذلك لأن عواقب الصبر على تلك المشقات سيكون سعادة دائمة ، أما الذين يطلقون لشهواتهم وملذاتهم العنان ولا يطيقون الصبر على الشدائد فإنهم لن يفلحوا فى شىء وسيطول شقاؤهم مقابل تلذذهم القليل فى مبدأ أمرهم قالوا :

« أمْرَ مُبْكيا تِكَ لا أمر مُضْحكاتكَ »

(المستقصى ١ / ٣٦٢)

ومعناه : أطلع من يأمرك بالصلاح وإن أباك لثقله عليك ، ولا تطع أمر من يدعوك إلى الفساد وإن أضحكك لإعجابك به . وهذا المثل يضرب فى النهى عن إتباع الهوى . وقيل هو أنصح مثل قالته العرب ، وأصله أن غلاماً قال : أتيت خالاتى فأضحكننى وأمْرَحْنَنِى وأتيت عماتى فأبكيننى وأحزنَّنى ، فقيل له ذلك أى إن العمات أنصح .

ومع هذه العناية من العرب القدماء فى أمثالهم بالدعوة إلى الجد فى الأمور والصبر على تكاليفها وأعبائها ، فإنهم كانوا أصحاب فطرة إيمانية تدرك أن الظفر بالمراد لا يتم إلا بمشيئة الخالق الأعظم ، وما على الإنسان إلا أن يسعى ويبذل قصارى جهده ويسأل الله عز وجل التوفيق . فقد قالوا :

« رِزْقَ الله لا كَدُّكَ »

(الميدانى ٢ / ٧٢)

أى أن ما أصابك ويصيبك من الخير ليس بكدك وكسبك يصير إليك وإنما يقدره لك مقسم الأرزاق ومقدر الحظوظ وقد قالوا فى مثل قريب من ذلك :

« جدك لا كدك »

(الميدانى ١ / ٣٠٦)

أى حظك المقسوم لك هو الذى يصيبك وليس كدك وحده هو الذى يضمن لك الظفر . وصوروا هذا المعنى فى صورة حسية تقرب مضمونه فقالوا :

« ما كُلُّ رامِى غَرَضٍ يُصِيب »

(الميدانى ٣ / ٢٦٢)

٢ - من الوصايا التى نستفيدها من الأمثال الأمر بالمشاورة والاستئناس فى مهام الأمور برأى أهل التجربة والمشهود لهم بسداد الرأى ورجاحة العقل ، ولا ريب فى أن الإنسان لا يستطيع أن ينفرد فى كثير من الأمور باجتهاده الخاص دون أن يشاور إخوانه ويسترشد بآرائهم ، وقد وردت وصايات كثيرة تحث على وجوب المشاورة فقد قالوا :

« أولُ الحَزْمِ المَشُورة »

(الميدانى ١ / ٨٧)

ولا ريب أن قناعة العقلاء فى عصرنا الحاضر قد تعلقت بالشورى وهى المأثرة التى أرساها الإسلام الحنيف وإعتدها أساس الحكم وملاك الأمر ، فضيَّعها المسلمون ، وتمسك بها غيرهم من الأوربيين فسادوا وبذوا فى كثير من الميادين إذ جعلوا االساس الحكم عندهم للشورى أو ما يسمونه « الديموقراطية »

وقالـــوا :

« ما هَلَكَ امرؤٌ عن مشورة »

(الميدانى ٣ / ٢٩١)

وقالــوا :

« عِلْمان خَيْرٌ مِنْ عِلْم »

(الميدانى ٢ / ٣٥٢)

ويضرب فى مدح المشاورة وتقليب الرأى فى الأمر ، وأصله كما يذكر الميدانى أن رجلاً وابنه سلكا طريقاً فقال الرجل : يا بنى استبحث لنا عن الطريق (أى تأكد من الوجهة التى يؤدى إليها) فقال الولد : إنى به عالم فقال الرجل : يا بنى علمان خير من علم . أى لأن تضيف إلى علمك الأول علماً حادثاً خير من اكتفائك بمعرفتك السابقة التى ربما داخلها الظن أو الشبهة .

« النظر فى العواقب تلقيح العقول »

(المستقصى ١ / ٣٥٣)

ومعناه أن تدبر عواقب الأمور ، ووضع الاحتمالات لما يمكن أن يحدث نتيجة لمقدماتها هو الذى ينمى قدرات العقل الإنسانى ويوسع مداركه ، وكأنه اللقاح الذى تتولد منه الأفكار المستنيرة والتوقعات الصائبة .

واعتدوا اكتساب الإنسان للتجارب والخبرات هدفاً يُضحى من أجله ويطلب بحد ذاته فقالوا :

« لَمْ يَضِعْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظَكَ »

(الميدانى ٣ / ١١٢)

أى أن ما تفقده من مالك إذا كان لك منه استفادة وتجربة تجنبك ما وقعت فيه من أخطاء فإن ذلك لم يضع هدراً ولم يذهب باطلاً . طالما أعقبه وضوح رؤية ومعرفة بالحياة والناس .

٣ - من العطاءات المهمة للأمثال بيان أهمية مواجهة الأمور الصعبة والمواقف الخطرة بالسياسة وحسن الحيلة ، وعدم التصلب والجمود إزاء الشدائد والملمات ، وتلك لعمرى من الدعوات المهمة التى يحتاجها الأفراد والجماعات فى كل العصور والأزمان ، وقد دعت الأمثال إلى العمل الجاد والسعى الحثيث نحو تحقيق الأهداف وقهر الأعداء ، مما ينبغى على العقلاء التزامه ، فإن الثرثرة والتوعد بالقول لا تجدى شيئاً فى أمثال تلك الأمور . فقد قالوا :

« الصِّدْقُ يُنْبِى عَنْكَ لا الوعيد »

(الميدانى ٢ / ٢٢٣)

وقالوا :

« الطَّعْنُ يظْأَر » (الميدانى ٢ / ٢٨٦)

ومعناه أن قهرك للخصم هو الذى يضطره الى أن يسالمك وينزل على إرادتك وهومن قولهم : ظَأَرتْ الناقة : اذا عطفت على ولد غيرها .

وقالوا فى تأكيد هذا المعنى :

«لا أبوك نُشِرَ ولا التراب نَفِذَ » (الميدانى ٣ / ١٦٣)

وقصته أن رجلا قُتِل أبوه فقال : لو علمت أين قُتِل أبى لأخذت من تراب موضعه فجعلته على رأسى ، فقيل له ذلك . أى أنك لاتدرك بهذا ثأر أبيك ولاتقدر أن تنفد التراب .

وسخروا ممن سرقت إبله وسيقت دون أن يصنع شيئا فى سبيل ردها سوى أن يسب سارقيها فرددوا مقالته تعبيرا عن التهكم بها والتندر بقائلها حيث قال :

« أوسَعْتُهم سَبًّا وأودوا بالإبل » (الميدانى ٣ / ٤٢٦)

٤ - تطلعنا الأمثال على حقيقة أبدية وهى أن الحق صوته أقوى وأنه لابد مهما طال اهتضامه أن يعود إلى نصابه . وصوروا هذا المعنى فى معارض بديعة فقالوا :

« للباطل جَوْلَةٌ ثُمَّ يضمحل » (الميدانى ١ / ١٢٤)

أى أنه يغطى ضوء الحقيقة حتى لايظهر لها بصيص يتعلق به أصحاب الحق ، ثم يتلاشى رويدا رويدا فيعود للحق سطوعه وتلألؤه وقالوا فى قريب من ذلك :

« سَهْمُ الحقِّ مريشٌ » (المستقصى ١ / ٣١٧)

أى أن الحق واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار أما الباطل فانه متردد يعتوره الظلام ويكتنفه الغموض بعكس الحق الذى تستريح له النفوس وتطمئن إليه القلوب .

وقالوا فى الدعوة إلى الأحتيال لظفر الإنسان بما يريد :

« تلبدى تصيدى » (الميدانى ١ / ٢٢٤)

وفيه دعوة إلى الاحتيال ريث التمكن والظفر .

وقالوا :

« إن لم تَغْلِبْ فاخلب » (المستقصى ١ / ٣٧٥)

أى ان لم تتمكن من الغلب فعليك بالترفق فى الوصول الى ما تريد أن أعيتك القوة والغلبة .

ومن دلائل زكانة العرب وفطنتهم أنهم كانوا يعرفون كيف يتصرفون فى المواقف المختلفة فمع اشتهارهم بالجرأة والإقدام إلا أنهم كانوا لايقدمون إلا عندما يكون الاقدام حزما ، أما إذا كان الإقدام خطارا غير مأمون العواقب فذلك ما كرهوه وحذروا من مغبته واعتدوه تهورا وحمقا .

فقال فى أمثالهم :

« ليسَ مِنَ القُوة التورُّطُ فى الهوة » (المستقصى ٢ / ٣٠٨)

وقالوا فى دعوة واحد منهم الى الاستفادة من الاعوان والأنصار ومصانعة الخصوم ارتقابا للوقت المناسب للتخلص منهم :

« آخِ الأكفاءَ وادهِنْ الأعداء » (الميدانى ١ / ١٣٢)

ألاما أبرعها من سياسة وما أحكمها من مبادى تلك التى أرسها أولئك الذين يتصورهم بعض أهل عصرنا سذجا أميين . وهم فى الحقيقة أرجح عقولا وأرزن فهوما من كثيرين مم يتصدرون مجتمعاتنا ويحركون مصائر الناس بلا بصيرة ولارُشاد !!

ولعل من أبلغ ما يمكن أن يصور حسن السياسية وسعة الحيلة فى صراحة بعيدة عن التنميق والتزويق قولهم فى أمثالهم :

« الغدر فى بعض المواطن أكيس » (المستقصى ١ / ٣٣٧)

فقد يكون من الحكمة ويغدو من الكياسة اللجوء الى الغدر فى مواجهة اللئام من الأعداء الذين لايقدرون الوفاء ولايرعون عهدا ولاذمة ، وأمثال هؤلاء إن وفيت لهم جنيت على نفسك ، ولابد أن تأخذهم على حين غرة لتوقع بهم وتحقق أهدافك ، ومن هذا المثل يتضح لنا أن العرب لم يكونوا يقفون جامدين أما المثل الأخلاقية ، بل كانت لهم نظرة واقعية للأمور بعيدا عن المثاليات التى لاتوجد فى بعض الأحيان إلا فى عقول الفلاسفة .

ولعله قد أتضح لنا من خلال ماسقناه فى هذا الفصل أن قيمة الأمثال القديمة من ناحية ما تنطوى عليه من عطاءات حكمية يحتاجها الإنسان فى حياته - لاتقتصر على الأزمنة الماضية بل تمتد زاداً إنسانيا حافلا تستطيع الأجيال العربية الحاضرة والمستقبلة أن تعتمده رافداً مهما من روافد التجارب التراثية النافعة ، وأساسا راسخا من أسس الشخصية العربية العاقلة ، ذات الوعى المستبصر ، التى تأخذ من ماضيها مايعينها على حاضرها وينير دربها إلى المستقبل الراشد فتنتعش من عثراتها وتتخلص مما يكبلها من أغلال .

البــــاب الرابع

الأمثال والشخصية العربية

الفصل الأول : ملامح الشخصية العربية على ضوء الأمثال القديمة

الفصل الثانى : أثر الإسلام فى الشخصية العربية .

الفصل الثالث : الشخصية العربية .. التراث ، والواقع ، والأمل !

الفصل الأول

ملامح الشخصية العربية على ضوء الأمثال القديمة

عرضنا فى الأبواب المتقدمة أبرز دلالات الأمثال القديمة وقيمها الأدبية والفكرية ، وتعرفنا فى أثناء ذلك العرض على كثير من عادات العرب ، ومثلهم ، وأخلاقهم ، ورأينا أن الأمثال من أهم الفنون التى يمكن للباحثين على ضوئها أن يستقوا عادات الشعوب ، وأخلاقها ، وطباعها ، فيعرفون من أمثالها ما تحب وما تكره ، ويقفون على ما يسعدها ويشجيها ، وما يحفظها ويثير نقمتها . بحسبان الأمثال لصيقة بحياة الناس ، ولبدة معاناتهم اليومية ، فيها خبرة الحياة ، وتجارب الحكماء ، ووصايا المجربين ، بل إنها مقياس صادق لوجدان الأمة بشتى طبقاتها ومختلف فئاتها ، إذ منها ما هو من أقوال العقلاء النبهاء ، ومنها ما هو للعامة والدهماء ، وفيها ما قالته الرجال والنساء ، والأحرار والعبيد ، والفرسان والرعاة ، والملوك والصعاليك ، والشعراء والصناع والأجراء .. فهى تمثل وجهات شتى ، وتيارات متباينة ، تنبض بشعور هؤلاء وهؤلاء ، وتصور موقف كل فريق ورؤيته لظواهر الحياة فى مجتمعهم الواحد ، الذى تقلهم أرضه ،وتظلهم سماؤه ، ويتأثرون بأجوائه ، ويتفاعلون مع معطيات بيئته .

والشخصية العربية التى أعنيها فى هذا الفصل : هى مجموع الصفات النفسية ، التى تشكلت منها مثاليات القوم وأخلاقهم ، وغدت هدفا مطلوبا لهم يحرصون على بلوغه . وتحددت على أساسها أنماط سلوكهم ، وتشكلت انطلاقا منها مواقفهم العامة من ظواهر الحياة وأحداثها

لقد كانت هده الصفات المميزة للشخصية العربية هى سر تفوق العرب على أنفسهم . وعلى قسوة بيئتهم . فلما اختارتهم العناية الإلهية لحمل مشعل الدعوة الإسلامية الغراء وقعت مبادىء تلك الدعوة على أرضية أخلاقية صلبة . فأدهشت تلك الأمة بما تكشف من أصالتها ومعالم قوتها وما اجتمعت عليه من هدى العالم القديم . وما تزال ذكريات مجدها مبعث عجب للأجيال الخالفة على مر العصور

ان الشخصية العربية التى برزت فى مجتمع العرب الأقدمين فى الجاهلية ومع مطلع الاسلام تتطلب منا مريداً من الدرس والبحث على أسس جديدة . وبممهوم جديد . فقد تضررت صورة تلك الشخصية مع أسلوب التعميمات الخاطئة . والأحكام المتسرعة التى روج لها بعض مؤرخينا الأقدمين ، بزعم أن كل ما كان فى رمن الجاهلية ضلال وهمجية ، وفساد وانحطاط ،. وروج لها فى العصور الحديثة كتاب الغرب الناقمون ، وانساق فى هذا الاتجاه كثير من كتابنا المعاصرين ، كما ألمحنا إلى ذلك فى حديثنا عن الدلالة التاريخية للأمثال .

إن الأمم تتمايز بصفاتها النفسية ، ومثالياتها المرعية ، وقد توارث العرب الأقدمون صفات كانت مبعث قوتهم ، وأساس سؤددهم ، وبقوا قبل البعثة ما شاء الله لهم أن يبقوا فى جزيرتهم لايُحس بهم أحد ، ولايُحسب لهم حساب فى ميزان الأمم ، فلما شرفهم الله بالإسلام ، وجمعهم على كلمته ، واتصلوا بالأمم المجاورة يدعونها لدين الله ، وينشرون بينها هدايته ظهرت أصالتهم ، واستبان للعالمين كرم عنصرهم ، وعظمة نفوسهم ، وروعة شخصيتهم ، بعد أن كانوا لايرون لهم فضلا ، ولايحفلون بهم .

إن إبراز سمات الشخصية العربية هو الثمرة التى نهدف اليها من دراستنا للأمثال ، ففى تلك السمات تكمن أسباب قوة العرب ، وعوامل تفوقهم على خصومهم الذين كانوا أعرق منهم مدنية ، وأرسخ قدما فى العمران . وإذا نحن أبرزنا تلك الصفات ووعينا أبعادها ، أصبح بإمكاننا أن ندل عرب اليوم على مفاتيح السيادة والظفر ، ومناط العز والرفعة التى امتلكها آباؤهم الأولون وأضاعوها هم فضاعت عزتهم ، وتقهقرت دولتهم ، وفقدوا نبوغهم وسؤددهم !!

لقد عاش العرب قبل الإسلام حياة اجتماعية وأخلاقية على جانب عظيم من الأهمية على الرغم من توزعهم فى أنحاء جزيرتهم وكثرة صراعاتهم فيما بينهم ، وقسوة بيئتهم عليهم ، ومع ذلك كله جمعتهم مشاعر وصفات واحدة ، ونمت فى بيئاتهم ميول وعادات واحدة ، ونجم لديهم مثل أخلاقية عليا ، اعتمدوها وحرصوا عليها ، وغدت بمرور الزمن من موروثاتهم الاجتماعية .

والأمثال القديمة ترسم بلاريب الخطوط الرئيسية للشخصية العربية على أساس أنها فى شتى صورها تمثل القيم ، وتشير إلى المعايير التى صدر القوم عنها فى مختلف شئون الحياة ، وسواء أكان المثل يسوق نصيحة إنسانية عاقلة ، أم يصور حادثة مشهورة فى قصتها عبرة للمعتبرين ، أم يسخر من ظاهرة غير سوية - فإن هده الجوانب جميعها تتلاقى عند

عاية واحدة ، هى : كيف يكون السلوك الأمثل . وكيف يكون التصرف السديد تجاه مواقف الحياة . وفى مواجهة مشكلاتها ، وفى كيفية التعامل مع تيارات صراعها الأبدى بين قوى الخير والفضيلة ، وفلول الشر والرذيلة .

ألا إن بعث ركائز شخصية العرب الأقدمين أمر مهم فى حياتنا الحاضرة ، وبخاصة فى تلك المرحلة القاسية من مراحل صراع أمتنا مع أعدائها المتربصين ، بغية التزود من عبر التاريخ ، والإصاخة لصوت ماضيه الناطق بالأصالة والنبل ، علنا نلتمس منفذا للخلاص من أزمتنا الراهنة ، والقضاء على معوقات مسيرتنا المظفرة بحول الله .

وبعد أن بينا ما نعنيه بالشخصية العربية ، وما يحفزنا لدرسها نعرض أهم ملامحها المستقاة من الأمثال القديمة فى النقاط التالية :

١ - النزوع للحرية :

وهى سمة رئيسية من سمات الشخصية العربية قديما ، وقد ارتكزت عليها كثير من مآثر العرب وطباعهم وأحداث حياتهم ، لقد عاش العرب الحرية بأوسع معانيها ، وأروع صورها ، إذ غدت جزءا لايتجزأ من طباعهم وعنصرا مهما من عناصر وجودهم كالماء والهواء ، فما عرفوا الخضوع لبشر ، ولا استكانوا لضيم ، ولا انقادوا لطاغية مهما تبلغ قوته وسطوته . فان وقع لهم شَئْء من ذلك على الرغم منهم ، احتالوا للخروج منه ، وانتقموا لكرامتهم شر انتقام .

ومن طرائف ما يحكى عنهم فى الأنفة وعدم الخضوع ما روى من أن أعرابيا سئل كيف تقول : استخذأت أو استخذيت ؟ قال : لا أقوله قيل : ولم ؟ قال لأن العرب لاتستخذى[1] . ومعناه أن العرب لاتخضع .

لقد ساعدت بيئة العرب وطبيعة حياتهم على تأصل الشعور بالحرية والميل إليها فى نفوسهم ، ولصوقها بشخصيتهم ، لأن عدم تعقد حياتهم ، وقلة ما تتطلبه من حاجات جعلهم يمارسون حريتهم واستقلالهم على أوسع نطاق ، فلم يضطروا الى المصانعة أو الخضوع ، فيستطيع العربى الذى تعتمد حياته أساسا على الرعى أن يجد لنفسه وإبله الموطن المناسب ، بعيدا عن سيطرة الطغاة وبطشهم ومن ثم لم يتسامح العربى فى قضية حريته

---

(١) عيون الأخبار ١ ، ١٩٤

واستقلاله تحت أى صغط . فما أيسر ما يتحول عن البقعة التى يشعر أنه صائر فيها إلى الذل ومصطر فيها الى الخنوع ، بل إنه لم يكن يحول بينه وبين التمتع بحريته حائل ، حتى لقد تصطره تلك الإرادة الحرة إلى أن يخرج على قبيلته ويخالف إجماعها ، وربما يطلب حماية قبيلة غيرها إذا تعارض رأى قبيلته مع رأيه وتصادمت إرادة القوم مع إرادته . ومظاهر هذه النزعة فى الشخصية العربية كثيرة ، فأخبار تمرد العربى على القيود التى تكبل حريته أو تنتقص من استقلاليته مستفيضة ، ومن يتأمل صراعات العرب وخصوماتهم يدرك أن جلها كان مبعثه هذه الرغبة فى التمتع بالحرية والاستقلال والأنفة من الخضوع والانقياد مهما تكن الأخطار ، ومهما يبلغ الصراع من أجل تلك الغاية السامية .

وقد مر بنا كثير من الأمثال والأخبار التى تؤكد هذه السمة المهمة من سمات الشخصية العربية ، ونثبت هنا بعضها على سبيل التذكير بها ، ومنها :

« تَجُوع الحُرَّةُ ولا تأكل بثدييها » (الميدانى ١ / ٢١٥)

وقد نسبه أبو عبيد إلى أكثم بن صيفى حكيم العرب المشهور فى الجاهلية ونسبه الميدانى الى الحارث بن سليل الأسدى وهو جاهلى أيضا .

ومعنى المثل : أن الحر يتحمل المشاق ولايقبل كسبا خسيسا ، ولايعطى الدنية من نفسه .

ومن ذلك أيضا قولهم :

« الحُرُّ حُرٌّ وإنْ مَسَّه الضُّر » (الميدانى ١ / ٣٦٩)

وهو من أقوال أكثم بن صيفى أيضا .

والحر فى لغة العرب خلاف العبد والحر أيضا الكريم الأصل والعنصر فكأن العرب اشتقوا من الحرية وصفا للشخص الكامل الأهلية المستقل الإرادة ، فى مقابل العبودية التى تعنى الخضوع وفقدان الإرادة المستقلة .

ومن الأمثال التى تؤكد نزوع العرب للحرية وكراهية الذل والخضوع قولهم :

« المَنِيَّةُ ولا الدَّنِيَّة » (الميدانى ٢ / ٣١٧)

- وقولهم

« الموتُ السَّجِيجُ خير من الحياة الذميمة » (الميدانى ٢ / ٣١٧)

واستتبع نزوع العرب للحرية ميلهم للصراحة والصدق . وهى جميعها خصال ينتج بعضها من بعض ويتطلب بعضها بعضا . وقد رأينا أن العرب عدوا الصدق فضيلة لأنه يدل على العزة وسمو النفس ، وعدوا الكذب رذيلة لدلالته على خسة صاحبه وانحطاط شأنه . فقالوا فى أمثالهم :

« الصدق عز والكذب خضوع » (الميدانى ٢ / ٢٤٠)

وقالوا فى التعبير عن تقديرهم للصدق والصراحة :

« سُبَّنِى واصدق » (الميدانى ٢ / ١٢٢)

٢ - الولوع بالفضائل والمحامد :

وهو مَعْلَمٌ بارز من معالم الشخصية العربية ، وقد رأينا فى الفصل الذى عقدناه للدلالة الأخلاقية للأمثال كيف بنى العرب حياتهم على مثاليات فاضلة وكيف كانت نظرتهم للخير والشر .

والحق أن العرب من أحرص الأمم على الفضيلة ، وأكثرها اعتدادا بالخلال المأثورة ، والصفات المحمودة ، وكانوا يبذلون من أموالهم وأنفسهم فى سبيل كسب الأمجاد ، وتحقيق المآثر مالم تشبههم فيه أمة ، أو يساميهم فيه شعب .

لقد ورث العربى من بيئته شمائل كثيرة منها الميل للفضائل الإنسانية والرغبة فى الاتصاف بها ، وكراهية الرذائل ، والنفرة من وصمتها وعارها ، ويمكننا أن نؤكد أن العربى لم يكن يحرص على متاع الحياة وأطايبها بقدر حرصه على حيازة الفضائل ، والانتساب إلى المحامد التى تكسبه طيب الثناء ، وحسن الأحدوثة . ومن ثم رأينا التعلق بالمحامد والتسابق للمكرمات يحتل حيزاً مهما فى النفس العربية ، ويحرك نوازعها ، ويوجه سلوكها .

وعلى الرغم من أن بعض ما كان يعتقده العرب فى الجاهلية من المناقب والمحامد أبطله الاسلام وحرمه ، فان هذه الأمور التى أولعوا بها كان لها دورها المهم فى حياتهم التى اعتمدت على المكاثرة والقوة ، وتطلبت إرهاب الخصوم ، وفرض النفوذ . كل ذلك فى سبيل التمتع بالحرية الكاملة وعدم التعرض للذل والهوان . وسنرى أنهم بعد أن شرفهم الله بالإسلام ، وصار لهم دستور ينظم حياتهم

التزموا جانب العدل ، وابتعدوا عن الجور والعدوان ليقين كل منهم بأن حقه لن يهضم ، وكرامته لن تضام .

« ومن المهم كثيرا أن نفهم أن المجتمع العربى قبل الإسلام لم يكن مجتمعا مثاليا (يوتوبيا) ، وإنما كان مجتمعا إنسانيا واقعيا عمليا ، فيه الأخيار والأشرار . وفيه اللصوص والنبلاء ، وفيه الكرماء والبخلاء ، وفيه الشجعان والجبناء ولكن المهم أيضا أن عرفهم الأخلاقى لم يسو بين الخير والشر ، أو بين المعروف والمنكر ، أو بين الحسن والسيء ، وإنما انتصر للبر والمعروف للخير ، ودعا اليه وناضل من أجله ، وتلك هى الميزة الكبيرة التى تعطى عرفهم الأخلاقى قيمته الإنسانية »[1] .

٣ - قوة العارضة وحسن البيان :

وهما صفتان متلازمتان فى الشخصية العربية ، ومعدودتان من أهم مقوماتها التى اشتهرت بها ، سواء فيما بين العرب أنفسهم أم مع من اختلط بهم من الأمم

لقد كان العربى يعد البيان المؤثر أحد أسلحته الفعالة فى مواجهة خصومه ، وأداة طيعة لنيل مآربه ، وتحقيق مكانة سامية له بين الناس ، وعندما كان العرب يستسقطون شخصا ويودون التدليل على وضاعته وهوان شأنه كانوا يقولون :

« **لا أصلَ له ولا فَصْلَ** » (الميدانى ٣ / ٢٠٥)

فكأنه عدم المزية من كلا جانبيها المهمين ، فلاحسب يتعلق به ويعتز بالانتساب إليه ، ولا فصل أى لسان مبين يرفع من قدره بين الناس .

ولم تكن تلك السمة مقصورة على فئة بعينها أو طبقة بذاتها ، بل كانت عامة فى كثيرين من العرب ، رجالا ونساء ، شبابا وشيوخا ، ولذا عددناها سمة من سمات شخصيتهم ، لتعويلهم عليها ، واهتمامهم الشديد بها .

لقد كانت تلك الميزة القولية تخلص العربى من مشكلات كثيرة ، وكانت تكفيه فى بعض الأحيان مؤونة اللجوء إلى السلاح ، وقد عرف العرب ذلك من أنفسهم فقالوا :

« **رُبَّ قَوْلٍ أَشَدُّ مِنْ صَوْلٍ** » (الميدانى ٢ / ٢٩)

وقالوا :

---

(١) ملامح من دور الاسلام فى بناء العمارة (الحضارة) العربية ص ٦٣٤

« رُبَّ قَوْلٍ يَبْقَى وسْمَا » (الميدانى ٢ / ٦٩)

وقد أورد الميدانى فى تفسير المثل الأخير خبرا طريفا قال « قالوا أن أول من قال ذلك أعرابى . وكان رث الحال . فقال له رجل يا أعرابى والله ما يسرنى أن أبيت لك ضيفا . قال الأعرابى فوالله لو بت ضيفا لى لأصبحت أبطن من أمك قبل أن تلدك بساعة . إنا إذا أخصبنا فنحن اكل للمأدوم . وأعطى للمحروم ، ولرب قول يبقى وسما ، قد رده منا فعال تحسم دما . فذهبت من قوله مثلا » .

والوسم : العلامة التى تمير الشىء فيشتهر بها . فكأن مقصده أن الكلام قد يبقى عالقا بالأذهان مرتبطا بمن نعت به ونسب إليه . وهذا تأكيد لأهمية الأقوال بالنسبة للعربى حتى ولو لم تكن الأقوال صحيحة أو مصورة للواقع ، وهذا ما كان يجعل العربى يخشى تأثيرها ويخاف وصمتها .

وفى قصص الأمثال أخبار مستفيضة تكشف عن طبيعة هذه الميزة لدى العرب ، وتبين تقديرهم لها ، وخشيتهم من وقعها ، وقد كان العربى ذا عارضة قوية ، يفحم خصمه . ويلجم من يتطاول عليه . وفى قصة المثل

« إنَّ أَخِي كانَ مَلِكِي » (الميدانى ١ / ٧٢)

نطلع على هذا النمط من الردود المفحمة ، والأجوبة البليغة ، وخلاصة القصة أن أبا حنش التغلبى لما أدرك شرحبيل عم امرىء القيس ، وكان شرحبيل قتل أخا أبى حنش قال يا أبا حنش اللبن اللبن ! أى خذ منى الدية ، فقال له أبو حنش : هرقت لبنا كثيرا ، أى قتلت أخى . فقال له شرحبيل : أملكا بسوقه ؟ أى أتقتل ملكا بدل سوقه ؟ فقال أبو حنش : « إنَّ أخى كان ملكى » !!

وأكتفى فى هذا المقام بأن أنقل للقارىء قصة مثل من الأمثال القديمة . أرى أن فيها غنية عن الإطالة فى التدليل على اتصاف العربى بقوة العارضة وحضور البديهة وفاعلية البيان .

حكى الميدانى فى قصة المثل :

« قَدْ قِيل ذلكَ إنْ حَقًّا وإنْ كَذِباً » (الميدانى ٢ / ٤٩٢)

قال : إن أول من قال ذلك النعمان بن المنذر اللخمى للربيع بن زياد العبسى وكان له صديقا ونديما ، وإن عامراً ملاعب الأسنة وعوف بن الأحوص وسهيل بن مالك ... بن

ربيعة وشماسا الفزارى وقلابة الأسدى قدموا على النعمان . وخلفوا لبيداً يرعى إبلهم . وكان أحدثهم سنا ، وجعلوا يغدون الى النعمان ويروحون . فأكرمهم وأحسن نزلهم . غير أن الربيع كان أعظم عنده قدراً ، فبينما هم ذات يوم عند النعمان إذ رجز بهم الربيع وعابهم وذكرهم بأقبح ماقدر عليه ، فلما سمع القوم ذلك انصرفوا إلى رحالهم ، وكل إنسان منهم مقبل على بثه ، ورَوَّح لبيد الشول ، فلما رأى أصحابه ومابهم من الكآبة سألهم : مالكم : فكتموه ، فقال لهم : والله لا أحفظ لكم متاعا ولا أسرح لكم إبلا أو تخبرونى بالذى كنتم فيه . وإنما كتموا عنه لأن أم لبيد امرأة من بنى عبس ، وكانت يتيمة فى حجر الربيع ، فقالوا : خالك قد غلبنا على الملك وصد بوجهه عنا ، فقال لبيد : هل فيكم من يكفينى الإبل وتدخلونى على النعمان معكم فواللات والعزى لأدعنه لاينظر إليه أبدا ، فخلفوا فى إبلهم قلابة الأسدى ، وقالوا للبيد : أو عندك خير قال سترون ، .. فخرج القوم وهو معهم حتى دخلوا على

النعمان وهو يتغدى والربيع يأكل معه ، فقال لبيد : أبيت اللعن أتأذن لى فى الكلام فأذن له ، فأنشأ يقول :

يــارُبَّ هيجــا هى خير من دعــه   أكُــلَّ يــوم هـــامتى مُقَزَّعــــة
نحن بنــو أم البنين الأربعـــة   ونحن خير عــامر بن صعصعـه[1]
المطعمــون الجفنــة المُـدعـدعـه   والضاربون الهام تحت الخيضعه[2]
يــا واهب الخير الكثير من سعـه   إليــك جــاوزنــا بــلاداً مَسْبَعَــه
نُخْبِر عن هــذا خبيرا فــاسمعـه   مهـلا أبيت اللعن لاتــأكـلْ معـه
إن استـــه من برص مُلَمَّعــــه   وإنــه يُــدخــلُ فيهــا إصبعــه
يُـدِخلُها حتى يــوارى أشجعــه   كــأنــه يطلب شيئــا أطمعــه[3]

ويروى « ضيعه » . فلما سمع النعمان الشعر أفف ، ورفع يده من الطعام ، وقال للربيع : أكذلك أنت قال : لا ، واللات لقد كذب ابن الفاعلة . قال النعمان : لقد خبث على طعامى ، فغضب الربيع وقام وهو يقول :

---

(١) بنو أم البنين هم : عامر وطفيل . وربيعة ، وعبيدة ، ومعاوية . أبناء مالك ابن جعفر بن كلاب . وهم خمسة فجعلهم لبيد أربعة من أجل القافية . وفى تعديد الميدانى لأسمائهم اضطراب والذى ذكرناه عن المعارف لابن قتيبة ص ٨٩

(٢) الجفنة : القصعة الكبيرة . والمدعدعة : المملوءة . والخيضعة : البيضة

(٣) الأشجع : أصول الأصابع التى تتصل بالكف

لئن رحلتُ زكابي إن لى سعة   ما مثلها سعة عرضا ولا طولا
ولو جمعتُ بنى لخم بأسرهم   ما وازنوا ريشة من ريش سمويلا[1]
فابْرُق بأرضك يانعمان مُتَّكئاً   مع النطاسى طوراً وابن توفيلا[2]

وقال لا أبرح أرضك حتى تبعث إلى من يفتشنى فتعلم أن الغلام كاذب . فأجابه النعمان

شرد برحلك عنى حيث شئت ولا   تُكثر على ودع عنك الأباطيلا
فقد رميت بداء لست غاسلهُ   ما جاوز النيل يوماً أهلُ إبليلا[3]
قد قيل ذلك إن حقا وإن كذباً   فما اعتذارك من شىء إذا قيلا

ومعنى المثل : « قد قيل ما لزمك عيبه عند بعض السامعين له فمتى اعتذرت لم تمح ما استقر فى نفوسهم »[4] .

٤ - رسوخ النزعة الإيمانية :

وهذه الخاصية هى التى منحت الشخصية العربية ثباتا واتزانا و أستطيع أن أؤكد أنها من أهم ركائز هذه الشخصية ومنها وحولها يدور معظم ما للعرب من خصال نفسية رفيعة ورسوم أخلاقية سامية .

فقد كانت تلك النزعة الايمانية هى التى تدفع العربى الى أن يشمخ بأنفه ، وينطلق فى الحياة بخطوات أوثق ، وأقدام أثبت ، غير مبال بما يعترضه من صعاب وما يكتنف حياته من أخطار ، كانت النزعة الإيمانية وراء ما عرف به العرب من صبر وشجاعة ، ووفاء وأمانة ، وعيرة وأنفة ، وصراحة وصدق ، إلى غير ذلك من خلال النبل وفضائل الأخلاق .

لقد أيقن العربى بالجزاء ، وهو إن يكن فى جاهليته قد اضطرب فى فكره معنى البعث والجزاء الأخروى بمفهومه الإسلامى الصحيح - فقد آمن بلون آخر من الجزاء هو الجزاء

---

(١) سمويل أخذ أجداد الربيع ، وهو فى الأصل اسم طائر
(٢) النطاسى وابن توفيل روميان كانا ينادمان النعمان
(٣) إبليل قرية بجنوب مصر (معجم البلدان)
(٤) الزاهر فى معانى كلمات الناس لأبى بكر الأنبارى ٢ / ١٨٩

بحسن الأحدوثة ، والاشتهار بالفضائل ، وأيقن أن متاع الحياة يفنى ولايبقى للانسان منها الا الذكر الحسن ، والسيرة المرضية .

ويخطىء من يظن أن حياة الجاهلى قد خلت تماما من الإيمان بالخالق الذى يدبر الكون ويقدر الأرزاق ، ويقسم الحظوظ ويفيض الخيرات . فتراث العرب القديم حافل بما يبطل ذلك التصور ، وشرك العرب كما قرر العلماء لم يكن أصيلا فيهم ولا ديدنا لهم ، بل كان الإيمان هو منهاجهم ممثلا فى شريعة أبى الأنبياء إبراهيم . ثم تسلسل الشرك إلى العرب بتقادم الزمن وبعد العهد ، ولايستطيع عاقل أن يفسر عقائد العرب الجاهلية بمنأى عن هذه الحقيقة ، وعلى الأخص تقديسهم للبيت العتيق ، وقصدهم إليه من كل فج عميق ، تلبية لدعوة أبيهم إبراهيم ، الذى سماهم المسلمين من قبل كما حكى القرآن الكريم .

وقضية إيمان العرب بالله عز وجل من القضايا المختلطة فى أذهان كثير من المسلمين ، وبسبب ذلك يساء كثيرا للعرب قبل البعثة المحمدية ، ولو أفضنا فى هذه القضية لخرجنا من موضوعنا واحتاج الامر إلى بحث مستقل ، وقصارى ما نريد تقريره هنا هو أن العرب قبل البعثة كانوا أهل دين ، وأن النزعة الإيمانية لازمتهم فى مختلف مراحل تاريخهم الطويل ، إلا أن عقيدتهم تعرضت فى المرحلة السابقة على ظهور البعثة المحمدية للتشويه والانحراف ، إذ عرفت الوثنية طريقها اليهم من جيرانهم ، والروايات متضافرة[1] على ذلك . اكتفى هنا باثبات احداها وهى عن أبى هلال العسكرى فى الأوائل قال تحت عنوان : « أول من غير الحنيفية وبحر البحيرة وسيب السائبة وجعل الوصيلة والحامى : عمرو بن لحى قال :

وهو عمرو بن ربيعة ، أبو خزاعة ، وهو أول من ولى البيت منهم ، ثم رحل الى قومه بالشام ، ورأى الأصنام تُعبد ، فأعجبته عبادتها ، فقدم مكة بهبل، ودعا الناس الى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية ، فأجابه الجمهور ، وأكره من لم يجبه ، حتى استمر له ما أراد منه وقال النبى ﷺ « اطلعت فى النار فرأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فيها » والقصب : المعى .

وكان الأصل فى عبادة الأوثان أن قوما من الأوائل اعتقدوا أن الكواكب تفعل أفعالا تجرى فى النفع والضر مجرى أفعال الإله على حسب ما يعتقده بعض أهل التنجيم فاتخذوا

(١) يراجع فى ذلك بلوغ الأرب للآلوسى ونهاية الأرب للنويرى والمفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي واقتضاء الصراط لابن تيمية

عبادتها دين . وأراد ملوكهم ورؤساؤهم توكيده فى أنفسهم . والزيادة فيه عندهم . وذلك ان الملك يحتاج إلى الدين كحاجته إلى المال والرجال . لأن الملك لا يثبت إلا بالبيعة . والبيعة لا تكون إلا بالإيمان . والإيمان لا يكون إلا لأهل الأديان . إذ لا يصح أن يحلف الرجل إلا بدينه ومعبوده . ومن لا يعتقد معبوداً لا يوثق بيمينه . ولا يطمأن الى عهده وعقده . إلى غير ذلك مما يتعلق من أمر الملك بالدين . فصنعوا لهم الأصنام على صور الكواكب التى يعبدونها بزعمهم ، ليشاهدوها من قرب ، فتحلو فى نفوسهم وتزكو محبتها فى قلوبهم ، ثم انتشر ذلك فى أكثر الأرض ، وعم جل الأقاليم ، وسمعت المشايخ يذكرون أن بعض المراكب أخطأت السمت فى بعض البحار حتى انتهى أهله إلى جزيرة ، وإذا فيها ناس لم يعرفوا قط أن فى الأرض إنساً غيرهم ، وعُرف بدلائل المكان أن أحدا منا لم يخلص إليهم قط ، واذا هم يعبدون الأصنام ووقفوا من جهتهم بالإشارة الى أن السبب الذى دعاهم الى عبادتها هو الذى ذكرناه فى أمر الكواكب . وهذا من أعجب ما فى الباب . والله اعلم .

وزعمت العرب أنها تعبد الأصنام لتشفع لها عند الله . وهذا مثل ما حكى عن بعض السؤال أنه كان يقول : اللهم أرزق الناس حتى يعطونى . فقال له أبو الحارث ، حمير : مالك تسأل الله سفتجه[1] بالرزق ، سل الله يرزقك . وكان ينبغى للعرب أن يعبدوا الله ليرحمهم ، ولايحتاجون إلى إقامة شفيع[2] .

بل ان العرب « عرفوا الله تعالى باسمه الصحيح وهو الله الذى تفردت به العربية وليس له نظير فى أى لغة أخرى ، وهو اسم علم على ذات الإله سمى الله تعالى به نفسه ، ولم يشرك العرب فى لغتهم مع الله تعالى فى هذا الإسم المفرد أحداً من آلهتهم التى عبدوها ، وكذلك عرفوا أن الله تعالى هو الرب المالك لكى شىء ولم يشركوا معه فى هذا الملك أحدا من الآلهة التى عبدوها .[3]

ومظاهر النزعة الإيمانية فى حياة العرب الأقدمين ، وفى تراثهم الأدبى كثيرة ، وتأثيراتها فى شخصيتهم عميقة ، فقد قالوا فى أمثالهم :

« جَدُّكَ لا كَدُّكَ » (فصل المقال ٢٣١)

---

(١) السفتجة أن يعطى مالا لاخر وللاخر مال فى بلد المعطى فيستوفيه إياه ثمّ فيستفيد أمن الطريق

(٢) الأوائل ١ / ٩٨ ٩٩

(٣) ملامح من دور الاسلام فى بناء العمارة العربية د محمد رشاد خليل

وورد المثل بعبارة

« رِزْقُ الله لاكَدُّك » (الميدانى ٢ ٧٢

وكلها تدل على توكل على الله عز وجل وإيمان بأن الرزق والنفع والضر وسائر ما يصيب الإنسان من لدنه سبحانه .

ومن الأمثال التى تحكى عن سليك بن سلكه قوله :

« أعوذ بك من الخيبة فأما الهيبة فلا هيبة » (الميدانى ٢ ٣٥٢)

ومعناه : أعوذ بك اللهم من أن تخيبنى فى قصدى ، فأما الهيبة فلا أخافها لأنى لست هيابا .

وهكذا يتضح لنا أن العرب صدروا فى حياتهم وسلوكهم عن تلك النزعة الإيمانية ولعلها كانت من أهم أسس الأخلاق الفاضلة عندهم ، فلاخنوع ولاخوف من مخاطر الحياة ، ولاجزع من صروفها ، لأنهم يوقنون بأن ما يصيب الانسان مقدر عليه . فمهما حاول أن يحصل من أسباب الخير فلن يناله الا ما هو مقسوم له ، ولو ذهبنا نتتبع ذلك فى الآثار المروية عن العرب وبالأخص الشعر الجاهلى لتشعب بنا القول فحسبنا الاشارة الى ما ورد من ذلك فى الأمثال .

وتبدو هذه النزعة الراسخة فى وجدان الشخصية العربية كذلك من الأمثال التى يرددها العرب فى الدعاء سواء للإنسان بالخير أم عليه بالشر ، فكلها نراها موجهة إلى الله تعالى ، وهذا دليل على رسوخ العقيدة الإيمانية عند العربى ، ولجئه الدائم إلى الله فى أحواله كلها ، فهو النافع الذى يطلب منه الخير ، وهو الضار الذى يقدر على الضر لمن يشاء

ومن أمثالهم فى الدعاء بالخير :

« عرفتنى نسأها الله » (الميدانى ٢ / ٣٢٨)

والنسوء : التأخير ، ومعناه : أخَّر الله أجلها .

وأصل المثل فيما رواه الأصمعى : أن رجلا كانت له فرس فأخذت منه ، ثم رآها بعد ذلك فى أيدى قوم ، فعرفته فجمحت حين سمعت كلامه ، فقال الرجل . عرفتنى نسأها الله ، فذهبت مثلا .

ونسبه بعضهم لبيهس الملقب بنعامة وحكيت له قصص أخرى

ومن أمثال الدعاء بالخير أيضا قولهم :

« بلغ الله بك أكلأ العمر » (الميداني ١ / ١٩٣)

ومعناه : بلغك الله أطول العمر

وفي التعوذ من المكروه قالوا :

« نعوذ بالله من القُلّ بعد الكُثْر » (الميداني ٣ / ٣٨٥)

والقل : القلة والكثر : الكثرة .

أي نعوذ بك من زوال النعمة .

وفي الدعاء على الآخرين قالوا :

« أباد الله خَضْراءَهُم » (الميداني ١ / ١٨١)

قال الأصمعي : معناه أذهب الله نعمتهم وخصبهم ، ومنهم من يقول : أباد الله غضراءهم ، أي بهجتهم وحسنهم ، يأخذونه من الغضارة بمعنى البهجة والحسن .

ومن ذلك أيضا الأمثال التالية :

« رماه الله من كل أكمة بحجر » (الميداني ٢ / ٦٤)

الأكمة : الربوة تتألف من الحجارة .

« رماه الله بليلة لاأخت لها » (الميداني ٢ / ٦٤)

يعنون ليلة يموت فيها .

« رماه الله بِدَيْنِه » ١٠٤١(الميداني ٢ / ٦٤)

وهو الموت أيضا لأن الموت دين على كل إنسان ، سيقضيه إذا حان وقته .

« رماه الله بثالثة الأثافي » (الميداني ٢ / ٢٤)

وهي القطعة من الجبل يوضع إلى جانبها حجران وينصب عليها القدر ، فتصير الأ[illegible] الثالثة هي الجبل ، والمراد الدعاء عليه بداهية شديدة تعدل في ثقلها الجبل .

« رماه الله بأَخْبَى أقوسَ » (الميداني [illegible])

الأحبى الأقوس : الداهية الممارس من الرجال

« رماه الله بأفعى حارية » (الميدانى ٢ / ٦٣)

وهى الأفعى التى نقص جسمها من الكبر . ويقال إنها لاتبقى لديعها بل تقتل من ساعتها .

ومن أمثالهم فى الدعاء كذلك قولهم :

« لاترك الله له فى الأرض مَقْعَداً ، ولا فى السماء مَصْعَدا » (الميدانى ٣ / ٢٠٦)

لقد أيقن العرب قبل البعثة بأن الله عز وجل هو الخالق الرازق النافع الضار وقد حكى القرآن عنهم هذا الاعتقاد فى غير موضع من سوره . ففى قضية خلق الإنسان والكون يقول عز وجل :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله [1])

(ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله [2])

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله [3])

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم [4])

وفى قضية الرزق أيضا حكى القرآن عنهم يقينهم بأنه سبحانه مانح الرزق ومقدره يقول :

(قل من يرزكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون [5])

ولم يكن للأوثان فى اعتقاد العرب الا أنها تقرب إلى الله بزعمهم . كما حكى القرآن الكريم عنهم قولهم :

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦١ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٦٣ .

(٣) سورة [illegible] ، الآية [illegible] .

(٤) سورة الزخرف ، الآية [illegible] .

(٥) سورة يونس ، الآية [illegible] .

ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى [1]

وفى قصة المثل :

« لقد ذل من بالت عليه الثعالب » (الميداني ٣ / ٢٩٢)

ما يؤكد أن من العرب من كانوا يدركون فى بعض الأحيان أن هذه الأصنام لاتملك ضرا ولانفعا . وقد ذكر الشراح أن رجلا من العرب فى الجاهلية كان نصب صنما بقرب بيته فجاء ثعلب فبال عليه فقال فى ذلك :

أرَبٌّ يبـول الثعلبـان برأسـه   لقد هان من بالت عليه الثعالب

وينسب البيت لعباس بن مرداس السلمى ، وبعضهم ينسبه لأبى ذر الغفارى قاله فى الجاهلية[2] .

٥ - استلهام الحكمة وتقدير خبرة المجربين :

وهو ملمح أساسى فى تكوين الشخصية العربية ، فقد أفادتهم طبيعة حياتهم ومعطيات بيئتهم كثيرا من حقائق الحياة ، فاتسم فكرهم بالشفافية ، وعمق النظرة وشموليتها ، وصياغة التجارب الكثيرة فى عبارات موجزة ، تغدوا زاداً إنسانيا على مر الزمن ، وتلك من الملكات التى يودعها الخالق عز وجل فى طباع البشر والتى يفطرون عليها ، فلم يكن للعرب حكمة مدونة ، ولاكتب يرجعون إليها ، ولامعلمون يتلقون عنهم ، بل استلهموا تلك الحقائق الخالدة من عبر الحياة وتجاربها ، وحفظوها كما يحفظون أنسابهم ، بل توارثوها كما يتوارثون عاداتهم وتقاليدهم . وبقيت تلك المعارف والأقوال زادا خصبا يضيف إليه العقلاء ، ويرفده الحكماء على الدوام بزاد من التجارب النافعة والنظرات الثاقبة حول مختلف شئون الحياة

لقد كان استلهام الحكمة وتقدير خبرة الحكماء وأهل التجربة والنظر من عوامل قوة الشخصية العربية ، لأن العربى كان يتعامل مع مواقف حياته من منطلق واع ومن خلال موروث فكرى على جانب عظيم من الأهمية ، وكان ذلك أساسا مهما لحياة إنسانية خصبة ، بعيدة عن المعاناة ، وخالية من إهدار الإنسان لكثير من

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٣ .

(٢) فصل المقال ١٥٨

طاقاته فى « التجربة والخطأ » بما يترتب على ذلك من مخاطر ، وما قد يعقبه من مضار .

ومما يؤكد اهتمام العرب بالحكمة والتجربة حرص كل فريق منهم على أن يكون لهم حكيم مجرب ذو رأى وبصر ، يرجعون اليه يلتمسون عنده الرأى ويستضيئون بحكمته وتجربته .

ومن أشهر هؤلاء : أكثم بن صيفى ، وعامر بن الظرب العدوانى ، وقيس بن زهير وهناك كثيرون غيرهم ، أكتفى فى هذا المقام بأن أفرد بالحديث واحدا مهم هو :

أكثم بن صيفى :

وهو أكثم بن صيفى بن رياح بن الحارث بن مخاشن التميمى [١] حكيم العرب فى الجاهلية وأحد المعمرين ، عاش زمنا طويلا وأدرك الاسلام ، والمحققون على أنه لم يسلم [٢] ، وإن كان بعضهم يورد خبرا مفاده أنه قصد الرسول فى مئة من قومه يريدون الاسلام فمات فى الطريق وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه[٣] ، وأنه المعنى بالآية الكريمة : (**ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله**)[٤] .

ويبدو من بعض الروايات أن أكثم عندما سمع خبر البعثة أراد أن يفد على الرسول ﷺ فعارضه قومه ، قائلين له : أنت كبيرنا لم تكن لتخف اليه ، فأرسل إليه من يسمع منه ويعرف خبره ، ولم يقض لأكثم أن يلقى رسول الله ولا أن يسلم . ولكن ما قاله عندما بلغه خبر الرسول وما نصح به قومه يدل دلالة قوية على ميله إلى الاسلام ورغبته فيه .

حكى الصفدى فى الوافى بالوفيات بعد أن ذكر معارضة قوم أكثم له فى الوفود على الرسول ﷺ قال : « فانتدب رجلان فأتيا النبى ﷺ فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك : من أنت ، وما أنت ، وبم جئت فقال : أنا محمد بن عبد الله ، وأنا عبد الله

---

(١) أسد الغابة ١ / ١١٣

(٢) حكاه الصفدى عن ابن عبد البر قال : لايصح إسلام أكثم بن صيفى الوافى بالوفيات ٩ / ٣٤٣

(٣) الأعلام للزركلى

(٤) سورة النساء الآية ١٠٠

ورسوله ، ثم تلا عليهم هذه الآية « ان الله يأمر بالعدل والأحسان » الآية[1] فأتيا أكثم فقالا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب ، واسطا فى مضر ، وقد رمى إلينا كلمات فحفظناهن . فلما سمعهن أكثم قال : أى قوم ، أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رؤساً ولا تكونوا أذنابا ، وكونوا فيه أولا ولا تكونوا فيه آخرا . فلم يلبث أن حضرته الوفاة »[2] .

وحكى الميدانى فى قصة المثل :

« وَيْلٌ للشَّجِىِّ مِنَ الخَلِىِّ » (الميدانى ٣ / ٤٣٣)

خبراً مطولا نسبة إلى المدائنى ومحمد بن سلام الجمحى حول موقف أكثم : من الإسلام وحشد فيه كثيرا من أقواله التى سارت مسير الأمثال ، وأنا أنقله فى هذا المقام لأهميته قال :

وكان من حديثه أنه لما ظهر النبى عليه الصلاة والسلام بمكة ودعا الناس إلى الاسلام بعث أكثم بن صيفى ابنه حبيشا ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال : يابنىَّ تميم ، لاتُحضِرونى سفيها فإن من يسمع يخلِ ، إن السفيه يوهن من فوقه ويثبت من دونه ، لاخير فمين لا عقل له ، كبرت سنى ودخلتنى ذلّة ، فاذا رأيتم منى حسنا فاقبلوه ، وإن رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم ، إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلي توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو اليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه ، إن أحق الناس بمعونة محمد صلى الله عليه وسلم ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقا فهو لكم دون الناس ، وان كان باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه ، وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته . وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمدا ، فكونوا فى أمرة أولا ، ولاتكونوا آخرا .

ائتوا طائعين قبل أن تأتوا له كارهين ، ان الذى يدعو إليه محمد ﷺ لو يكن دينا كان فى أخلاق الناس حسنا ، أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لاتنزع منكم أبدا ،

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠

(٢) الوافى بالوفيات ٩ / ٣٤٢

وأصبحتم أعز حي في العرب ، وأكثرهم عددا ، وأوسعهم دارا ، فإني أرى أمرا لايجتنبه عزيز إلا ذل ، ولايلزمه ذليل إلا عز ، إن الأول لم يدع للآخر شيئا ، وهذا أمر له ما بعده ، من سبق إليه غمر المعالي ، واقتدى به التالي ، والعزيمة حزم ، الاختلاف عجز ، فقال مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم ، فقال أكثم : ويل للشجي من الخلي ، ولهفي على أمر لم أشهده ولم يسعني .

وهذا الخبر قد يتشكك فيه بعض القراء للوهلة الأولى لما فيه من عبارات إسلامية مسوقة على لسان أكثم مثل .. يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ومثل ترديده عبارة صلى الله عليه وسلم عند ورود اسم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولكن ذلك لايقدح في مضمون الرواية - على ما أرجح ، فكثيرا ما كان الرواة يتدخلون في مثل هذه الروايات ، يغيرون عباراتها ، ويضيفون إليها ، وبعضهم يرويها بالمعنى ، والميداني على الرغم من نفاسة كتابه ، وكونه أكبر ما وصل الينا من موسوعات الأمثال لم يكن دقيقا في بعض النقاط ، ولعل قارىء هذا الكتاب لحظ ذلك في بعض تعليقاتنا على رواياته أو عند ما نقارن بين ما أثبته وما رواه غيره من أصحاب كتب الأمثال .

وجملة القول أن أكثم بن صيفي من أعظم حكماء العرب ، وأقواله التي تدل على حكمة وتجربة كثيرة ، ولعله أكثر الشخصيات العربية التي أثرت عنها أمثال في العصر الجاهلي ، وتعد الأمثال المنسوبة إليه بالعشرات منها الأمثال التالية :

« لم يَضِعْ مِنْ مالك ما وعظك » (الميداني ٢ / ١١٢)

« مَنْ لَمْ يأس على مافاته أراح نفسه » (الميداني ٢ / ٢٦٣)

« من عَتَبَ على الدهر طالت مَعْتَبَتُه » (الميداني ٢ / ٣٣٦)

« أول الحزم المشورة » (الميداني ١ / ٨٧)

« الحزم حفظ ماكُلِّفْتَ وترك ماكُفِيتَ » (الميداني ١ / ٣٦٤)

« من جعل لنفسه من حسن الظن بإخوانه نصيبا أراح قلبه » (المستقصى ٢ / ٣٤٥)

« رضا الناس غاية لاتُدْرَك » (الميداني ٢ / ٤٧)

« رب مَلُوم لاذنب له » (الميداني ٢ / ٥٦)

« أراني غَنِيًّا ما كنتَ سَوِيًّا » (الميداني ٢ / ٦٩)

يعني بالمثل الأخير أن الغنى في الصحة .

ومن الأقوال الحكيمة التي حكيت عن أكثم قوله :

« ما يسرني أني مكفى أمر الدنيا . قيل : وإن أَسْمَنْتَ وأَلْبَنْتَ قال نعم . أكره عادة العجز .[1]

وأمثال أكثم من أروع الأمثال العربية القديمة ، وأنطقها بالحكمة وسداد الرأى وخبرة الحياة ، وهى نمط رارقٍ من الأمثال فى مضمونها وصياغتها .

وبعد هذه الوقفة مع أخبار أكثم أعود للتدليل على ميل العرب للحكمة وتقديرهم للخبرة وأمثالهم فى ذلك وقد سبق منها فى هذه الدراسة الكثير ، ويمكن أن تعد الأقوال الحكيمة أو الدالة على بصرٍ نافذ ، ورأى ثاقب أكثر ما تتضمنه كتب الأمثال أسوق هنا طائفه منها :

قالوا فى التدليل على أهمية الخبرة والمراس بشئون الحياة وعواقب الأمور ، وضرورة الاستفادة من المجربين :

« رأى الشيخ خَيْرٌ من مَشْهَدِ الغلام » (الميدانى ٢ / ٣٣)

ويحكى المثل عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال في بعض حروبه .

ومعنى المثل : أن رأى الشيخ ومشورته الصائبة وإن كان غائباً خير من حضور الشاب بقوته وإمكاناته ، لأن رأى المجرب كثيرا ما يكون مجديا ومحتاجا اليه أكثر من قوة الغلام وبأسه .

وقالوا :

« عِلْمانِ خَيْرٌ من عِلْم » (المستقصى ٢ / ١٦٧)

وقالوا :

« السعيد من وُعِظَ بغيره » (فصل المقال ٢٣٠)

وقالوا :

«ومن العناء رياضة الهرم » (فصل المقال)

وهو شطر بيت من الشعر تمامه :

---

(١) عيون الأخبار ١ / ٢٤٦

أتروض عرسك بعد ما هرمت ومن العناء رياضة الهرم

وقالوا :

« لاتَغْزُ إلا بغلام قد غزا » (المستقصى ٢ / ٢٥٧)

وقالوا :

« عَبْدُ غيرك حُر مثلك » (المستقصى ٢ / ١٥٧)

وهذه النوعية من الأمثال تبلغ عدتها الآلاف فحسبنا ما ذكرنا منها ، وهى بلا ريب ناطقة بميل العقلية العربية لاستلهام الحكمة والحرص على معرفة رأى أهل الخبرة وأصحاب التجربة .

٦ - تمجيد القوة وحب التفوق :

وهما صفتان متلازمتان فى تكوين الشخصية العربية ، وهما مرتبطتان بالحرية التى ألفها العربى ، وعاشها بأوسع معانيها .

ومن الطبيعى أن تتصادم رغبات العرب ، وتتعارض مجالات حرياتهم ، بحسبانهم عاشوا فى جماعات مستقلة ، ولم تشملهم دولة واحدة تنظم حرياتهم ، وتوازن بين رغباتهم ، ولم يكن العرب كما سبق أن أشرنا على درجة سواء فى التحلى بالفضائل الأخلاقية ، ولم يكونوا جميعهم من شاكلة الحكماء الأخيار ، بل كان فيهم الطيب والخبيث ، والخير والشرير ، فلابد إذا من عامل يحفظ توازن حياتهم فيردع الطغاة ويقمع الأشرار ، فكان أسلوب حياتهم مبعثا لهذا الميل المركوز فى طباعهم لتمجيد القوة والحرص عليها ، والرغبة الدائمة فى التفوق ، عن طريق حشود القبيلة فى بعض الأحيان ، أو عن طريق التحالف مع غيرها فى أحيان أخرى تحقيقا لهذه الغاية . وقد عبر العربى عن تلك الحقيقة أصدق تعبير فى عبارة صارت مثلا هى :

« لولا جِلاَدى غَنِمَ تِلاَدِى » (الميدانى ٢ / ١٣٦)

ومن الأمثال التى تتضح منها محبة العرب للتفوق وتمجيدهم للقوة قولهم :

« رَهَبوتٌ خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوت » (الميدانى ٢ / ٣٥)

أى لأن تكون مرهوبا مخشى البأس خير لك من أن تكون ضعيفا مرحوما .

« الروم إذا لم تُغْزَ غزَتْ » (الميدانى ٢ / ٥٧)

أى أن العدو إذا أحس بضعفك هجم عليك .

« الصدق يُنْبِى عنك لا الوعيد » (المستقصى ١ / ٣٢٨)

أى أنما يبعد عنك العدو أن تصدق فى قتاله وتثبت فى مواجهته لا أن تتهدده وتتوعده .

وقالوا فى نعت الشخصية المحببة لديهم :

« إنه يَحْمِى الحقيقة ويَنْسِل الودَيقة ويَسُوق الوسيقة » (الميدانى ١ / ٣٨)

ومعناه : هو يحمى ما تحق عليه حمايته ، ويسرع العدو فى شدة الحر ، وإذا أخذ إبلاً من قوم أغار عليهم لم يسرع بها خوفا من أن يلحقوه بل يسوقها بتؤدة ، ثقة بنفسه واعتدادا بما عنده من القوة .

ويتصل بذلك إشالادتهم بشجاعة الشجعان وجراءة الفتاك وإباء الأباءة ، وكذلك ذمهم للجبن والجبناء ، وكراهيتهم للضعف والهوان فى مثل قولهم :

« استعنتُ عبدى فاستعان عَبْدِى عَبْدَهُ » (المستقصى ١ / ١٥٧)

يضربونه لمن ناصره أهون شأنا منه .

وقد مر بنا من ذلك القبيل أمثال كثيرة .

ومن دلائل نزوع العرب للتفوق ومجابتهم للمخاطر بإصرار وعناد المثلان التاليان وهما يقالان فى التوعد :

« إنْ كُنْتَ رِيحاً فقد لاقيت إعْصَاراً » (الميدانى ١ / ٤٩)

فالإعصار أشد وأقوى من الريح . ودلالة المثل على الرغبة فى التفوق واضحة .

« إنْ تَكُ ضَبّاً فإنّى حِسْلُهُ » (الميدانى ١ / ٤٢)

والحسل ولد الضب ، فكأن المتكلم بهذا المثل يقول لخصمه أنا لا أقل عنك فيما تزعم شيئا ، وأنا قرين لك فى القوة مماثل لك فى الدهاء مماثلة الولد لأبيه .

ولقد كانت هذه النزعة تقود العرب فى بعض الأحيان إلى المبالغة فى رد العدوان ، وكثيراً ما كانت سببا فى استفحال خصوماتهم وثاراتهم لأن بعضهم كان يأبى إلا يكون

انتقامه شديدا ورده مبالغا فيه وما دوافع ذلك إلا الرغبة فى التفوق وإبرار الميزة على الآخرين .

٧ - الصلابة فى مواجهة الشدائد :

وهى خاصية أخرى من خصائص الشخصية العربية ، لها ارتباطها ببيئة العرب وطبيعة حياتهم . وتلمح فى أقوالهم وأحبارهم . وهى مرتبطة كذلك بالمثل العلي التى أحبها العرب وحرصوا عليها كالحرية والإباء وكراهية العجز والخصوع ، بل لقد كانوا يعدون الثبات وقت الشدة مكرمة من المكارم التى ينبغى التحلى بها ، لأنها دليل الأصالة ، وكرم العنصر ، وشبهوا فى أمثالهم من يتحملون مصاعب الحياة وشدائدها ، ولايفرطون فى حرماتهم بالخيل العتاق التى تعدو على الرغم مما تعانيه من أوصاب .

فقالوا :

« الخَيْلُ تَجْرِى على مساويها » (فصل المقال ١٣٩)

يعنون أنها مهما يكن بها من ضر فإن كرمها يحملها على الجرى ، فكذلك الحر الكريم يحتمل المصاعب ويحمى الذمار ، وإن كان به ضُرٌّ .

وقريب من معناه المثل الآخر :

« الفَحْلُ يَحْمى شَوْلَهُ مَعْقُولا » (الميدانى ٢ / ٤٤١)

الشول : النوق التى خف لبنها وارتفع ضرعها ، ومعنى المثل : أن الحر يتحمل الأمر الجليل فى حفظ حرماته وإن كان فى شدة .

ومن هذا الباب أيضا قولهم :

« الحُر حُرٌّ وإن مَسّهُ الضُّرٌّ » (الميدانى ١ / ٣٦٩)

وهو من أقوال أكثم بن صيفى .

ومدح العرب الصبر ودعوا إليه وحببوا فيه ، وأثنوا على أهل الصبر وقوة الجلد فقالوا فى إشادتهم بالصبور وتصوير قوة احتماله :

« هو أَصْبَرُ على السوافى من ثالثة الأثافى » (الميدانى ٣ / ٤٨٣)

ويضربونه لمن تعود هلاك ماله كما ذكر الميدانى وقد شبهوه كما نرى بالجبل الذى يصمد للريح العاتية ولايتأثر بها

هذه أبرز سمات الشخصية العربية كما توحى الأمثال القديمة . ولا أدعى أننى أحصيت جميع السمات والقسمات . وإن كانت الملامح التى أثبتها تمثل فى جملتها كما يلمس القارىء نمطا محببا للشخصية الإنسانية المثلى . بفضائلها الفطرية التى استلهمتها من عبرة السنين وتجارب الأجيال

• وكأن العناية الالهية قد ادخرت هذه الأمة العظيمة لدور إنسانى خطير فربتها وهدبتها . وحفظت جوهرها من الفساد وهيئتها لتكون البيئة المعطاءة التى ستنمو على ربوعها الكلمة الطيبة . كلمة التوحيد والهداية . فتعطيها تلك البيئة من عناصر السمو مايجعلها دوما **(كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها)**[1] .

يقول « لوبون » مؤكد أثر الموروث الثقافى للعرب فى سرعة استيعابهم لحضارات الأمم الأخرى وصهرها فى بوتقة فكرهم وإهداء الإنسانية حضارة خصبة متجددة :

« وقد أثبت العرب أنهم أهل للاقتباس . فالعرب الذين استطاعوا فى أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة ويبدعوا حضارة عالية جديدة هم لاريب من ذوى القرائح التى لاتتم إلا بتوالى الوراثة وبثقافة سابقة مستمرة . فبالعرب . لا بأصحاب الجلود الحمر أو الأستراليين . أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التى ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون فى آسية وأوربة . أجل استطاعت أمم كثيرة غير العرب أن تهدم دولا عظيمة . ولكنها لم تقدر مثلهم أن تبدع حضارة لما لم يكن عندها ما عند العرب من ثقافة سابقة كافية[2]

ومعنى ذلك أن العرب كانوا مؤهلين فكريا وشعوريا لإبداع هذه الحضارة وكان طابع دعوتهم الإسلامية السمحاء يجعل أبناء الأمم الأخرى يقبلون طائعين على الذوبان فى الثقافة العربية حتى غدوا بعد أن هداهم الله للاسلام خدما مخلصين لعلومه وحضارته

---

(١) سورة إبراهيم . الآيه ٢٤

(٢) حضارة العرب ١١٠

الفصل الثانى

أثر الإسلام فى الشخصية العربية

نقل الإسلام العرب نقلة واسعة ، بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه خلقهم خلقا جديدا ، ووجه طاقاتهم الكامنة ، وإيجابيات أخلاقهم توجيها ساميا ، فبعد أن كانت طبائع الخير وخصال النبل فى العرب يكتنفها الظلام وتوشك الرذائل والحماقات أن تغطى عليها فى بعض الأحيان - بزغ نور الإسلام ، وبعث الله عز وجل فى الأميين رسولا منهم ليتمم مكارم الأخلاق ، فتخلصت الشخصية العربية على يديه من سلبياتها ، وتطهرت بفضل هداية السماء من أدرانها ، وظهر للعالمين نبل العرب وسماحتهم وإيثارهم للعدل حتى مع من يناصبونهم العداء من الأمم الأخرى .

يقول جوستاف لوبون :

« كانت أخلاق العرب فى أدوار الاسلام الأولى أرقى كثيرا من أخلاق أمم الأرض قاطبة ، ولاسيما الأمم النصرانية ، فكان عدلهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة ، ووفاؤهم بعهودهم ، ونبل طبائعهم مما يستوقف النظر ، ويناقض سلوك الأمم الأخرى ولاسيما الأمم الأوربية أيام الحروب الصليبية »[1] .

ومع يقيننا بعظمة الإسلام وبعد أثره فى توجية الشخصية العربية وتخليصها من سلبياتها لا أتفق مع الذين يجردون العرب قبل الاسلام من كل فضيلة ويصمونهم بالنقائص ، فجذور الأخلاق الفاضلة كانت عميقة فى الشخصية العربية غير أن رواءها الوضىء كان يتعرض فى كثير من الأحيان للقتار وتشوب صفوه الأكدار ، بتأثير النزوات الشريرة ، والنعرات الجاهلية التى كانت من سلبيات الشخصية العربية كما أسلفنا .

وسنرى فى هذا الفصل أن الإسلام لم يمح صفات الشخصية العربية ، ولم يقض على نزوعاتها ، ولكنه أعلاها وسما بها ووجهها وجهة إنسانية خيرة .

---

(١) حضارة العرب ص ٥١٩ .

ففضل الإسلام على الشخصية العربية جد عظيم ، وأثره فى نضجها عميق ، ودوره فى إبراز أصالتها ونبلها أساسى ، فلولا الإسلام ماسمت الشخصية العربية ، ولابلغت ما بلغته علوا وارتقاء ، ولولا الإسلام ما لعبت دورها الرائد فى الحضارة الإنسانية .

لقد اضطرد نمو الشخصية العربية بسماتها العامة التى ألمحنا إليها فى الفصل السابق ، وبرزت جوانبها الخيرة على أروع ما يكون ، لأن العرب عندما التفوا حول الراية الإسلامية تألفت من قبائلهم المتناثرة ، وقواهم المبددة قوة جديدة واحدة ، تتلاقى حول أهداف وغايات واحدة ، وتوجه جهودها وطاقاتها لبلوغ هذه الأهداف ، وما كان للعرب أن يدخلوا التاريخ الانسانى بهذه الصورة المشرقة لولا الإسلام .

فبالإسلام ظهرت حنكة العرب السياسية ، وتجلت للعالمين مقدرتهم على تكوين دولة كبرى ، تُرسى مبادىء والخير والتآخى بين الناس ، ومع أن العرب كانوا يصدرون فى شتى أفعالهم ومواقفهم عن رؤية إسلامية مستوحاة من الكتاب والسنة ، إلا أنهم كانوا متأثرين ولاشك بما تربوا عليه من خلال وما توارثوه من أخلاق أقرهم الإسلام عليها .

وكانت قوة الشخصية العربية ورسوخ صفاتها وملامحها فى المسلمين الأولين هى التى أضفت على النهضة الإسلامية فى الحقبة الأولى من حياة دولة الخلافة الزاهرة – الطابع العربى فكرا وشعورا – وهى التى جعلت للعرب مكانا بارزا فى الحضارة التى أبدعتها تلك الدولة .

يقول لوبون مؤكدا أهمية الدور العربى فى الحضارة الإنسانية :

« إن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة إنسانية مستعينين بما استعاروه من الفرس واليونان والرومان ، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها ، وظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة التى قهرت العرب ومنها الترك ، أعانت على نشر نفوذ العرب ، وأن أمما قديمة قدم العالم كالمصريين والهنود اعتنقوا ما جاءهم به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة »[1] .

وفى ذلك الملمح دليل على قوة الشخصية العربية وتفوقها لأن الباحثين فى تاريخ الحضارات يعدون مثل تلك الظاهرة دليلا على قوة الحضارة التى تصمد أمام الأخطار

---

(١) حضارة العرب ص ٢٢٥ .

وتستوعب ماحطمتها حتى ولو كان من خصومها الذين هزموا أبناءها عسكريا ، وأخضعوهم لحكمهم وسلطانهم فى الظاهر .

ومن المفيد أن ألخص لقارىء هذا الكتاب تأثيرات الإسلام فى الشخصية العربية موازنا بين صفات تلك الشخصبية كما عرفناها قبل الإسلام وما صارت عليه فى الإسلام فى النقاط التالية :

– ١ –

كان النزوع للحرية والاعتداد بها ، وكراهية الخضوع سمة أساسية للشخصية العربية كما سبق أن قلنا – ولم يقتل الإسلام هذا النزوع فى العرب وإنما وجهة وجهه جديدة . كان العرب يأنفون من الخضوع لملك أو قبيلة وجاءهم محمد عليه الصلاة والسلام فلم يخضعهم لشخصه ، بل أمرهم بالخضوع لرب العالمين ، فلم يكن إذعان العرب للإسلام إذعان خوف أو استسلام ، وإنما كان إذعان اليقين الذى امتلأت به قلوب المؤمنين منهم ، ولم يكره محمد ﷺ أحداً على الإيمان به ، وحاشاه أن يفعل ، وهو المبلغ عن ربه :

(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)[1] .

(إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر)[2]

ولقد تجلت حرية العرب فى الإسلام على أروع صورها ، فدولتهم مبناها على الشورى ، وقضايا حياتهم كلها موضع بحث ونقاش ، ومثار أخد ورد طالما لم يتنزل فيها الوحى ، فإن نزل فيها الوحى أذعنوا وسلموا وأطاعوا وانقادوا .

وأقوال الصحابة الأولين والخلفاء الراشدين فى تقرير مبدأ الحرية والمساواة بين المسلمين أشهر من أن تعاد فى هذا المقام ، وهذا أبو بكر يقول لهم :

« أطيعونى ما أطعت الله فإن عصيته فلاطاعة لى عليكم »

وهذا عمر يقول لهم :

« إن وجدتم فىّ اعوجاجا فقومونى فيجيبه أحد السامعين والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا »

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦

(٢) سورة الغاشية ، الآية ٢٢

فالحرية مكفولة فى الإسلام قولا واعتقادا . وهذا من أهم أسباب قوة العرب فى صدر الاسلام .

- ٢ -

كان العرب قبل الإسلام مولعين بالفضائل والمحامد ، تواقين لتحقيق الأمجاد وكان المجد فى تصورهم يتحقق بحسن الأحدوثة وطيب الذكر فى الدنيا ، وجاء الإسلام فعمق هذا الميل فى نفوسهم ووجههم إلى أن المجد الحقيقى والكسب النافع هو فى الظفر بمرضاه الله والفوز بجناته ، فكان هذا الجزاء الأخروى أهم مقوم من مقومات شخصية المسلم ، ولنيل الجزاء الأخروى اندفع العرب المسلمون يفتحون أقطار الأرض ، ويبلغون للعالمين كلمة الله ، لايبالون بما يصيبهم فى سبيل الله ، ويوقنون بأن ما يصيبهم فى تحقيق هذه الغاية يدخر لهم عند الله عز وجل .

وكانت أكثر الفضائل التى أحبها العرب قبل الإسلام من قبيل المروءة التى تحسب للإنسان وتعلى بين الناس قدره كالوفاء والصدق وحماية الجار والأخذ بيد الضعيف فصارت تلك الفضائل فى الإسلام دينا يتعبد به إلى الله ، وأوامر إلهية تجب طاعتها - وصار بعض ما كان يعده العرب قبل الإسلام من المناقب والمحامد كالفخر بالحسب والنسب وشرب الخمر رذائل منهيا عنها وقبائح ينبغى اجتنابها ، فقد جعل الإسلام الناس سواسية ، وجعل التفاضل بينهم بالتقوى ، وحرم الخمر لأنها باب كل شر .

وهكذا أعلى الاسلام مفاهيم الفضيلة التى عرفها العرب ، وخلصهم من الرذائل وجمعهم على مكارم الأخلاق

- ٣ -

وكان العرب يصدرون فى سلوكهم وأخلاقهم عن نزعة إيمانية فجاء الإسلام ليضعهم على جادة الطريق ، ويزيل القتام عن شريعة إبراهيم التى كادت معالمها تمحى من حياتهم .

لقد كانت النزعة الإيمانية مصدر قوة فى الشخصية العربية ، وبدت مظاهرها في حياتهم فى صور شتى ، فلاخوف ولاخور ، ولاجزع من الملمات ولابرم بصروف الحياة .. فلما جاء الإسلام غدت العقيدة الإيمانية زاد العرب المسلمين بل غدت مصدر حركتهم فى الحياة . منها ينطلقون ، وعن وحيها يصدرون

أجل لقد غدا الإيمان بالخالق عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ملاك حياة العرب فى صدر الإسلام ، وما لبثت تلك الحقائق الكبرى التى آمنوا بها أن انبعثت من قلب جزيرتهم إلى بقاع الدنيا وأقطار الأرض . وما تزال أصداؤها تدوى فى سمع الزمان بين شعوب العالم الإسلامى وبلسان عربى مبين : (**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**)[1] .

إنها هداية الخالق عز وجل للبشرية جمعاء اختار لها محمداً عبده ورسوله ، ثم نهض بها صفوة صحبه من بعده لينشروا ضياءها فى العالمين .

فما أعظمه من تكريم للعرب ! وما أخلده من أثر للسانهم العربى المبين الذى نزل به دستور الإسلام المبلغ للناس أجمعين !!

— ٤ —

وكان العرب يقدرون الكلمة الصائبة ويعتدونها أداة من أدوات النضال ، وأتاهم الإسلام فكانت معجزته الخالدة القرآن العظيم الذى سجد العرب لروعة بيانه قبل أن يؤمنوا بدعوة محمد ﷺ ، ومع الغايات السامية التى جاء بها القرآن لإرسائها فى الناس كافة لم يخرج فى أساليب تعبيره عما عرفه العرب فى لغتهم ، بل لقد جبه العرب بما ألزمهم الحجة ، وألجم ألسنتهم عن محاكاته وتحداهم فعجزوا ولم يحيروا جوابا .

وكان رسول الله ﷺ مثلا أعلى فى امتلاك ناصية البيان فقد أعطاه ربه عز وجل جوامع الكلم ووهبه ملكة البيان .

— ٥ —

وكان العرب فى جاهليتهم يستلهمون الحكمة ويقدرون خبرة الحياة وعبرة السنين ويلخصون ذلك فى عبارات سائرة وأقوال موجزة ، وقد أشبع الإسلام هذا الميل فى نفوسهم بل جاءهم بالحكمة الخالصة من الزلل والهدايه المنزهة عن الضلال ، وجاءت عظات القرآن الكريم وآياته فى عبارات قاطعة وصور بليغة مؤثرة سارت مسيرة الأمثال وكذلك الحال فى كثير من أقوال رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة البقرة . الآية ٢٨٥

وفى أمثال القرآن الكريم ، وأمثال الرسول ﷺ وضع العلماء منذ القدم المؤلفات وأفردوا لذلك الكتب [1] .

ومن أمثال القرآن الكريم التى بلغت الغاية وأربت على كل حجة قوله عز وجل فى بيان خطأ المشركين وهوان الشركاء الذين عُبدوا من دونه :

(يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قد روا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) .

(سورة الحج ، الآيتان ٧٣ ، ٧٤)

يقول ابن القيم معلقا على هذا المثل القرآنى :

« حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره ، والآلهه التى يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ماهو أكبر منه ، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب ، وإذا سلبهم الذباب شيئا مما عليهم من طيب ونحوه ، فلا يستنقذونه منه . فلاهم قادرون على خلق الذباب الذى هو من أضعف الحيوان ، ولا على الانتصار منه واسترجاع مايسلبهم إياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله تعالى ، وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه فى بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم والشهادة على أن الشياطين قد تتلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التى من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات وأن يعمد إلى الرب فى جميع الحاجات وتفريج الكربات ، واغاثة اللهفات ، وإجابة الدعوات ، فأعطوها صورا وتماثيل تمتنع عليها القدرة على مخلوقات الآلهة الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه . وأدل من ذلك على عجزهم

---

(١) منها على سبيل المثال :
- الأمثال فى القرآن الكريم لابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ .
- أمثال القرآن . للجنيدبن محمد القواريرى المتوفى سنة ٢٩٨ هـ .
- أمثال القرآن . لنفطويه المتوفى سنة ٣٢٣ هـ .
- الأمثال السائرة عند رسول الله ﷺ لأبى عروبة الحسين بن محمد الحرانى المتوفى سنة ٣١٨ هـ

وانتفاء إلهتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطفت منهم سيئا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه ثم سوى بين العابد والمعبود ، فى الضعف والعجز بقوله «ضعف الطالب والمطلوب » .. فمن جعل هذه الآلهة مع القوى العزيز فما قدره حق قدره ولاعرفه حق معرفته ولاعظمه حق عظمته [1] .

وأمثال القرآن العظيم كثيرة وقد وضع فيها العلماء المؤلفات ، وحسبنا فى هذا المقام تلك الإشارات .

ومن أقوال الرسول ﷺ التى ذهبت أمثالا الأقوال التالية :

« الناسُ كإبل مائة لاتجد فيها راحلة (الميدانى ٣ / ٣٨٤)

يعنى أن الناس كثيرون ، ولكن قل منهم من يكون مكتمل الفضل .

« الناس كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا

(نهاية الأرب ٣ / ٢)

« عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونوا يولى عليكم » (نهاية الأرب ٣ /٢)

« مثل أبى بكر كالقطر أين وقع نفع » (نهاية الأرب ٣ / ٤)

« المرء على دين خليله فلينظر امرؤ من يخالل » (نهاية الأرب ٣)

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » (نهاية الأرب ٣ / ٢)

« سبقك بها عكّاشة » (المستقصى ٢ / ١١٦)

وقصته أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل الجنة سبعون ألفا من أمتى كلهم على صورة القمر ليلة البدر ، فقال عكاشة بن محصن : أدع الله أن يجعلنى منهم قال : فإنك منهم ، فقام أنصارى فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة .

وفى سنن الترمذى باب من أمثال الرسول ﷺ[1] ، جمع فيه طائفة من الأحاديث التى يكون التمثيل محورا لمعناها ، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام **(إنما مَثلى ومَثل أمّتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها ، فأنا آخذ بِحُجزكم وأنتم تَقَحّمون فيها »** .

(سنن الترمذى ٤ / ٢٣٠)

---

(١) أمثال القرآن ٢٤٧

(٢) سنن الترمذى ٤ / ٢٣٢ وما بعدها

« مَثَلُ المؤمن كمثل الزرع لاتزال الرياح تُفَيِّئه ، ولايزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتهتز حتى تُستحصد »

(سنن الترمذى ٤ / ٢٢٨)

— ٦ —

كان العربى يمجد القوة ويأبى إلا يكون متفوقا على خصومه ، وجاء الإسلام فأقر المسلمين على اليقين بالتفوق المعنوى النابع من صواب المنهج الذى يسلكونه والثبات على السبيل السوى .

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون)[1] .

وحَدّ الإسلام من نزوع العرب للمبالغة فى رد العدوان فقرر مبدأ المساواة فى القصاص .

قال عز وجل :

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)[2] .

ولم يقرر الإسلام ذلك المبدأ فحسب بل حبب المسلمين فى العفو ورغبهم فى إيثار ما عند الله عز وجل ، ونبذ أسباب الشقاق .

— ٧ —

وكان العربى يتميز بالصلابة فى مواجهة الشدائد ، فأصبح الصبر فضيلة من فضائل الاسلام . الصبر فى لقاء الأعداء ، والصبر فى مجاهد الأهواء ، والصبر عند التعرض للابتلاء . والصبر على طاعة الله عز وجل ، والصبر عن ما حرم الله .

ومن خلال هذه الموازانات السريعة التى أشرنا فيها الى ما كانت عليه الشخصية العربية

---

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٥

قبل الإسلام وما آل اليه أمرها بعده ، يتراءى لنا أن الأسلام قد بلغ بالشخصية العربية أوج كمالها ، ووجه ايجابياتها وجهة سامية ، ونقاها من سلبياتها ونقائصها .

لقد أهدى الإسلام للانسانية فضلا عن محمد عبد الله ورسوله الذى لاينطق عن الهوى رجالا أفذاذا أدهشوا ببراعتهم السياسية ومهارتهم الحربية ، وحصافتهم الإدارية أمم الأرض . وماتزال ذكريات مجدهم تعبق بها سطور التاريخ .

أهدى الإسلام الإنسانية أبا بكر الصديق الذى ضرب أروع الأمثلة فى التضحية من أجل عقيدته وضرب أروع الأمثلة فى قيادة الأمة التى هى فى جوهرها أمانة ومسئولية فكانت أول كلمات قرع بها سمع المسلمين بعد أن بايعه الناس بالخلافة :

« إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فأن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوموني الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له الحق ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ، لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولاتشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلاطاعة لى عليكم » .

ألا ما أعظمها من كلمات تلك التى فاه بها الصديق أول عهده بالخلافة ، ووضع فيها الأصول الصحيحة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم .

وأهدى الإسلام للإنسانية الفاروق عمر الذى « صارح القوم فيما لايحصى من الخطب والأحاديث أن له عليهم حق الطاعة فيما أمر الله فلاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأن لهم عليه حق النصيحة ولو آذوه . ومن ذلك الرواية المشهورة التى سأل الناس فيها أن يدلوه على عوجه فقال له أحدهم : والله لو علمنا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا . فحمد الله أن جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه[1] .

وكتب إلى الأمصار بعد عزل خالد عن قيادة الجيش : إنى لم أعزل خالد عن سخط ولاعن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا . فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة[2] .

---

(١) عبقرية عمر للعقاد ص ٢٠٩ .

(٢) بعرض فتنة : أى معرضين للفتنة بخالد .

يقول العقاد رحمه الله عن أسلوب عمر رضى الله عنه فى بحث الشكايات « كانت سنته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها ، فمن ضرب ضُرب ، ومن غصب رد ما غصب ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب . وقد يأخذ الوالى أحيانا بوزر ولده أو ذوى قرابته إذا وقع فى نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولاينهاهم الوالى المسئول عنها » .

جاء مصرى فشكا إليه عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالى أجرى الخيل فأقبلت فرس المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح فرسى ورب الكعبة .. ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين ! وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى فحبسه زمنا .. ومازال محبوسا حتى أفلت وقدم إلى الخليفة لإبلاغه شكواه .

قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله مازاد عمر على أن قال له اجلس .. ومضت فتره اذا به خلالها قد استقدم عمراً وابنه من مصر فقدما ومثلا فى مجلس القصاص فنادى عمر أين المصرى .. دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين .

« فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهى أن يضربه . فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول له اضرب ابن الأكرمين .. ثم قال : أجلها على صلعة عمرو فوالله ماضربك إلا بفضل سلطانه .. قال عمرو فزعا : ياأمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت . وقال المصرى معتذراً : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى .. فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه . والتفت إلى عمرو مغضبا يقول له تلك القولة الخالدة التى ما قالها حاكم قبله : ايا عمرو .. متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

والى جانب أبى بكر وعمر حشد كبير من رجالات العرب الذين أهداهم الإسلام للحصارة الإنسانية أمثلة عليافى فضائل النفس وسمو الخلق وإيثار العدل والأمانة والصراحة فى الحق

وجملة القول أن الاسلام حشد مثاليات العرب ونماها ووجهها الوجهة السديدة ، ورفدها بفيض من الفضائل العالية ، وعندما أشربت نفوس العرب هذه الفضائل ونشروها فى الأمم المجاو ، لهم استطاعوا أن يبدعوا حضارة من أعرق الحضارات الإنسانية وأبعدها أثرا .

الفصل الثالث

الشخصية العربية .. التراث ، والواقع ، والأمل !!

ارتقي الإسلام بالشخصية العربية كما أشرنا فى الفصل السابق إلى ذروة المجد ، وحلق بالعرب على هام العلا ، حتى غدوا بفضل تفانيهم فى خدمة مبادئه سادة الدنيا ، وورثوا فى بضع سنين سلطان أكبر قوتين عرفتا فى العالم القديم وهما الفرس والروم .

وفى اعتقادى أن بدايات الضعف التى عانت منها دولة العرب المسلمين ظهرت عندما تخلى خلفاء هذه الدولة عن طابعها العربى الأصيل ، وخلقها الاسلامى الصحيح ، وبدأوا فى اقتباس عادات ومناهج دخيلة ، ما لبثت أن أفقدت الدولة طابعها المألوف ، وتردت بها إلى أسقام وأدواء جسام لم تزل تعانى منها إلى عصرنا الحاضر .

وأقول بدايات الضعف لأن دولة الخلافة لم تتخل عن عروبتها ، ولم تتنكر لإسلامها بصورة سافرة ، بل أخذت تتحول عن صبغتها التى عرفت بها فى عصر النبوة والخلافة الراشدة شيئا فشيئا ، وتتداخل فى سياسات حكامها ، وسلوك ولاتها طبائع غريبة عن المثاليات العربية ، لاتربطها بالدين رابطة ، ولايجمعها مع الخلق العربى المتوارث جامع .

والمتأمل للانتصارات والإنجازات المهمة والوقفات البطولية فى تاريخ المسلمين يجدها إما مبنية على أسس من الإباء العربى الذى يدعمه الاعتزاز الإسلامى ، أو بوازع من الإحساس الدينى الخالص ، واليقين بفرضية الجهاد ، للذود عن حرمات الإسلام والذب عن حماه .

وعلى الرغم من بعد العهد بين العرب فى العصر الحديث وأسلافهم فى صدر الإسلام فان السمات العامة التى لاحظناها على الشخصية العربية لاتزال مستقرة فى الوجدان العربى ، لأن الشخصية العامة التى تميز أمة من الأمم لاتمحى بمرور الزمن ، بل تبقى ضاربة بجذورها فى أعماق الأمة ، وسارية فى ضميرها سريان الماء فى العود الناضر ، وقد يعتورها التبدل أو التغير ، ولكنها لاتفقد طابعها المميز بأية حال .

ومن دلائل استقرار المميزات العامة للشخصية العربية فى ضمير الأمة العربية فى العصر الحاضر أننا نلمس كثيرا من العادات والأعراف والأخلاق التى صدر العرب عنها فى أمثالهم القديمة لها وجودها فى حياتنا وبخاصة فى المجتمعات التى ترتبط أكثر بالتراث . وتحافظ على العادات الموروثة فى القرى والبوادى ، وكذلك نسمع كثيرا من الأمثال القديمة تتوارد على الألسنة إما بصورتها التى وردت بها عن العرب الأقدمين ، وإما بالصدور عن تقريراتها فى أمثال وعبارات دارجة تختلف من بيئة لأخرى ، ولكننا لو تأملناها وجدنا لها أصولا فى تراثنا القديم .

وفى ذلك دليل على أن مقومات الشخصية العربية ماتزال بعيدة الغور فى وجداننا ، وأن الأسر والمجتمعات التى تعيش انتماءها العربى وتستشعره فى حاضرها ، هى أمل هذه الأمة فى استعادة أمجاد ماضيها ، والنهوض بها من كبوتها المؤلمة فى العصر الحديث .

أزمة الشخصية العربية :

واجه العرب المسلمون على امتداد تاريخهم الحافل أزمات شداداً ، وعاشوا أمجاداً وانتصارات ، وتخطوا مصاعب ومخاطر مروعة ولكن أزمتهم فى العصر الحاضر من أشد وأقصى ما تعرضوا له ، لكثرة أبعادها وعمق وقعها على النفوس وفى تقديرى أننا - أمة العرب مدعوّون إلى التقليل من الآثار النفسية لأزمتنا الراهنة ، فان أمة كأمتنا بما لها من عراقة ضاربة فى أعماق الماضى لهى من السمو بحيث يجب ألا تهزها الأزمة الحالية ، فهى أزمة عابرة بإذن الله ودلائل ذلك أننا نعيش يقظة حقيقية ، فى وجداننا ، وفى إحساسنا بعظمة ماضينا ، والسخط على حاضرنا ، وتلك مؤشرات إيجابية ينبغى أن تبعث فى نفوسنا الأمل ، وتجعلنا نفكر بعقولنا ، ونتأمل ونبحث عن أسباب ما أصابنا ، ونحدد أعراض الأدواء التى أصابت أمتنا ، وبددت قوانا ، علنا نفلح فى القضاء عليها ، ونعيد لأمتنا قوتها وفاعليتها بحول الله .

إننا ينبغى أن نحشد كل قوانا المعنوية والمادية لبث روح المقاومة وتحدى الهزيمة ، والتصدى لكل ما ينال من شخصيتنا العربية ، وانتمائنا الإسلامى ان تأمل جذور هذه القضية المعقدة - أعنى قضية أزمة الشخصية العربية ينبغى أن يكون من أهم القضايا التى تطرح ليناقشها مفكرو هذه الأمة وعقلاؤها باحثين عن دوافع تلك الأزمة ومسبباتها .

١ - أزمة عدم الثقة بالنفس :

أن أخطر ما أصاب ويصيب شخصيتنا العربية فى عصورنا المتأخرة هو أزمة عدم الثقه بالنفس ، وقد ضاعف أعداء هذه الأمة من حملاتهم لزعزعة ثقة الإنسان العربى فى قدراته ومثالياته ، زاعمين له أن تلك الموروثات التى يصدر عنها ويعتز بها هى سبب تخلفه ومبعث ضعفه ، وهى محاولة خبيثة ، يقصد بها القضاء على البقية الباقية من أثر الروح العربية الأبية فى نفوس أبناء هذه الأمة بغية سلخها عن ماضيها ، ومسخ هويتها القومية المستقلة ، وجعلها ذنبا تافها لأفكار الغربيين ومثالياتهم .

وواجبنا أن نواجه تلك الأزمة على نطاق واسع ، وبأسلوب قومى مدروس ، بحيث تكون جميع وسائل إعلامنا وتثقيفنا متبنّية لقضية الشخصية العربية ، وتقاوم الدعايات المضللة . وتبث كل ما يحفز أبناء هذه الأمة للحفاظ على شخصيتهم العربية الأصيلة ، والاعتزاز بها والتمسك بفضائلها الممثلة فى مبادىء الاسلام الحنيف وهديه القويم .

٢ - أزمة عدم الثقة بين الحكام والمحكومين :

وقد ورثها العرب من عصور سيطرة الأجانب على شئون بلادهم ، والتحكم فى مقدراتهم ، فغدا توجس الشعوب من حكامها سمة مميزة لكثير من أقطار الوطن العربى ويتمثل ذلك فى عدم الثقة بالحكام ، وعدم التعاون المخلص معهم ، وما أكثر الجهود التى تهدر فى أقطار الوطن العربى بسبب تلك الأزمة ، التى لايستفيد منها سوى أعداء هذه الأمة ، فالحكام بسبب ذلك يزيدون من بطشهم وطغيانهم وتزداد شعوبهم قهراً وخضوعاً وبين موقف هؤلاء وهؤلاء تتردى أوضاع الأوطان وتزداد تخلفا .

إن التقدم الذى تحرزه أية أمّة لايتحقق إلا بالثقة والتآلف بين الحكام والمحكومين والعمل الجاد لرفعة الوطن العربى ، ومهما يكن الخلاف فى وجهات النظر بين الحاكم والمحكوم فينبغى أن تكون مصلحة الأمة فوق كل خلاف وقبل أية خصومة . وما أكثر ما تجر هذه الظاهرة على الشخصية العربية من شرور ، فكم من طاقات تهدر وقوى تبدد فى معارك خسيسة ، لاينتفع من ورائها إلا الأعداء ، الذين يكسبون دون عناء بتخلفها وتردى أوضاعهم فى حين يقطعون هم أشواطا فى مضمار الرقى والتقدم .

٣ - أزمة الانبهار بقدرات الأمم الأخرى وحضاراتها :

وهى من أشد أزمات الشخصية العربية وأخطر ما تتعرض له فى العصر الحديث ، وفى تقديرى أننا ينبغى أن يكون لنا موقف نفسى وآخر عملى فى آن واحد إزاء ما يفد إلينا من وسائل التقدم العلمى وتطبيقاته ، أما الموقف النفسى فهو ألا نصاب بالبهر والتحير إزاء هذه المكتشفات والوسائل الحضارية وأن نكون على يقين أفرادا وأمة أننا لانقل بأية حال عن أولئك الذين أبدعوا تلك المخترعات ، وأن الفرق بيننا وبينهم كالفرق بين جماعة كانوا على أهبة سفر يقصدون موضعا ما فجاء من حال بين فئة منهم وبين المضى لوجهتهم وحبسهم عن الرحيل ، وترك الآخرين فمضوا حتى بلغوا ما أرادوا .. ومضت أحقاب طوال ثم أطلق سراح الفئة المحبوسة ، فوجدت رفاقها قد قطعوا أشواطا وصار البون بين الفريقين بعيدا . وأيا كانت القيود والمعوقات التى حالت بيننا وبين الوقوف مع أمم الحضارة على قدم المساواة فقد حدث ما حدث وينبغى علينا أفرادا وشعوبا ، حكاما ومحكومين ، أن نفكر فى الوسائل التى تعيد الأمور إلى نصابها بيننا وبين من سبقونا ، وليستغرق ذلك الأعوام والأعوام فأمجاد الأمم وحضاراتها لاتقاس أعمارها بالشهور والسنين فحسب بل بالقرون والأجيال.. ومن غير اللائق بنا أن يكون موقفنا من تقدم أمم الغرب والشرق هو موقف الشعوب المحسوبة فى عداد الدول المتخلفة التى لم ترث مجدا ولم يكن لها فى التاريخ الإنسانى ذكر !!

أما الموقف العملى فهو أن نستفيد من هذه الوسائل الحضارية وأن نبدأ من حيث انتهى غيرنا وندرس الوسائل التى يدعمون بها نهضتهم العلمية ، فنحذو حذوهم ، إن لم نضاعف الجهود ، ونكرس الطاقات لتضييق الهوة بيننا وبينهم .

إن العقلاء من أبناء أمتنا العربية يدركون بلاشك أننا ضيعنا كثيرا من طاقاتنا منذ أن تفتحت عيوننا على النهضة الأوربية ولم نول التقدم العلمى حظه من العناية ، ولقد تأكد لنا بما لايدع مجالا للريب أن من علماء أمتنا وعقولها الناهضة من هو أهل إن أتحنا له أسباب البحث العلمى المنظم ، وهيئنا له الجو الملائم أن يسهم فى ترقية النهضة العلمية فى بلادنا . وقد رأينا فريقا من هؤلاء وصلوا الى مراتب علمية سامية فى بلدان أوربا وأمريكا ، ومن ثم فليس العيب فى العقول والكفاءات ، ولكن العيب فى أسلوب إدارتنا للبحث العلمى ، وفى طرق استفادتنا بتطبيقاته .

معوقات الشخصية العربية :

اتضح لنا من خلال ماسقناه عن صفات الشخصية العربية فى العصور القديمة أن إيجابيات تلك الشخصية كانت من أهم أسباب ارتقاء دولة الخلافة الإسلامية فى أدوارها الأولى ، وتأكد لنا أن الأصول النفسية والأخلاقية للعرب كانت بمثابة الأرضية الصلبة التى استقرت عليها فضائل الإسلام الحنيف وآد به ، ومن تلاقى هذين العنصرين الأصليين ، كان ذلك الصرح الحضارى الشامخ الذى أرساه العرب المسلمون فبذ كثيرا من حضارات الأمم الأخرى ولعب دورا مهما فى الحضارات التى ارتقت من بعده .

وفى يقينى أن أصول هذه الطبائع النفسية العربية والأخلاق والآداب الإسلامية ماتزال كامنة فى نفوس العرب المسلمين ، ولكن معوقات كثيرة تحول بين هذه الخصال المؤثرة وبين إحداث اليقظة والتقدم المنشودين ، ومن أخطر هذه المعوقات والتحديات التى تواجه الشخصية العربية فى عصرنا الحاضر المعوقات التالية:

أولا : فقدان القيادات التى تؤمن إيمانا راسخا بفاعلية الشخصية العربية وإمكاناتها الكامنة ، ومن ثم تتصدى لحملات التشكيك وزعزعة الثقة التى يشنها الأعداء ، وتظهر لشباب هذه الأمة زيفها ، وبالتالى تبعدهم عن الوقوع فى حبائل الفكر الأجنبى ، الذى يحاول جاهدا أن يزرع فى نفوس أبناء هذه الأمة بذور الشك فى تراثهم وفضائلهم ومكونات شخصيتهم ، وهذه المشكلة تعد فى تصورى من أخطر التحديات التى تواجه أمتنا العربية فى عصرها الحاضر ، فينبغى أولا أن نربى ناشئتنا على اليقين بصلاحية مثالياتنا وصوابها ، وضرورة التعلق بها والدفاع عنها ، لادفاع التعصب والمكابرة ، ولكن دفاع اليقين والإيمان وفرق بعيد بين من يدافع عن مبادىء هو على يقين من صوابها ، وبين من يدافع عن مبادىء ومثاليات لمجرد أنها مما ورثه عن الآباء والأجداد !!

إن المشاهد الآن أن أكثر أقطار الوطن العربى تغفل عن هذه الحقيقة ، وربما تجد من أجهزتها الرسمية ما يعمل بعكس ما تتطلبه ، وبما يضر بالطابع العربى و الشخصية العربية ويضعفها .

ثانيا : الإسراف فى تقليد الغربيين والإعجاب بعاداتهم وطبائعهم والجرى وراءهم فى تلك الميادين مما يضعف انتماءنا العربى ، ويؤثر على صفاتنا الشخصية المتوارثة ، فينبغى أن تبذل الجهود لمقاومة هذه الظواهر الشاذة ، وإقناع أبنائنا وإخواننا العرب بأن تقليد

الأجانب فى عاداتهم وأنماط حياتهم لن يجعلنا معهم على درجة سواء فى التحصر والرقى . وأننا باسرافنا فى الإعجاب بالأجانب وتقليدهم لن نصل إلى ما أبدعوه لأن الإبداع الفكرى والنهضة العلمية لاتتم بهذه الطريقة ، ولأن أبناءنا بانسلاخهم عن طبائعهم العربية الأصيلة لم يصيروا من عداد الأمم والشعوب التى يقلدونها ولم يبقوا عربا كما كانوا !!

إننى لا أغفل طبائع البشر ، ولاسنن الكون فى تقليد الأدنى للأعلى وإعجاب المغلوب بالغالب ، ولكنى أطالب بضرورة مقاومة الإسراف فى تقليد الأجانب والذوبان فى حضارتهم ، ولنتنبه إلى أن لحضارتهم جوانبها الخيرة ولها فى الوقت ذاته مضارها وسلبياتها ، فلنأخذ منها النافع الذى يفيد ولننبذ الضار الذى يؤذى ولنع قبل ذلك كله أن لنا فضائلنا النفسية ، ومثلنا الأخلاقية ، التى يفتقر إليها الغربيون، ويعانون بسبب حرمانهم منها ويلات كثيرة .

ثالثـا : من أهم مقومات الشخصية العربية فى العصر الحديث فقدان الطابع المتحرر فكرا وشعورا، فليتق الله من وكلت إليهم أمور شعوب هذه الأمة ، ولنكن جميعا صرحاء مع أنفسنا ، فلقد كانت الحرية بأروع صورها وأسمى معانيها من أهم ركائز الشخصية العربية وعوامل قوتها وأسباب ابتكارها وسبقها ، وهانحن أولاء عانينا وما نزال من ظواهر التسلط وتجريم تمتع الإنسان بحرية الفكر وحرية التعبير ، وليعلم الجميع أن جو الحرية الصحيح هو الذى أتاح للعرب المسلمين أن يبدعوا فى الماضى حضارة زاهرة ، وما أحسب الا أننا على بداية الطريق الصحيح فى كثير من أقطار وطننا العربى ، وبخاصة فى المجالات الفكرية والعلمية ، وإن كنا نطالب بمزيد من التوجه العربى الأصيل ، ودعم كل مايقوى الشخصية العربية ، ويساعدها على تحطيم أغلالها والانطلاق من إسارها .

رابعـا : إن عوامل قوة الشخصية العربية ، وإمكان قيامها فى العصر الحديث بالدور المهم فى نهوض العرب وتغلبهم على الصعوبات الجسام التى تواجه مسيرتهم تدفعنا إلى الأمل بأن هذه الأمة تحمل فى طياتها أسباب قوتها وتخطيها للصعاب بحول الله . ولكننا ننتظر من القائمين على الأمور فى بلداننا العربية أن يكونوا على قناعة بهذه الحقيقة . وبالتالى يعملون على تدعيم روح الثقة وتأصيلها فى نفوس شعوبهم ، وألا ينتظروا الخلاص من واقعهم المؤسف من أى عامل خارجى ، بل عليهم أن يزيلوا الحواجز التى تعوق انطلاق الشخصية العربية على هدى مبادىء الإسلام الحنيف وانطلاقا من المثاليات العليا التى توارثها العرب . واعتزوا بها على مر السنين ولتكن لنا عبرة فى أبنائنا الذين يهاجرون

إلى أقطار الغرب فيبدعون ويتفوقون فى مجالات كثيرة علمية واقتصادية فلولا العوائق التى وصعها أعداؤنا أحيانا ووضعها فئة ممن ولوا أمورنا أحيانا أخرى لما تردت بلادنا فيما هى فيه من تخلف بغيض .

بواعث اليقظة والنهوض :

أشرنا فى النقاط السابقة لبعض أسباب أزمة الشخصية العربية ومعوقاتها والحق أن هذه القضية من السعة والتشعب بحيث يمكن أن تسود فى شرحها وبيانها المجلدات الطوال ولكننى فى هذا المقام أوجز بما يتناسب مع موضوعنا وأستطيع أن ألخص للقارىء ما أراه من بواعث يقظة الشخصية العربية ونهوضها فى الجوانب التالية :

١ - أن نعنى بتأصيل انتمائنا العربى ومحاربة ما يعاكس إحساس أبناء الأمة بذلك الانتماء أو يقلل من فاعليته ، ولنطرح هذه القضية على أساس أنها من أهم القضايا التى نحتاج إلى بحثها ومعرفة أنجع الوسائل لترسيخ الاحساس بالانتماء العربى والاعتزاز بالمآثر والتراث العربيين ، وليكن تأصيل هذا الانتماء .. هدفا قوميا عاما يحرص العرب جميعا شعوبا وحكومات على بلورته ، والالتزام به ، ويرتبط بذلك نبذ الخلافات والصدمات التى تقع بين العرب بعضهم وبعض وألا تبلغ بنا الخلافات أياً كانت حد التقاتل و التباغض والقطيعة والمهاترات . إن العربى فى أى مكان من أنحاء الوطن العربى الكبير يحس فى قرارة نفسه أنه أخو العربى مهما تباعدت بينهم المسافات ، وأقيمت الحواجز ، ونصبت الحدود ، وإنها لجريمة من أبشع الجرائم أن يعادى شعب عربى شعبا عربيا آخر تبعا لخلافات تنشأ بين الحكام ، وخصومات تعرض بين الزعامات .

٢ - إحياء أمجاد العرب المسلمين وجعلهم القدوة لأمتنا فى العصر الحديث ، لا على سبيل تخدير المشاعر ودغدغة الوجدان ولكن على سبيل تفرس سلوكهم وآدابهم ، والاستفادة بعبرة التاريخ وزرع الثقة فى نفوس أجيالنا الحاضرة بعظمة الدور الذى أداه آباؤهم الأقدمون فى التاريخ الإنسانى ، ومن ثم يكون حفزهم للصحوة المطلوبة واليقظة المبتغاة .

٣ - أن ننتهج فى سياستنا ومواقفنا أسلوب الدراسة المتأنية ، وننبذ الأساليب المرتجلة التى تعتمد على الحماسة والانفعال الوقتى دون البحث المستوعب للمشكلة التى

نواجهها والأهداف التى نريد بلوغها ، وأن نكون واقعيين لا خياليين . فعالمنا اليوم تخضع فيه كل الأمور للدراسة ، وتبنى سياسات الأمم ومواقفها على التحليل الدقيق . وأعداؤنا لايفوتون فرصة لدراسة أحوالنا وسبر أغوار مجتمعاتنا ، وهجماتهم علينا مرتبطة بتفكير قديم مدروس لقهرنا والسيطرة علينا ، ومن يتأمل منشأ الدراسات الاستشراقية لدى الغربيين يدرك أنها ارتبطت بالتفكير فى حرب الإسلام والمسلمين خاصة والسيطرة على أمم الشرق عامة ، وجعلها دمى يحركها الغربيون كيفما يريدون .

ومن طرائف ما قرأته فى الآونة الأخيرة خبر ورد ضمن مقال صحفى للكاتب المعروف أحمد أبو الفتوح أنقله للقارىء هنا لطرافته ، وبعد دلالته فى إدراك الغربيين لطبائعنا ودراستهم لميولنا ليعرفوا الأسلوب الأمثل للتعامل معنا والتأثير علينا ، وجانب الطرافة فى الخبر أنه يؤكد رأينا فى أهمية الأمثال لمعرفة طبائع الشعوب .

يقول الكاتب حاكيا حوارا دار بينه وبين مسئول سياسى أمريكى فى الأمم المتحدة عام ١٩٥٠ :

« قال السياسى الأمريكى : أنتم (المصريون) شعب عاطفى تتأثرون بالعواطف أكثر من الماديات .، قلت فى دهشة : كيف حكمتم علينا بذلك قال : من أمثالكم العامية .. أليس من أمثالكم (لاقينى ولاتغدينى) وكذلك (بصلة المحب خروف) .. عشرات الأمثال المصرية تقطع بأنكم شعب عاطفى . وسألته وكيف عرفت هذه الأمثال . هل درستها فى مصر ؟ فأجاب : أنا لم أذهب الى مصر بعد ، ولكنى متخصص فى وزارة الخارجية فى واشنطن فى شئون الشرق الأوسط ، ونحن كى نتعامل مع أية دولة من الدول لابد أن نعرف طباع شعبها وحكامها ، ومن المؤشرات الهامة لمعرفة طباع الشعوب ما يجرى على ألسنة الشعب من أمثال عامية دارجة وعندنا ملف ضخم لكل دولة ، ومن ملف مصر نفهم أنكم شعب عاطفى »[1] .

هذا نمط من سلوكهم نحو مصر ، ومثل ذلك يصدق على غيرها من شعوب الوطن العربى . فهل درسنا نحن مجتمعاتهم كما درسوا مجتمعاتنا ؟ وهل بحثنا نقاط القوة ونقاط الضعف فى تكوينهم المعنوى والمادى حتى نستطيع أن نواجههم بما ينبغى أن نواجههم به

---

(١) جريدة الشرق الأوسط مقال بعنوان « الانفعال والضياع » ١٩٨٣/١٠/٢٩م .

من خطط وأساليب ؟ الجواب بإيجاز إننا مقصرون وحتى نتلافى أخطاءنا وتقصيرنا ينبغى أن نفطن إلى الأسلحة التى نحارب بها حتى نهىء لها ما يناسبها ، وحتى ينقلب ضررها إلى نحور الاعداء .

ولقد قال العرب فى أمثالهم القديمة :

« إنّ المُعَافَى غَيرُ مَخْدوع » (الميدانى ١ / ١٤)

ومعناه أن الذى تحاك حوله الدسائس ، وتنصب الأشراك ثم ينجو منها ويسلم من شرها فهو غير مخدوع ، أما المخدوع حقا فهو الذى يتورط فى حبائل أعدائه ويصار بسبب كيدهم .

٤ - أن يعتز أبناء هذه الأمة العربية بعقيدتهم الاسلامية ، ويعضوا عليها بالنواجد . وأن يدرك عقلاؤهم ألا تعارض بين العروبة بحسبانها آصرة من أواصر الأخوة والدم وبين الإسلام الذى جمع العرب وغيرهم على المحجة البيضاء .

فالشخصية العربية التى ندعو الى بعثها ليست من قبيل الدعوات العصبية وأعوذ بالله من أن تكون دعوتى إلى عصبية جنسية أو تمييز بين العربى وغيره على أساس من التفوق الطبيعى كما يزعم العنصريون . ولكنها دعوة صادرة عن قناعة بأن أى دعم لعنصر مسلم هو فى مصلحة المسلمين جميعا وهى دعوة إلى الاعتزاز بالفضائل العربية التى أعلاها الإسلام وهذبها ، والعرب كما هو معروف مشهور هم قلب الإسلام النابض ، ولسانه الخالد إلى يوم الدين ، ولاأظن أن عاقلا ينكر أن قوة العرب بهذا الالتزام الإسلامى هى قوة للإسلام والمسلمين فى شتى بقاع الأرض ، ولعل الذين يعارضون فكرة القومية العربية معذورون فى موقفهم منها ومن دعاتها ،[1] لأن فكرة القومية استوحيت أساسا من الأوربيين ، وتأثر بعض دعاتها بطبيعة القوميات الأوربية التى هى فى جوهرها قوميات علمانية ، ومن الغريب أن أعداء العرب والمسلمين كانوا ممن نشروا فى الشعوب العربية فكرة القومية وحببوا فيها . وذلك بقصد القضاء على الدولة العثمانية ، وقصم ظهرها بفصل الأقطار العربية عنها ، ثم لما تحقق لهم ذلك وبسطوا حمايتهم على البلدان العربية ، وأحسوا بقوة الاتجاه القومى بين العرب بدأوا يحاربون القومية العربية ذاتها ، عندما استشعروا بوادر الخطر من جهتها .

---

(٢) الكتابات حول هذه القضية كثيرة جداً ومستفيضة مما رجعنا إليه منها : « اليقظة الاسلامية » لأنور الجندى . « ظلام من العرب » للشيخ محمد الغزالى « أم القرى » لعبد الرحمن الكواكبى ، « نقد القومية العربية » للشيخ عبد العزير بن باز

فصاروا يوحون إلى أذنابهم بمحاربة القومية العربية . والدعوة الى العنصريات الأقليمية من الفينيقية والفرعونية وغيرها ليضربوا هذه الأمة من داخلها . ويحولوا بين شعوبها وبين التضامن المؤثر والتعاون المثمر ، فينبغى ألا ننساق إلى هذه الأحابيل التى يجرنا إليها المستعمرون ، لأنهم لايوحون إلى صنائعهم إلا بما يخدم أغراضهم الخبيثة ، فلنكشف الأعيب الأعداء ، ولنحكم عقولنا فيما يحاك لنا من مكائد ولنكن على وعى ويقظة تامين بما يدور من حولنا ، فالصراع على أشده والأعداء غير غافلين عنا ، بل يتابعون خطواتنا ويكاد يحصون علينا أنفاسنا ، ويعلمون جاهدين لوأد أية بادرة يتوسم أنها ستخلصنا من طغيانهم وتسلطهم .

« قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون »

المصادر والمراجع
مرتبة حسب أسماء الكتب

عنوان الكتاب	المؤلف	الناشر والطبعة
١ - أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ	د / ابراهيم شعوط	الطبعة الرابعة . مطبعة دار التأليف - مصر
٢ - أدب الكاتب	ابن قتيبة	
٣ - الأدب المقارن	د / غنيمى هلال	الطبعة الخامسة دار الثقافة بيروت .
٤ - الأعلام	خير الدين الزركلى	دار العلم للملايين - بيروت
٥ - الأغانى	أبوم الفرج الأصبهانى	دار صعبء - بيروت
٦ - الأمثال العربية	للمفضل الضبى	دار الرائد العربى بيروت
٧ - الأمثال العربية ومصادرها فى التراث	رودلف زلهايم ترجمة رمضان عبد التواب	مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٩٨٤
٨ - الأمثال فى القرآن الكريم	ابن قيم الجوزية تحقيق سعيد الخطيب	دار المعرفة بيروت
٩ - الأمثال من الكتاب والسنة	محمد بن على الحكيم الترمذى تحقيق على محمد البجاوى	دار نهضة مصر القاهرة
١٠ - الأمثال	أبو فيد مؤرخ السدوسى تحقيق د - أحمد الضبيب	مطابع الجزيرة الرياض
١١ - الأمثال فى النثر العربى القديم مع مقارنتها بنظائرها فى الآداب السامية الأخرى	د / عبد المجيد عابدين	مكتبة مصر القاهرة
١٢ - الأمالى	أبو على القالى	
١٣ - أم القرى	لعبد الرحمن الكواكبى	دار الرائد العربى بيروت
١٤ - الأوائل	لأبى هلال العسكرى	دار العلوم الرياض
١٥ - بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب	محمود شكرى الآلوسى	دار الكتاب العربى مصر
١٦ - البيان والتبين	أبو عثمان الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون	مكتبة الخانجى مصر الطبعة الرابعة
١٧ - تاريخ العرب الحديث	د / زاهية قدورة	دار النهضة العربية بيروت
١٨ - الفاخر	أبو طالب المفضل بن سلمة تحقيق عبد العليم الطحاوى	الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤
١٩ - حضارة العرب	د / غوستاف لوبون ترجمة عادل رعتر	دار أحياء التراث العربى بيروت الطبعة الثالثة
٢٠ - خزانة الأدب	عبد القادر البغدادى تحقيق عبد السلام هارون	دار الكتاب العربى القاهرة
٢١ - الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة	حمزة الأصبهانى تحقيق عبد المجيد قطامش	دار المعارف مصر الطبعة الثانية
٢٢ - ديوان عروة بن الورد		دار صادر بيروت ١٩٦٤م

عنـوان الكتـــاب	المؤلـف	الناشـر والطبعة
٢٣ – زهر الأكم فى الأمثال والحكم	الحســن اليوســى تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر	دار الثقافة ١٩٨١ م الدار البيضاء
٢٤ – زهرلاة الأدب	محمد بن القاسم الأنبارى تحقيق د / حاتم الضامن	دار الرشيد – بغداد ١٩٧٩م
٢٥ – زهرة الآداب	الحصرى القيروانى	
٢٦ – السنن	الترمذى	
٢٧ – الشعر والشعراء	ابن قتيبة	
٢٨ – شعراء السعودية المعاصرون	د / أحمد كمال زكى	دار العلوم – الرياض
٢٩ – الصاحبى	لابن فارس	
٣٠ – ظلام من الغرب	للشيخ محمد الغزالى	دار الاعتصام – مصر الطبعة الثالثة
٣١ – عبقرية الصديق	عباس محمود العقاد	دار الكتاب العربى – بيروت
٣٢ – عبقرية عمر	عباس محمود العقاد	دار الكتاب العربى – بيروت
٣٣ – العقد الفريد	ابن عبد ربه	
٣٤ – علم النفس	د / جميل صليبا	دار الكتاب اللبنانى – بيروت
٣٥ – عيون الأخبار	ابن قتيبة	الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣٦ – فجر الإسلام	أحمد أمين	مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية عشر
٣٧ – فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال	لأبى عبيد البكرى الأونبى تحقيق د / عبد المجيد عابدين و د / احسان عباس	جامعة الخرطوم
٣٨ – فى الهواء الطلق	امين نخلة	دار مكتبة الحياة – بيروت
٣٩ – اقتضاء الصراط	لابن تيمية	دار المعارف بيروت
٤٠ – مجمع الامثال	احمد بن محمد الميدانى تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم	البابى الحلبى مصر
٤١ – المخصص	ابن سيده	
٤٢ – المدخل إلى علم النفس	د. عبد الله عبد الحى موسى	مكتبة الخانجى مصر
٤٣ – المزهر فى علوم اللغة	جلال الدين السيوطى	مطبعة صبيح – مصر
٤٤ – المستقصى فى امثال العرب	جار الله الزمخشرى	دار الكتب العلمية بيروت
٤٥ – المعـــارف	ابن قتيبـــة تحقيق د ثروت عكاشة	دار المعارف – مصر الطبعة الثالثة
٤٦ – معاهد التنصيص على شواهد التلخيص	عبد الحليم بن احمد العباسى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد	عالم الكتب – بيروت
٤٧ – المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام	د – جواد على	دار العلم للملايين – بيروت
٤٨ – ملامح من دور الاسلام فى بناء العمارة (الحضارة) العربية قبل البعثة المحمدية	د – محمد رشاد خليل	الطبعة الاولى ١٩٨٢م
٤٩ – نقد القومية العربية	الشيخ عبد العزيز بن باز	المكتب الإسلامى – بيروت الطبعة الرابعة

عنوان الكتاب	المؤلف	الناشر والطبعة
٥٠ - نهاية الارب فى فنون الادب	للنويرى	وزارة الارشاد القومى - مصر
٥١ - النوادر فى اللغة	ابو ريد الانصارى تحقيق د - محمد عبد القادر احمد	دار الشروق - بيروت الطبعة الاولى ١٩٨١م
٥٢ - الوافى بالوفيات	صلاح الدين بن ايبك	فسبادن ١٩٧٣م
٥٣ - وفيات الاعيان	ابن خلكان	دار صادر بيروت
٥٤ - اليقظة الاسلامية	انور الجندى	دار الاعتصام - مصر

فهرس الموضوعات